مَا رَوَاهُ الوَاعُونَ

فِي أَخْبَارِ الطَّاعُونِ

لِلإمامِ جَلالِ الدِّينِ السِّيُوطِيّ

المتوفَّى سَنَة ٩١١هـ

ويليه

مُكتبة الإمام السِّيُوطي

في الطِّبِّ النَّبوي

شرح وتحقيق ودراسة

د. محمّد علي البار

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللّهمّ إنّا نعوذ بك من الوباء والبلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء وعضال الداء. . . ونعوذ بك من الطواعين والأوجاع التي انتشرت بسبب الزّنا والرّبا، والتي حذّرنا منها الحبيب المصطفى، صلّى الله عليه وآله وسلّم، حيث قال: **«ما نقض قوم العهد إلاّ كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم إلاّ سلّط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة إلاّ حبس عنهم القَطْر»**، أخرجه الحاكم. وحيث قال: **«لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»**، أخرجه الحاكم وابن ماجه والبزار، وحيث قال: **«إذا ظهر الربا والزنا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله»**، أخرجه الحاكم.

وأخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما (في كتاب الطب) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال: **«إن هذا الطاعون رجز على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها»**. وأخرجه أيضاً أحمد والنسائي وعبد بن حميد في مسنده بروايات متعدّدة عن أسامة بن زيد وسعد بن مالك (وهو سعد بن أبي وقاص)، وخزيمة بن ثابت: **«إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عُذِّبَ به قوم قبلكم»**، وفي لفظ: **«رجز أهلك الله به بعض الأمم، وقد بقيَ في الأرض منه شيء يجيء أحياناً ويذهب أحياناً»**.

وأخرج ابن جرير وغيره من أهل التفسير في قصة بلعام بن باعوراء في تفسير قوله تعالى: **﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ**

﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. أن بلعام نصح ملك الموآبيين عندما هجم عليهم موسى عليه السلام وقومه، بأن يخرجوا النساء ولا يمتنعن على أحد، فإن الله يبغض الزّنا، وإذا وقعوا في الزنا هلكوا. فوقع بنو إسرائيل في الزّنا، فسلّط الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً، حتى غضب حفيد هارون، ويدعى فنحاس فانتظم أحد قادة بني إسرائيل وهو يزني - بالمديانية في خيمة الاجتماع - والمرأة برمحه فارتفع الوباء.

وقد وردت قصة زنا الإسرائيليين بالموآبيات في سفر العدد من التوراة (الإصحاح ٢٥: ١ - ٩)، وفيها: «وأقام الشعب في شطيم (اسم موقع)، وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب، فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن، فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن، وتعلّق إسرائيل ببعل فغور (والبعل هو اسم صنم وفغور اسم موقع)، فحَمِيَ غضب الربِّ على إسرائيل، فقال الربُّ لموسى: خذ جميع الشعب وعَلِّقهم للربِّ مقابل الشمس فيرتدّ حمُوُّ غضب الربِّ عن إسرائيل. فقال موسى لقضاة إسرائيل: اقتلوا كل واحد قَوْمَهُ المتعلِّقين ببعل فغور.

«وإذا رجل من بني إسرائيل جاء وقدم إلى أخوته المديانيّة أمام عيني موسى، وأعين كل جماعة بني إسرائيل، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع (وهي الخيمة التي يزعمون أن موسى يجتمع فيها مع الربِّ، وتسمّى أيضاً قبّةُ الزمان). فلما رأى فنحاس بن العازار بن هارون الكاهن (يسمّون النبيّ هارون عليه السلام الكاهن) قام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً بيده، ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبّة، وطعن كليهما: الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها فامتنع الوباء عن بني إسرائيل، وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً».

كما ورد في سبب الطاعون في الأمم السابقة أن الله أوحى إلى داود أن بني إسرائيل قد كثر طغيانهم، فخيّرهم بين ثلاث: «إما أن أبتليهم بالقحط سنتين، أو أسلّط عليهم العدو شهرين، أو أرسل عليهم الطاعون ثلاثة أيّام»، فاختار لهم نبيّهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً (أورده ابن حجر في بذل الماعون عن ابن إسحاق في المبتدأ).

وقد وردت هذه القصة أيضاً في سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٢٤)، مع اختلاف في التفاصيل.

ولبني إسرائيل دور في كل زمان ومكان في نشر الزنا والخنا واللّواط وكافة الممارسات الجنسية الشاذّة... كما أنّ لهم دوراً كبيراً في نشر الخمور والمخدرات في مختلف أصقاع العالم... وهم أصحاب الربا وأربابه على مرّ العهود والقرون... فلا غرو إذن أن يكون لهم دور في انتشار الطاعون الحقيقي سابقاً، وانتشار الطاعون المجازي لاحقاً... فكل الأمراض الجنسية وعلى رأسها الأيدز الذي اشتعل أواره، وكثرت ضحاياه، ناتجة عن انتشار الزنا والإباحية... ولليهود في ذلك دور، وأيّ دور، مما أدّى إلى أن يطلق الإعلام على الأيدز «طاعون العصر» و «وباء العصر»، وهو كذلك إلاّ أن الطاعون هنا يطلق على كل وباء من باب المجاز، وليس من باب الحقيقة.

والغريب حقاً أن علماءنا الأجلاّء من الفقهاء والمحدثين قد ميّزوا بين الطاعون والوباء، قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم:

«وأما الوباء، فقال الخليل وغيره: هو الطاعون. وقال: هو كل مرض عام. والصحيح الذي قاله المحقّقون: أنه مرض الكثير من الناس في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد من أمراض في الكثرة وغيرها... ويكون مرضهم نوعاً واحداً بخلاف سائر الأوقات، فإن أمراضهم فيها مختلفة. قالوا: **وكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً... والوباء الذي وقع في الشام في زمن عمر** (بن الخطاب) **كان طاعوناً، وهو طاعون عمواس، وهي قرية معروفة بالشام».**

ويقول الإمام ابن القيّم في الطبّ النبوي:

«والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً... فكل طاعون وباء وليس كل وباء طاعوناً، وكذلك الأمراض العامّة أعم من الطاعون، فإنه واحد منها».

ويقول الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري، شرح صحيح البخاري:

«والدليل على أن الطاعون يغاير الوباء ما سيأتي في رابع أحاديث الباب: «إن الطاعون لا يدخل المدينة». وقد سبق في حديث عائشة رضي الله عنها: **«قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله»...** وفيه قول بلال: **«أخرجونا إلى أرض**

الوباء»، فكل ذلك يدلُّ على أن الوباء كان موجوداً بالمدينة... وقد صرّح الحديث الأول أن الطاعون لا يدخلها، فدلَّ على أن الوباء غير الطاعون... وأن من أطلق على كل وباء طاعوناً، فبطريق المجاز».

ويقول القاضي عياض:

«أصل الطاعون القروح الخارجة في الجسد، والوباء عموم الأمراض، فسُمّيت طاعوناً لشبهها بها في الهلاك... وإلاّ فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً».

والغريب أن أعظم الأطباء في العصور الوسطى قاطبة، وهو الشيخ الرئيس ابن سينا لم يصل إلى مستوى فقهائنا ومحدثينا، حيث نجده يقول في القانون:

«والطواعين تكثر عند الوباء في البلاد الوبئية، ومن ثَمَّ أُطْلِقَ على الطاعون وباءٌ وبالعكس».

والطاعون سببه بكتيريا عصوية عنقودية تصطبغ سلباً بصبغة جرام فتبدو حمراء تحت المجهر، وتدعى يرسينيا بستس Yersinia Pestis، نسبة إلى العالم السويدي الذي اكتشف ميكروب الطاعون عام ١٨٩٤، بعد أشهر قليلة من اكتشاف العالم الياباني شيباسابور كيتاسو. وكان المفروض أن يُرجع الفضل لصاحبه الأوّل، إلاّ أن الغرب كعادته يتجاهل ما استطاع الأمم الأخرى، وينسب كل اكتشاف لأبنائه.

وقد اكتشف عالم ياباني آخر هو مسانوري أوجاتا عام ١٨٩٧ أن الطاعون ينتقل بواسطة البراغيث... وكالمعتاد سرق عالم فرنسي يُدعى بول لويس سيمون هذه الفكرة وقام بالأبحاث التي تدعم هذا الاكتشاف، وقام الغرب بنسبة هذه النظرية والاكتشاف إلى العالم الفرنسي، وتجاهل العالم الياباني صاحب السبق. وفي عام ١٩٠٨ تأكّد بما لا يقبل الشكّ أن براغيث الفئران هي الناقلة لمرض الطاعون بواسطة العديد من التجارب.

وتعتبر براغيث الفئران هي الناقل الأساسي لميكروب الطاعون، وتتغذّى هذه البراغيث على الدم حيث تقرض وتخزّ الفئران والجرذان. وينتقل الميكروب إلى معدة البرغوث فينمو فيها حتى يسدّها، فيزداد نهم البرغوث

وجوعه، فيحاول أن يجد وجبته بوخز فأر آخر، وتنساب البكتريا مع إفرازات فمه وإفرازات أمعائه فتصيب الفأر الجديد. . . وهكذا تبدأ العدوى في القوارض والجرذان (الفئران الكبيرة التي تعيش عادة في المجاري والحقول)، ثم تنتقل العدوى إلى فئران المخازن ومخازن السفن والفئران المنزلية. . . وعندما يكثر الموت في الفئران تنتقل العدوى إلى الإنسان.

وفترة الحضانة في الإنسان قصيرة، من أربعة إلى ستة أيام، ثم تظهر حمّى شديدة وصداع، وتظهر الغدد اللمفاوية في المراق (المنطقة الأربية Inguinal region)، وفي الإبط وفي أعلى العنق خلف الأذن. والعجيب حقاً أن الرسول الكريم صلوات ربّي وسلامه عليه وعلى آله، قد وصف هذه الأعراض وصفاً دقيقاً معجزاً رغم أنه لم يرَ الطاعون في حياته، ولا دخل الطاعون جزيرة العرب آنذاك.

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبيّ ﷺ: «الطعن عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غُدّة كغدّةِ البعير يخرج في المراق والإبط». وأخرج الإمام أحمد عن عائشة قالت: «يا رسول الله فما الطاعون؟ قال: غدّة كغدّة الإبل المقيم فيها كالشهيد، والفارُّ منها كالفارّ من الزحف». وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نُعيم عن عائشة أيضاً قالت: «الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدَّة كغدّة البعير يخرج في المراق والإبط».

وقد وصف علماؤنا الأجلاّء الطاعون وصفاً دقيقاً. قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم (كتاب الطب، باب الطاعون): «وأما الطاعون فهو قروح تخرج في الجسد فتكون في المراق والآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن. ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسودّ ما حواليه أو يخضرّ أو يحمرّ حمرة بنفسيجة كَدِرة، ويحصل معه خفقان القلب والقيء».

وقال النووي في تهذيب الأسماء والصفات: «الطاعون مرض معروف وهو بثر وورم مؤلم جداً، يخرج مع لهيب، ويسودّ ما حواليه أو يخضرّ أو يحمرّ».

ووصف ابن حجر وابن القيّم وعدد غفير من الفقهاء والمحدثين الطاعون

بدقّة أكثر مما وصفه بها الأطباء من أمثال الرازي وابن سينا وابن النفيس... ولم يكتفوا بوصف الطاعون الغددي، بل وصفوا أيضاً الطاعون الرئوي.

والطاعون الرئوي لا يحدث إلاّ بعد حدوث الطاعون الغددي (الدبلي)، ثم ينتقل الميكروب إلى الرئتين فيبصق المصاب دماً أو بصاقاً مدمّماً (أي مختلطاً بالدم). ويحتوي البصاق على ملايين البكتيريا المُعدية فيستنشقها الآخرون فتنتقل إليهم العدوى، وفترة الحضانة ها هنا أقصر والمرض أشدُّ وأعتى، وقلَّ من يفلت منه أحد بدون العلاج الحديث بالمضادات الحيوية والأوكسجين ومعالجة هبوط القلب الذي كثيراً ما يحدث مع الطاعون الرئوي.

يقول الإمام الغزالي كما ينقله عنه ابن حجر في فتح الباري: «إن الهواء ـ في البلدة المصابة بالطاعون ـ لا يضرُّ من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام استنشاقه، فيصل إلى القلب والرّئة فيؤثر في الباطن، ولا يؤثر في الظاهر إلاّ بعد التأثير في الباطن».

وهو كلام دقيق ونفيس جداً، حيث إن العدوى في الطاعون الرئوي تنتج عن استنشاق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون. وتصاب الرّئة ثم الأعضاء الداخلية الباطنة قبل أن تظهر الإصابات الخارجية. وهو ما وصفه الإمام الغزالي بدقّة بينما لم يذكر ذلك الأطباء في زمنه والأزمان التي قبله وبعده إلى العصور الحديثة عندما تمّت معرفة الطاعون وأنواعه وكيفية انتقاله.

وقد أشار أيضاً إلى الطاعون الرئوي كثير من الفقهاء والمحدّثين، حيث ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه «بذل الماعون في فضل الماعون» (الذي اختصره الإمام السيوطي وأضاف إليه وسمّاه: «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»)، نقلاً عن الإمام تاج الدين السبكي يصف طاعون عام ٧٦٤هـ: «إن طلعت حبّة لابن آدم هبطت به إلى الرَّمس (وهو القبر)، وإن بصَقَ دماً (وهو الطاعون الرئوي) قال: يا حسرتا على ما فرّطتُ بالأمس».

وذكر ابن الوردي أيضاً في مقامته عن طاعون ٧٤٩هـ (نقلاً عن المصدر السابق): «فمتى بصق واحدٌ منهم دماً، تحقَّقَ كلٌّ منهم عدماً. ثم يسكن الباصق الأجداث (أي القبور) بعد ليلتين أو ثلاث». وقال نظماً:

سـألـتُ بـاريَ الـنَّـسَـمْ ... فـي دفـع طـاعـونٍ صـدمْ

فمن أحسّ بَلْعَ دمٍ فقد أحسّ بالعدم

ووصف الصفدي أيضاً طاعون عام ٧٤٩هـ، فذكر أنواعه المختلفة وخاصة الغددي والرّئوي، حيث قال: «وكان يقتل بالرائحة - أي بالتنفّس -، وبقدر الحبّة تظهر في المغابن كالإبط ونحوه، وببثرة خلف الأذن، وبقدر الخيارة في الورك، **وبعضهم يبصق دماً فيخرُّ ميتاً**».

وهكذا نجد الفقهاء والمحدثين يهتمّون اهتماماً عظيماً بالطاعون، وذلك لورود عشرات الأحاديث المرويّة عن سيد البريّة حول الطاعون والوباء، فقد خصَّص الإمام البخاري في صحيحه بابين للطاعون في كتاب الطب، وهما باب «ما يذكر في الطاعون» و «باب أجر الصابر في الطاعون»، ولم يكتف بذلك بل بوّب له في كتاب الحيل في «باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون»، وبوّب للطاعون في كتاب التوحيد، وكتاب القدر، وكتاب الأذان، وكتاب الجهاد، وكتاب فضائل المدينة التي لا يدخلها الطاعون ولا الدجّال.

وفعل الشيء ذاته الإمام مسلم في صحيحه، حيث ذكر الطاعون في كتاب السلام «باب الطاعون والطيرة»، وكتاب الحج «باب بيان الشهداء»، وفي كتاب «الإمارة» وهكذا. . .

وذكر أبو داود في سننه الطاعون في باب «فضل من مات في الطاعون»، وباب «الخروج في الطاعون»، وكلاهما من كتاب الجنائز من سننه.

أمّا الترمذي فقد بوّب للطاعون في كتاب الجنائز من سننه تحت عنوان «باب في كراهية الفار من الطاعون»، وكتاب الفتن، «باب ما جاء في الدجال لا يدخل المدينة».

والخلاصة لا يوجد كتاب من كتب الحديث النبويّ إلاّ وفيه للطاعون عدّة أبواب، وقد ذكرنا طرفاً منها في فصل الرسائل والمصنّفات في الطاعون والوباء في التراث الإسلامي، حيث نجد أن أمّهات كتب الحديث والمسانيد كلّها قد ذكرت الطاعون، كما قام شرّاح هذه الأحاديث بالاستفاضة في ذكرها.

ولا عجب في ذلك، فقد كان الطاعون يشكّل تحدّياً رهيباً حيث كان يقتل ويحصد الملايين في دورات متتابعة وهجمات متلاحقة شملت العالم بأسره، ولم ينجو منها العالم الإسلامي. . .

كما أن الطاعون يشكّل أيضاً تحدّياً عقدياً دينياً: من أين جاء الوباء؟ ما سببه؟ لماذا يصاب به المؤمنون إذا كان رجزاً على الكافرين والمنافقين؟ وكيف يكون شهادة للمسلم بينما هو رجز وعذاب للكافر؟ ولذا إذا كان رحمة هل يجوز الدعاء برفعه؟ وهل يتمُّ ذلك في دعوات جماعية مثلما يحدث في الاستسقاء؟... وما هو الموقف الشرعي من ذلك كلّه؟ ثم ما هي أعراض الطاعون؟ وقد وصفها النبيّ ﷺ أدقّ وصف وأجمله: «الطاعون غدة كغدّة البعير يظهر في المراق والإبط»... وكيف يتعامل الناس مع الطاعون؟ وهل يفرّون من البلدة المصابة بالطاعون أم يقيمون فيها؟ وهل يُقْدِمون على البلدة التي اجتاحها الطاعون، أم يمتنعون من الدخول إليها؟ كل ذلك تعرّضت له الأحاديث الشريفة، وتعرّض له الصحابة كما في حديث عمر رضي الله عنه عندما أراد دخول الشام، ووصل إلى سرغ، ولقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة وشرحبيل بن حسنة ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم، واختلفوا عليه؛ فمنهم من رأى أنه قَدِمَ لأمر فلا يفرّ منه ويكل الأمر لله، ومنهم من رأى أنه لا يقدم بالناس على الطاعون، فجاء عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه، وقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه».

لهذا كله كانت الكتابة حول الطاعون والوباء أوسع وأغزر عند الفقهاء والمحدّثين عمّا هي عليه عند الأطباء، فما كتبه الرازي في الطاعون في كتابه الموسوعي الحاوي، وفي كتابه المنصوري في الطب محدود جداً، ولا يزيد عن صفحة هنا، وأقلّ من صفحة هناك. وكذلك فعل علي بن سهل بن الطبري في كتابه «فردوس الحكمة في الطب»، وابن سينا في «القانون»، وابن النفيس في «الموجز في الطب»، بينما نجد صفحات عديدة في صحيح مسلم وشروحه وصحيح البخاري وشروحه، وخاصة كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري، وكذلك شروح كتب الحديث الأخرى.

وتحتوي كتب الطب النبويّ، وخاصة كتاب ابن القيّم، على فصل واسع قيّم عن الطاعون. ثم لم يكتفِ علماؤنا الأجلاء بذلك بل صنّفوا في الطاعون رسائل مستقلّة كاملة ابتداء من الحافظ ابن أبي الدنيا المتوفّى سنة ٢٨١هـ، وانتهاء برسائل في القرن الثالث عشر الهجري مثل رسالة في الطاعون للسيد عقيل بن عمر السقاف المكي المتوفى سنة ١٢٤٠هـ، وابن بيرم التونسي

المتوفى سنة ١٢٤٦هـ صاحب كتاب «حُسن النبا في جواز التحفظ من الوبا»، وأحمد بن رشيد الرومي المتوفى سنة ١٢٥٠هـ صاحب كتاب «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين»، وحمدان بن خواجة الجزائري المتوفى سنة ١٢٦١هـ صاحب رسالة: «إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء». وآخرهم عبد الحميد بن نعمر الخربوتي الرومي المتوفى سنة ١٣٢٠هـ صاحب رسالة «جواب الوزير في حرمة امتناع الحاج عن دخول مكّة عند الوباء الكبير».

وقد جمعتُ ما استطعت العثور على مظانّه من أسماء هذه الرسائل في الطاعون والوباء المذكورة في فهارس الكتب والمصنّفين وفهارس مخطوطات المكتبات، فوجدت سبعين رسالة مستقلّة في الطاعون والوباء... وكلها تقريباً في الطاعون ما عدا بضع رسائل في الهيضة والجدري، وهي متأخّرة، أي في القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر الهجري.

ورغم كثرة الرسائل المخطوطة في الطاعون والوباء في التراث الإسلامي، إلاّ أن هذه الرسائل لا تزال حبيسة المكتبات، ولم يظهر منها شيء إلى القرّاء إلى اليوم إلاّ كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني «بذل الماعون في فضل الماعون»، والذي حقّقه الأستاذ أحمد عصام عبد القادر الكاتب ونشرته دار العاصمة بالرياض سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ولا شكّ أن المكتبة العربية المعاصرة تحتاج إلى إخراج كتاب آخر عن الطاعون يتناول جوانب مختلفة من الطاعون بالشرح والتدقيق، ويربط ما ورد عن الطاعون في تراثنا الزاخر بما نعرفه اليوم عن الطاعون، بعد التقدم العلمي الطبّي الباهر.

لهذا كلّه قمت بتحقيق وشرح كتاب الإمام السيوطي «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وقد حصلت على نسختين مخطوطتين من الكتاب: الأولى من دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ١٦٥ حديث تيمور، والثانية مخطوطة مكتبة جامعة ليدن بهولندة ضمن مجموع «مخطوطات شرقية برقم ٤٥٥». وقد تكرّم الأستاذ نظام يعقوبي الداعية والاقتصادي الإسلامي من البحرين بإعطائي صورة منها حيث يحتفظ في مكتبته العامرة بمئات المخطوطات وآلاف الكتب النفيسة.

كما استعنت أيضاً بالفصل الأخير من كتاب السيوطي، بعنوان: «سرد الطواعين الواقعة في الإسلام»، الذي طبعه في هذا القرن المستشرق الألماني فون كريمر مع تعليقات وترجمة باللغة الألمانية، وبما أني لا أعرف الألمانية فإنني لم أستطع الاستفادة من تعليقاته.

واستفدت من كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني «بذل الماعون» الذي حقّقه الأستاذ الكاتب، كما استفدت من مقالات وأبحاث نشرها باللغة الإنجليزية المستشرق الإنجليزي الصديق لورانس كونراد الأستاذ بجامعة لندن والباحث في معهد ويلكم لتاريخ الطب بلندن، عن الطاعون والوباء. والأستاذ كونراد مؤرخ تركّز جهده على مدى سنين حول دراسة الطاعون والوباء في التراث الإسلامي، وقد أخبرني بأنه قد أتمّ كتاباً باللغة الإنجليزية حول هذا الموضوع، ولعلّه في طريقه الآن إلى النشر.

ورجعت طبعاً إلى كتب الحديث وشروحها، وكتب الطب النبوي وإلى المراجع الطبيّة، ودائرة المعارف البريطانية، لاستكمال موضوع البحث عن الطاعون.

وقد وضعت سبعة فصول تمهيدية بين يدي كتاب الإمام السيوطي، وهي:

١ ـ نبذة تاريخية عن الطاعون، وفيه شرح لتاريخ الأوبئة العالمية للطاعون وما سبقها من طواعين أصابت بني إسرائيل... ودراسة للطاعون في البلاد العربية والإسلامية منذ قبيل ظهور الإسلام والتي جاءت في شعر حسان بن ثابت عندما كان في الشام إلى طاعون عمواس، وما تبعه من طواعين، إلى الوباء العالمي الأخير الذي ظهر عام ١٨٩٤ واستمر حتى عام ١٩١٤، وهو آخر وباء عالمي للطاعون ومات فيه أكثر من عشرة ملايين من سكان العالم. أمّا ما حدث من طاعون في الهند عام ١٩٩٤، فلم يكن بدرجة الوباء، حيث أن ضحاياه لم يتجاوزوا المئات، والمصابين به لم يتعدّوا الآلاف، بل إن تقارير الحكومة الهندية تقول إنّ الموتى لم يتجاوزوا العشرات، والمصابين لم يبلغوا المئات.

٢ ـ سبب الطاعون بين الطب وحديث المصطفى ﷺ: وفيه ناقشت سبب

الطاعون عند القدماء، وما ذكرته الأحاديث عن وخز الجن... وما هو المقصود بالجن هاهنا... وهل ما ذهب إليه علماؤنا الأفاضل هو الصواب؟ أم أن الحق غير ذلك؟

٣ ـ أعراض الطاعون في التراث الإسلامي والطب الحديث، وفيه توضيح لدقّة وإعجاز وعظمة الأحاديث النبوية في هذا الباب، وأنها على وجازتها وصفت الطاعون أدقّ وصف وأبلغه. وكذلك ما كتبه الفقهاء والمحدّثون حول الطاعون، ودقّتهم في عرض علاماته وأعراضه بدرجة مذهلة فاقت ما كتبه الأطبّاء في تلك الأزمنة.

٤ ـ الحجر الصحي والطاعون: وهو أيضاً مَعْلَم ونبراس لأحاديث المصطفى ﷺ وإعجازها.

٥ ـ الرسائل والمصنّفات في الطاعون والوباء في التراث الإسلامي.

٦ ـ ذكر مخطوطات كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، ووصفها وأين توجد المخطوطات الأخرى التي لم أطّلع عليها، وقيمة هذا الكتاب وميزته، وما فيه من فصول.

٧ ـ ترجمة للإمام السيوطي.

والله أرجو أن يتقبّل هذا العمل ويبارك في هذا الجهد وينفع به كاتبه وقارئه وناشره إنه وليّ ذلك، عليه توكّلت وإليه أنيب ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم.

كتب في جدة في ٢٥ ربيع الثاني ١٤١٧هـ الموافق ٨ سبتمبر ١٩٩٦م.

د. محمد علي البار

نبذة تاريخية عن الطاعون ونظرة في شعر حسّان بن ثابت الأنصاري في الطاعون

يعتبر الطاعون من أشدّ الأوبئة فتكاً بالبشرية على مدى القرون والأجيال المتطاولة، حتى أن كل وباءٍ شديد يقال له مجازاً طاعوناً. والطاعون وباء مخصوص سببه نوع من البكتيريا العصوية العنقودية من فصيلة يرسينيا، وينقلها برغوث الفئران إلى الإنسان... فإذا أصيب به الإنسان وانتقلت الإصابة إلى الرئتين ظهر الطاعون في البصاق والنفث الدموي... وبذلك يتمّ الانتقال من الإنسان إلى الإنسان عبر استنشاق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون.

الطاعون في الأمم السابقة وبني إسرائيل:

وأول وصف مسجّل للطاعون هو الذي حدث في مصر القديمة، وسجّله قدماء المصريين على أوراق البردي.

وقد ذكر الإمام السيوطي في كتابه «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، أن الطاعون حدث في مصر في عهد موسى وفرعون نوعاً من الرجز والعذاب لقوم فرعون، قال: «أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن سعيد بن جبير، قال: أمر موسى قومه من بني إسرائيل بعد ما جاءَ قوم فرعون الآيات الخمس: الطوفان وما ذكر الله في الآية ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣] ـ فلم يؤمنوا، أو لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال: ليذبح كل رجل منكم كبشاً ثم ليخضب كفّه في دمه، ثم ليضرب به على بابه. فقال القبط لبني إسرائيل: لِمَ تجعلون هذا الدم على أبوابكم؟ فقالوا: إن الله مرسل عليكم عذاباً يقتلكم وتهلكون. فأصبحوا وقد

طُعِنَ من قوم فرعون سبعون ألفاً، فأمسوا وهم لا يتدافنون. فقال فرعون عند ذلك لموسى: ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كففت عنا الرّجز، وهو الطاعون، لنؤمننّ لك، ولنرسلنّ معك بني إسرائيل، فدعا ربّه، فكشف عنهم». قال: مرسل الإسناد، ورُويَ عن ابن عباس موصولاً.

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهو الصادق المصدوق أن الطاعون قد أرسله الله رجزاً وعذاباً على من كان قبلنا من الأمم. أخرج البخاري في صحيحه (كتاب الطب)، ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ قال:

«إن هذا الطاعون رجز على من كان قبلكم أو على بني إسرائيل، فإذا كان بأرض فلا تخرجوا منها، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها». وأخرجه أيضاً أحمد في مسنده، والنسائي في سننه، وعبد بن حميد في مسنده، بروايات متعدّدة عن أسامة بن زيد وسعد بن مالك وخزيمة بن ثابت، بلفظ: **«إن هذا الطاعون رجز وبقيّة عذاب عُذِّبَ به قوم قبلكم»**، وفي لفظ: **«رجز أهلك الله به بعض الأمم، وقد بقي في الأرض منه شيء يجيء أحياناً ويذهب أحياناً»**.

قصة بلعام بن باعوراء والطاعون (الزنا والطاعون):

وأخرج ابن جرير وغيره من أهل التفسير قصّة بلعام بن باعوراء، وكان رجلاً مُجاب الدعوة، فلما غزا موسى الموآبيين طلب ملك موآب من بلعام أن يدعو على موسى فرفض أوّل الأمر، ولكن الملك أجزل له العطيّة فقبل، فكان كلما أراد أن يدعو على موسى وقومه دعا لهم، فلما عاتبه الملك على ذلك قال: «لا يجري لساني إلاّ بذلك، ولكن أدلّكم على شيء عسى أن يكون فيه هلاكهم. إن الله يبغض الزّنا، وإنهم إن وقعوا في الزنا هلكوا». فأخرجوا النساء فوقع بنو إسرائيل في الزنا، فأرسل الله عليهم الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً.

ما جاء في التوراة عن الزّنا والطاعون:

ووردت قصة بلعام في التوراة في سفر العدد (الإصحاح ٢٢)، ولكنها لم تذكر أنه نصح الملك بأن يقدّم النساء لبني إسرائيل. وفي التوراة المحرّفة سفر العدد (الإصحاح ٢٥)، ترد قصة زنا الإسرائيليين بالموآبيات بمبادرة ذاتية من

المؤآبيين عندما رأوا أنهم سينهزمون، ولم يكن لبلعام فيها أي مشورة. وإليك نصّ ما جاء في سفر العدد (الإصحاح ٢٥: ١ ـ ٩):

«وأقام الشعب في شطيم (اسم موقع)، وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب، فدعَوْن الشعب إلى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلَّق إسرائيل ببعل فغور (والبعل هو صنم كان يعبد في لبنان وما حولها)، فحَمِي غضب الربُّ على إسرائيل، فقال الربُّ لموسى: خذ جميع الشعب وعَلِّقهم للربِّ مقابل الشمس فيرتدَّ حُمُوُّ غضب الرب عن إسرائيل. فقال موسى لقضاة إسرائيل: اقتلوا كلُّ واحدٍ قَوْمَهُ المتعلّقين ببعل فغور.

«وإذا رجل من بني إسرائيل جاء وقدَّم إلى إخوته المديانيَّة أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل، (يُدعى الرجل زمري بن سالو رئيس بيت الشمعونيين)، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع (وهي الخيمة التي يزعمون أن موسى يجتمع فيها مع الرب، وكانت تسمّى أيضاً قبّة الزمان)، فلما رأى فينحاس بن العازر بن هارون الكاهن (يسمّون النبيّ هارون عليه السلام الكاهن) قام من وسط الجماعة، وأخذ رمحاً بيده، ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبّة، وطعن كليهما: الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها، فامتنع الوباء عن بني إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً».

وهكذا نجد تفاصيل القصة تختلف في التفاسير عن التوراة، وحتى العدد يختلف فهم سبعون ألفاً في التفاسير عند ابن جرير وابن حِبّان... إلخ، بينما هم في التوراة أربعة وعشرين ألفاً.

قصة نبيّ الله داود والطاعون في التراث الإسلامي:

وذكر ابن حجر العسقلاني والسيوطي عن ابن جرير وغيره قصة أخرى لحدوث الطاعون مرة أخرى في بني إسرائيل، فقال: «وأخرج في مسنده عن عليّ بن أبي طالب أن نبيّاً من الأنبياء عصاه قومه، فقيل له: نقتلهم بالجوع، قال: لا. قال: نسلّط عليهم عدواً من غيرهم. قال: لا، ولكن موت ذفيف، فسلَّطَ الله عليهم الطاعون، فجعل يقلُّ العدد، ويحرق القلوب، وهو بقية عذاب، عُذِّبَ به من كان قبلكم».

وفي المبتدأ لابن إسحاق: «إن الله أوحى إلى داود أن بني إسرائيل قد

كثر طغيانهم فخيّرهم بين ثلاث: إمّا أن أبتليهم بالقحط سنتين، أو أسلّط عليهم العدوّ شهرين، أو أرسل عليهم الطاعون ثلاثة أيام. فخيّرهم، فقالوا: أنت نبيّنا فاختر لنا، فقال: فأمّا الجوع فإنه بلاء فاضح لا صبر عليه، وأما العدوّ فلا بقيّة معه، فاختار لهم الطاعون، فمات منهم إلى أن زالت الشمس سبعون ألفاً، فتضرَّعَ داود إلى الله فرفعه عنهم».

قصة نبيّ الله داود والطاعون في سفر صموئيل الثاني:

وقد جاءت هذه القصّة أيضاً في سفر صموئيل الثاني (الإصحاح ٢٤)، حيث أمر الربُّ داود أن يُحصي إسرائيل ويهوذا. وإحصاء اليهود مُقدِمة للهلاك، فأحصاهم داود فوجد عدد المقاتلين من إسرائيل (وهم جميع الأسباط ما عدا سبطي يهوذا ولاوي) ثمانمائة ألف رجل ذي بأس مستلّ السيف... ورجال يهوذا خمسمائة ألف مقاتل. أمّا سبط لاوي (قبيلة موسى وهارون)، فمنهم الكهنة والأحبار والأنبياء وليس عليهم قتال. (طبعاً هذه الأعداد خرافية ومبالغ فيها جداً)، وحزن الملك داود (يزعمون أن داود كان ملكاً فقط ولم يكن نبيّاً)، وتضرّعَ للرب، ولكن الربُّ كلّم النبيّ جاد وقال له: خيّر داود بين واحدة من ثلاث: إما جوع في الأرض لمدة سبع سنين، أو تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يهزمونك، أو ثلاثة أيام وباء. فاختار داود الوباء، فمات من الشعب سبعون ألف رجل. وبَسَطَ الملَكُ يده على أورشليم ليهلكها **فندم الربُّ عن الشرّ** (دائماً يندم الربُّ عندهم على الشرّ الذي يعمله في ابنه البكر إسرائيل)، وقال الربُّ للملاك: كفى الآن ردّ يدك عن الشعب. وفرح داود والشعب بذلك وقدموا للربِّ محرقات (هولوكوست) ذبائح لأنّ الربّ حسب زعمهم يحب اللحم المشوي جداً، ومستعد أن يتنازل عن نصف مملكته من أجل رائحة الشواء، (عليهم لعائن الله الأبدية السرمدية).

أول وباء عالمي Pandemic (٥٤١ ـ ٧٤٩م/ قبل الإسلام إلى ١٣١هـ):

يعتبر طاعون جوستنيان (الامبراطور البيزنطي)، أول طاعون انتشر في العالم القديم بأسره، وقتل خلال قرنين من الزمان نصف سكان المعمورة آنذاك. وقد ظهر هذا الطاعون عام ٥٤١ بعد الميلاد في وادي النيل، وانتقل منه إلى الدلتا ومنها إلى سوريا، ووصل إلى آسيا الصغرى ودخل القسطنطينية

في صيف عام ٥٤٢، وقتل ستة من كل عشرة من سكانها... واجتاح الطاعون أوروبا وشمال أفريقيا والشام بأكمله ومصر والعراق وفارس ومعظم البلاد المعمورة آنذاك. وكان عدد ضحاياه أكثر من مائة مليون شخص على مدى قرنين من الزمان في موجات متلاحقة، كلما خَفَّت موجة تلتها موجة أخرى أشدُّ وأعتى.

«**وأول طاعون في الإسلام**»، كما يقول ابن أبي حجلة في كتابه الطاعون، وينقله عنه ابن حجر والسيوطي في كتابيهما عن الطاعون: «وقع على عهد النبيّ ﷺ سنة ست للهجرة ـ أي ٦٢٧م ـ بالمدائن، ويعرف بطاعون شيرويه». وحكاه ابن عساكر في تاريخ دمشق باسم طاعون يزدجرد.

وقد ذكر ابن حجر والسيوطي كلاهما، الطواعين التي حدثت في الإسلام، وأوّلها طاعون شيرويه الذي لم يدخل جزيرة العرب.

الطاعون الذي وصفه حسان بن ثابت قبل الإسلام:

وصف حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي شاعر رسول الله ﷺ طاعوناً حدث بالشام قبل ظهور الإسلام... وكان حسان شاعر الغساسنة في الجاهلية وصديقاً لهم، فهو يلتقي معهم في عمرو بن عامر، والغساسنة ينتسبون إلى جفنة بن عمرو بن عامر اليمني السبائي القحطاني فهم من أرومة واحدة... وكان جَبَلة بن الأيهم الغسّاني صديقاً لحسّان ومكرماً له.

وقد جاء في ديوان حسان[1] ثلاثة أبيات تحت عنوان: «وقال في طاعون كان بالشام»:

صابَتْ شعائره بُصرى وفي رُمَحٍ ... منه دخانُ حريقٍ كالأعاصيرِ
أفنى بذى بَغْلَ حتى بادَ ساكنُها ... وكُلُّ قصرٍ من الخمَّانِ مَغمُورِ
فأعجل القوم عن حاجاتهم شَغَلٌ ... من وخزِ جنٍّ بأرض الروم مذكورِ

(١) ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري الخزرجي بشرح عبد الرحمٰن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٠. وحسان رضي الله عنه شاعر رسول الله ﷺ عاش طويلاً وعمّر. وقيل إنه عاش ٦٠ عاماً في الجاهلية وستين في الإسلام، وتوفي سنة ٥٠ هجرية (٦٦٩م).

يقول إن أعلام هذا الطاعون قد هبطت (بُصرى)، وأصاب (رُمَح) منه دخان شديد كالأعاصير، وأنه أفنى سكان مدينة (ذي بعل) كما أباد كل بيت ومسكن في منطقة (الخمّان). وأن هذا الطاعون المهلك أعجل القوم عن حاجاتهم الأساسية وشغلهم حتى عمّا يريدون أن يقوموا به، ذلك لأنه من وخز الجنّ... وهو طاعون قادم من بلاد الروم التي تكرّر فيها هذا الطاعون. وتشمل بلاد الروم، بالإضافة إلى آسيا الصغرى وسوريا. وأمّا المناطق التي ذكرها حسان، فهي تقع كما يقول لورانس كونراد في بحثه القيّم عن «الوباء في وسط سوريا في أواخر القرن السادس الميلادي. ونظرة فاحصة إلى شعر حسان بن ثابت»[1]، في جنوب سوريا، وبُصرى مدينة مشهورة في طريق الحجاز إلى الشام، وقد دخلها الرسول ﷺ عندما ذهب مع عمّه أبي طالب، وهو طفل صغير... وخاف عليه راهب بصرى بُحيرا من يهود وحذّر عمّه أبا طالب من كيدهم. ويوجد «تل الرماح» جنوب شرق بصرى، بينما تقع الخَمّان شمال غرب بُصرى. وجميعها في منطقة الحوران من سوريا. وتعتبر الخمّان من مناطق الغساسنة المعروفة، ويقع فيها تل العرار المعروف إلى اليوم، أمّا مدينة ذي بعل فليست معروفة، ولم يستطع كونراد أن يحقّق موضعها.

ويورد كونراد قصيدة أخرى لحسان بن ثابت يمدح فيها جبلة بن الأيهم ويتحسّر على ديارهم التي أُصيبت بحلول عظيمة الأركان، في وقت كانت الولائد ينظمن الأكلّة - جمع إكليل - من المرجان احتفاءً بعيد الفصح الذي قد دنا، فطرقهم هذا الطارق الذي أخلى ديار آل جفنه - وهم الغساسنة - وجعل ديارهم تقفر من ساكنيها... ويعتقد كونراد أن هذا الوصف ينطبق على أحد الطواعين التي حلّت في الشام فيما بين ٥٩٠ و٦١٠ ميلادية - أي قبل ظهور الإسلام -.

يقول حسّان:

لـمـن الـدارُ أوحَـشَـت بـمَـعَـانِ	بـيـن أعـلـى الـيـرمـوك فـالـخـمّـانِ
فـالـقـريّـات مـن بـلاسَ فـدار	يّـا فـسَـكّـاءَ فـالـقـصـور الـدوانـي

---

(١) Conrad L.: Epidemic Diseases in Central Syria in the late Sixth Century. Some new insights from the verse of Hassan ibn Thabit. BMGS 1994, 18: 12 - 58.

فقفا جاسمٍ فأودية الصُفَّرِ	مغنى قنابلٍ وهجانِ
تلك دارُ العزيز بعد أنيس	وحلولٍ عظيمة الأركان
هبلت أمُّهُمْ وقد هَبِلَتْهُمْ	يوم حَلُّوا بحارثِ الجولان
قد دنا الفِصحُ فالولائدُ	ينظمن قُعوداً أكِلَّة المرجان
يجتنين الجادي في نُقَبِ الريط	عليها مجاسدُ الكَتّان
لا يُعلِّلن بالمغافر والصمغِ	ولا نقفِ حَنظَلِ الشَريَانِ
ذاك مغنى من آل جفنة في الدهر	وحقٌّ تعاقبُ الأزمانِ
قد أراني هناك حقُّ مكينٍ	عند ذي التاج مجلسي ومكاني

وهذه الأماكن هي مواطن الغساسنة، فبلاس وداريّا وسكّاء كلّها تقع جنوب دمشق وعلى مسافة قريبة منها. وأمّا الخمّان فهي في الحوران وكذلك القريّات (أو القريّا)... والمناطق أعلى اليرموك تقع في الجولان، ومعان في الأردن.

وهناك اختلاف طفيف في البيت الثالث حيث جاء في الديوان (طبعة دار الكتاب العربي): (مغنى قبائل وهجان)، بينما ذكرها كونراد (مغنى قنابل وهجان). وقد فسّرها شارح الديوان البرقوقي بأنها رؤساء القبائل وعرفاؤهم... وقوم هجان، ورجل هجان: أبيض كريم الحسب، والهجان من كل شيء الخالص، بينما شرحها كونراد بأنها الخيول البيضاء والنعَم (الإبل) النقيّة التي ترعى في أراضي جاسم وأودية الصُفَّر.

ويصف حسّان الولائد وهن ينظمن عقود المرجان احتفاء بقرب عيد الفصح (وهو عيد يزعم النصارى فيه أن المسيح عليه السلام قام فيه من قبره بعد صلبه ودفنه ثم ارتفع إلى السماء، ويسمى عيد قيامة المسيح). والجادي هو الزعفران. والنقب جمع نقبة وهي ثوب كالإزار. والريط ثياب لينة رقيقة بيضاء. والمجاسد جمع مِجسد (بالكسر) وهو الثوب. وهؤلاء الولائد مترفات يصطبغن بالزعفران كأن على ثيابهن الأزهار قد اجتنينها، ولسن ممن يجتنين صمغ المغافير وقشر الحنظل كما تفعل فتيات البادية.

كذلك كان مغني آل جفنة من بني غسّان، ولكن الدهر طرقهم... وهكذا الأيام دول والأزمان تتعاقب. وهو يتوجع لحالهم لأن له المكانة السابقة، فمجلسه عند الملك نفسه صاحب التاج والصولجان.

ويا ترى هل ما ذهب إليه كوبراد من أن الذي صرعهم هو الطاعون حق أم مجرد خيال وتوهم؟ ليس هناك ما يؤيد أو ينفي ما ذهب إليه كوبراد. وإذا كانت القصيدة الأولى واضحة كل الوضوح في الطاعون، حتى عنون لها جامع الديوان بقوله: «وقال في طاعون كان بالشام»، فالقصيدة الأخيرة غامضة كل الغموض في توضيح السبب الذي أدى إلى أن توحش الديار بمصاد والحصاد والقريات وبلاس وداريا وسكاء... وإن كان الطاعون أحد الاحتمالات إلاّ أنه ليس الاحتمال الوحيد.

طاعون عمواس:

يعتبر طاعون عمواس أول طاعون أصاب المسلمين، بل أصاب مجموعة كبيرة من خيار الصحابة بينهم أبا عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وزوجته واثنين من بنيه، وشرحبيل بن حَسَنة، والفضل بن العباس بن عبد المطلب (ابن عمّ النبيّ ﷺ)، وأبا مالك الأشعري، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو. وكان عدد من مات في طاعون عمواس من جند المسلمين خمسة وعشرين ألفاً... وقد وقع عام سبع عشرة، وقيل عام ثماني عشرة للهجرة في زمن عمر رضي الله عنه.

وعمواس تقع في فلسطين، قال الحافظ ابن كثير: «عمواس بليدة صغيرة بين القدس والرملة كان الطاعون أول ما نجم بها ثم انتشر في الشام منها، فنسب إليها».

وذكر ياقوت في «معجم البلدان» أن «عمواس» بلدة تقع على بعد ستة أميال من الرملة في الطريق إلى بيت المقدس، منها ابتدأ الطاعون سنة ١٨هـ وانتشر... وفي نفس العام حدثت المجاعة في المدينة، وهو عام الرمادة.

وذكر ابن حجر العسقلاني والسيوطي في كتابيهما عن الطاعون أن الحارث بن هشام أخا أبا جهل بن هشام المخزومي، خرج في سبعين من أهله إلى مرتفع الشام فلم يرجع منهم إلاّ أربعة، فقال المهاجر بن خالد بن الوليد المخزومي:

مـن يـسـكـنِ الـشـامَ يُـعـرّس بـهِ ... والـشـامُ إن لـم نـأبُـهَـا طـاربُ
أفـنـى بـهـم ربـضـةُ فـرسـانـهـمْ ... عشرون لم يُقصص لهم شاربُ

ومن بني أعمامهم مثلهم　　لمثل هذا يعجب العاجب
طعناً وطاعوناً مناياهم　　ذلك ما خط لنا الكاتب

وفي طاعون عمواس حصلت القصّة المشهورة من خروج عمر رضي الله عنه إلى أرض الشام ليتفقّد الجند، فلمّا وصل إلى سرغ بلغه نبأ الطاعون في الشام، فاستشار القوم فاختلفوا ثم جاء عبد الرحمٰن بن عوف وأنبأه بالحديث الذي سمعه من رسول الله ﷺ في الطاعون.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ (وهي قرية من طرق الشام ممّا يلي الحجاز) لقيه الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. قال ابن عباس: قال عمر: «ادعُ لي المهاجرين الأوّلين» فدعوتهم، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا، فقال بعضهم: «قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه»، وقال بعضهم: «معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء»، فقال عمر: «ارتفعوا عني».

ثم قال: «ادعُ لي الأنصار»، فدعوتهم له فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم فقال: «ارتفعوا عني».

ثمّ قال: «ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح» فدعوتهم، فلم يختلف عليه رجلان، فقالو: «نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء».

فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه (أي إني مسافر غداً فاستعدوا للسفر)، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله.

قال: فجاء عبد الرحمٰن بن عوف، وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا علماً. سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرضٍ

فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه». قال: فحمد الله عمر بن الخطاب، ثم انصرف» انتهى.

وقد قال الشاعر امرئ القيس الكندي - وهو غير الشاعر الجاهلي المعروف - في طاعون عمواس:

رُبَّ حرف مثل الهلال وبيضا خصان بالجزع من عمواسِ
قد لقوا الله غير باغ عليهم ثم أضحوا في غير أهل ابتياسِ
فصبرنا لهم كما علم الله وكنّا في الموت أهل تآسِ

الطواعين تتوالى في ديار الإسلام، ووفاة زياد بن أبيه بالطاعون:

ثم تتالت الطواعين حيث وقع طاعون عام ٤٩هـ بالكوفة، ومات فيه المغيرة بن شعبة، واستمرّ حتى عام ٥٣هـ عندما مات فيه زياد بن أبيه، وكان قد طلب من معاوية أن يوليه الحجاز بالإضافة إلى العراقين، فخاف أهل الحجاز وألحفوا في الدعاء وتقدمهم عبد الله بن عمر، فما لبث إلاّ يسيراً حتى طعن في يده فضاق بها ذرعاً فأراد أن يقطع يده، فقال له شُريح: «إني لا أرى ذلك، فإنه إن لم يكن في الأجل فسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك خوفاً من لقائه، وإن كان لك أجل بقيت في الناس أجذم، فيعيّر ولدك بذلك»، فانتهى زياد ومات في الطاعون.

ثم وقع بالبصرة «**الطاعون الجارف**»، لأنه جرف الناس كما يجرفهم السيل، وذلك سنة ٦٤هـ، واستمر حتى سنة ثمانين. ومات فيه لأنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ثلاثة وثمانون ولداً (من أبنائه وأحفاده)، ولأبي بكرة رضي الله عنه أربعون ولداً. قال ابن كثير: كان ثلاثة أيام: مات في أول يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفاً، وفي اليوم الثاني منه واحد وسبعون ألفاً، وفي اليوم الثالث منه ثلاثة وسبعون ألفاً. وأصبح الناس في اليوم الرابع موتى إلاّ القليل من آحاد الناس، حتى ذُكِرَ أن أم الأمير بها ماتت فلم يوجد لها من يحملها».

قال الحافظ ابن حجر: «وكان بمصر سنة ست وستين طاعوناً ثم في سنة وفاة عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين»، ومات بالطاعون... وكذلك كان الطاعون بالشام سنة تسع وسبعين.

ثم وقع بالبصرة طاعون الفتيات سنة ٨٧هـ، وسُمّي بذلك لكثرة من مات من الفتيات والشابات العذارى.

ووقع بالشام طاعون مات فيه وليّ العهد أيوب بن الخليفة سليمان بن عبد الملك، وذلك سنة ٩٨هـ.

ارتفاع الطاعون عن الشام بدخول العباسيين ونهاية الحكم الأموي:

واستمرّ الطاعون بالشام يتكرّر طوال العهد الأموي، حتى كان خلفاء بني أميّة إذا جاء الطاعون يخرجون إلى الصحراء. ومن ثمّ اتخذ هشام بن عبد الملك الرّصافة منزلاً، ثم خفّ الطاعون في الدولة العباسيّة. ويقال أن المنصور العباسي قال لأهل الشام: «احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت». فقال أعرابي من أهل الشام: «إن الله لم يجمع علينا حَشَفا - وهو التمر الرديء - وسوءَ كيل، ولا ولايتكم والطاعون»، وقيل أن أحد أمراء بني العباس خطب أهل الشام قائلاً: «احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ ولّينا». فقام بعض من له جُرأة فقال: «الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون»، فقتله الأمير. (أخرجه ابن عساكر في تاريخه).

وقد جمع الإمام ابن حجر في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون»، وتبعه السيوطي في كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، الطواعين التي حدثت في الإسلام... وذكرها السيوطي حتى طاعون ٨٩٨هـ. وهي في صلب الكتاب فلا حاجة إلى الإفاضة بذكرها. والخلاصة أن موجة الوباء العالمي الأول للطاعون استمرّ منذ عام ٥٤١ ميلادية (قبل ظهور الإسلام بثمانين عاماً) إلى عام ٧٤٩م (سنة ١٣١هـ) قبيل سقوط الدولة الأموية.

ثم ظهر الوباء العالمي الثاني في القرن الرابع عشر الميلادي.

الوباء العالمي الثاني في القرن الرابع عشر الميلادي (١٣٤٧م/٧٤٧هـ):

ظهر الطاعون العالمي الثاني في أوربا في القرن الرابع عشر الميلادي، وكان أوّل ظهوره في فرنسا في تولوز عام ١٣٤٧م (٧٤٧هـ)، والتي فقدت نصف سكانها، كما فقدت مقاطعة نورماندي ثلث سكانها. وساح الطاعون في أوربا يفتك بسكانها حتى قتل أكثر من ٢٥ مليوناً... وكان الناس يحاربون الطاعون بالذهاب إلى الكنائس والتوبة وباضطهاد اليهود وقتلهم باعتبارهم سبب البلاء وسبب غضب الله تعالىٰ. وكان المصابون بالطاعون يُعزلون، وإذا ماتوا تمّ حرق جثثهم وثيابهم وجميع ما كانوا يجلسون أو ينامون عليه.

وتعتبر البندقية أوّل مدينة أوربية طبقت نظام العزل (الكارنتين) بقوّة. وانتقل الطاعون من أوربا إلى الأناضول والدولة البيزنطية، ثم انتقل إلى الشام. وقد سمّي الطاعون العام حيث ظهر في معظم أرجاء المعمورة، ووصل بلاد المسلمين سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م. قال الإمام السيوطي:

«ثم كان الطاعون العام في سنة تسع وأربعين وسبعمائة، ولم يعهد نظيره فإنه طبّق الأرض شرقاً وغرباً، ودخل حتى مكّة المشرّفة، ووقع في الحيوانات أيضاً، وعمل فيه ابن الوردي مقامة مشهورة» (نقلناها بنصها مع الشرح في آخر الكتاب).

قال ابن أبي حجلة: «مات فيه على وجه التقريب نصف العالم أو أكثر (وتقرّه على ذلك المراجع الغربية مثل دائرة المعارف البريطانية، ومراجع كتب الطب الحديث)، وبلغ الموت في القاهرة كل يوم زيادة على عشرين ألفاً».

«ثم وقع في سنة أربع وستين وسبعمائة بالقاهرة ودمشق»، واستمرّ في الظهور والاختفاء طوال القرن الثامن والتاسع الهجريين.

الوباء العالمي الثالث:

ظهر في القرن الخامس عشر الميلادي واجتاح معظم أوربا... ثم اختفى. ثم ظهر طاعون لندن الشهير عام ١٦٦٤ ـ ١٦٦٥م/ ١٠٧٤هـ ـ ١٠٧٥هـ، وقتل من سكان لندن أكثر من سبعين ألفاً، وكان سكّانها يقدّرون آنذاك بأربعمائة وستين ألفاً.

الوباء الرابع والأخير في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين:

ظهر في الصين في مقاطعة يونان سنة ١٨٦٠، وظلّ محصوراً بها ثم وصل هونج كونج عام ١٨٩٤، ومنها انتشر إلى بقية دول آسيا. وقتل من سكان الصين أكثر من مائة ألف. وكانت وطأته في الهند شديدة، ثم انتقل منها إلى الشرق الأوسط وأفريقيا وأوربا... وانتقل إلى أمريكا الجنوبية.

ويقول مرجع سيسل الطبي (الطبعة ١٧ لعام ١٩٨٥ ص١٦٠٠) أنه قتل في الهند عشرة ملايين شخص، بينما تذكر المصادر الأخرى (دائرة المعارف البريطانية ومرجع مانسون في أمراض المناطق الحارة) أن مجمل عدد الضحايا في العالم بلغوا عشرة ملايين شخص.

وقد وصل هذا الطاعون إلى شمال أفريقيا وأصاب الجزائر فيما أصاب، وقد وضع فيه الأديب الفرنسي المشهور ألبير كامو ـ الذي ولد وعاش فترة في الجزائر ـ قصّته العالمية الطاعون. . . وفيها وصف للطاعون الغددي الذي انتشر في الجزائر آنذاك، وخاصة في وهران كما توضح دور الطبيب برنارد ريو في مكافحة هذا الوباء دون كلل.

وقد استمر هذا الطاعون حتى عام ١٩١٤ عندما قامت الحرب العالمية الأولى، وقامت الحرب بدور الطاعون، فكان عدد ضحاياها ١٥ مليوناً.

وسنذكر في الفصل الثاني قصة اكتشاف ميكروب الطاعون ودور البراغيث في نشره.

وآخر طاعون حدث بصورة وباء كان بالهند عام ١٩٩٤، وقد أثار فزعاً ورعباً، ولكنه كان محدوداً فالإصابات بلغت المئات وربما جاوزت الألف، بينما كانت الوفيات المعلنة لم تتجاوز العشرات. . .[١].

ويرجع السبب إلى سرعة اتّخاذ الإجراءات الوقائية وإعطاء الأشخاص في منطقة الوباء عقار التتراسيكلين، كما تمّ القضاء على الفئران والبراغيث باستخدام مكثّف للمبيدات الحشرية، وللمواد القاتلة للفئرات مثل الورافرين الذي يوضع مع طعام الفئران، بالإضافة إلى المصائد المتعدّدة الأنواع.

ولا يبدو أن للتطعيم بالفاكسين دور مهم في إيقاف مدّ الطاعون في

---

(١) ذكرت مجلة اللانست الطبية في مقالها الافتتاحي في ١٥ أكتوبر ١٩٩٤ (العدد ٣٤٤ ص١٠٣٣ ـ ١٠٣٥): أن عدد الوفيات التي سجلت رسمياً في الهند بسبب وباء الطاعون كانت ستين حالة فقط منها ٢٠ حالة في سورت بسبب الطاعون الرئوي، واعتبرت المجلة الطبية أن هذا العدد لا يمثل إلاّ جزءاً من الحقيقة. وفي عددها الصادر في ٢٨ يناير ١٩٩٥ (العدد ٣٤٥ ص٢٥٨) ذكرت أن الحالات المشتبهة كانت حتى نهاية عام ١٩٩٤ في الهند ٥٥٥٩ حالة، وذكرت مجلة حوليات الطب الباطني Annals J Int Med. في عددها الصادر في ١٥ يناير ١٩٩٥ (العدد ١٢٢(٢) ص١٥١ ـ ١٥٣) أن الحالات المشتبهة يكونها طاعوناً كانت ٦٣٠٠ حالة ولم يثبت منها (بالتحليل المصلي) إلاّ ٦٩٣ حالة فقط. وأن مجمل الوفيات في سورت بسبب الطاعون كانت خمسين حالة. وقد ذكرت مجلة Nature في ٢٣ فبراير ١٩٩٥ (العدد ٣٧٣ ص٦٥٠) ثبوت حالات الطاعون والتعرّف على ميكروب الطاعون بالزراعة وبفحوصات الدنا DNA.

الهند، وكانت العقاقير المضادّة للطاعون وخاصة التتراسيكلين (وهو عقار رخيص جداً ومتوفر بكثرة)، قد لعبت دوراً كبيراً في مداواة المرضى المصابين بالطاعون، وفي الوقاية منه.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن عهد الطاعون كوباء عالمي يحصد الملايين قد انتهى، وإن كانت البشرية تعاني من طواعين جديدة ليس أقلها الأيدز الذي أصاب حتى الآن أكثر من عشرين مليوناً... وبلغ عدد قتلاه عدّة ملايين. كما أن الملاريا تقتل كل عام أكثر من مليون شخص... وعاد السل (الدرن) ليتبوّأ أعلى قائمة الأمراض المعدية في مختلف بقاع العالم، وخاصة في البلاد النامية وما يسمّى العالم الثالث.

ولا يبدو أن الطاعون سيشكل خطراً ماحقاً على البشرية، إلاّ إذا استخدم في الحروب الجرثومية، وهناك ما هو أشدّ فتكاً منه في جعبة الدول المختلفة سواء من المواد الكيماوية أو الجرثومية أو النووية... أو حتى الأسلحة التقليدية.

سبب الطاعون بين الطب وحديث المصطفى ﷺ

سبب الطاعون في الطب الحديث:

لم يعرف الأطباء سبب الطاعون إلاّ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عندما حصل الوباء الرابع والأخير للطاعون في العالم. وظهر الطاعون في مقاطعة يونان في الصين عام ١٨٦٠، وظلّ محصوراً بها حتى عام (١٨٩٤م)، عندما وصل هونج كونج وبقية الصين والهند، ومن ثمَّ انتقل إلى كافّة أرجاء العالم. وقتل حتى بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) أكثر من عشرة ملايين شخص... وكان أكثر الضحايا في الهند.

وفي عام ١٨٩٤ استطاع العالم الياباني شيبا سابور كيتاسو أن يعرف سبب الطاعون وأنه نوع من البكتريا العصوية العنقودية Cocco bacilli التي تصطبغ سلباً بصبغة جرام Gram Negative.

وتوجد البكتريا في الغدد اللمفاوية وخاصة في المنطقة الأربية (المراق) والإبط وفي العنق (خلف الأذن). كما توجد كذلك في أمعاء المصاب ورئتيه وكبده وطحاله وكُلاه وفي دمه. وفي الطاعون الرئوي توجد بكميات كبيرة في بصاقه. أمّا الطاعون المنتن Septicaemic Plague، فتكثر الميكروبات في الدم وفي الأحشاء الداخلية.

وقد أطلق العلماء اسم يرسين الطبيب السويدي الذي اكتشف الميكروب، وذلك بعد أشهر قليلة من اكتشاف العالم الياباني كيتاسو، وكان ينبغي أن ينسب الفضل لصاحبه وهو العالم الياباني كيتاسو، ولكن الغرب كعادته من الادّعاء ونسبة كل فضل لأبنائه، تناسى صاحب الفضل في اكتشاف الطاعون ونسبه لأحد أبنائه.

ثم أطلق اسم باستوريلا بِستِس Pasturella Pestis (البستورية الوبائية أو

الطاعونية)، وبقي هذا الاسم حتى عام ١٩٧٢ عندما استبدل وصار يرسينيا بستِس Yersinia Pestis (وبائية أو طاعون يرسن).

صفة البكتريا المسبّبة للطاعون:

إنها بكتريا عصوية عنقودية تصطبغ سلباً بصبغة جرام فتبدو حمراء قانية تحت المجهر (١,٥ × ٠,٥ ميكرومتر)[١]، كما أنها تقبل صبغات الأنيلين Aniline dyes (النيلة)، وبالذات صبغة رومانوسكي (Romanosky).

وللبكتريا غلاف يظهر بصورة خاصة في الأنواع الشديدة السمّية Virulent) (Strains. وتبدو البكتريا وهي مصطبغة وكأنها ثنائية القطبية حيث تصطبغ الأطراف أكثر من الوسط. ولا تتحرك البكتريا non motile، وهي إيجابية للاندول، وعند تفاعلها بحامض السلفانيليك تعطي النيترايت.

ويمكن زرعها وخاصة في ستنبتات الجلسرين أجار Glycerine-agar، وتبدو المستعمرات دائرية ذات زرقة خفيفة. أما إذا أضيف إلى المزرعة مادة الصفراء وأملاحها، فإن المستعمرات تبدو حمراء قانية. وتنمو بكثافة وبسرعة في درجة حرارة ٢٨ مئوية. ولهذا فإنه ميكروب الطاعون يظهر بصورة وبائية في الخريف. أمّا الصيف الشديد الحرارة فيقتل الميكروب. وفي البلاد الباردة يظهر في الصيف حيث إن درجات الحرارة تكون عادة معتدلة في الصيف، ولا تزيد عن الثلاثين إلاّ نادراً.

ظهور الطواعين في الخريف:

ولهذا كانت معظم الطواعين في العالم الإسلامي تظهر في الخريف، وهو أكثر أوقات حدوثها. بينما نجدها تحدث في الصيف في أوربا والبلاد الباردة. والغريب أن ابن القيم تنبّه إلى ذلك، فقال في سبب الطاعون ووقته:

«والمقصود أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعِلّة الفاعلة للطاعون، وأن فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء، وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة: لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه، كالعفونة

---

(١) الميكرومتر: واحد على مليون من المتر.

والنتن والسمّية، في أي وقت كان من أوقات السنة، وإن أكثر حدوثه في أواخر الصيف، وفي الخريف غالباً،- لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة في آخر الصيف، وعدم تحلّلها في آخره، وفي الخريف لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلّل في زمن الصيف، فتنحصر فتسخن وتعفن، فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيما إذا صادفت البدن مستعداً قابلاً، رهِلاً، قليل الحركة، كثير المواد، فهذا لا يكاد يفلت من العطب»[1].

ويذكر المرجع الطبي «مانسون لأمراض المناطق الحارة»[2] أن هناك ثلاث زمر من فصيلة (يرسينيا بستس) المسبّبة للطاعون، وهي: يرسينيا بستس الشرقيّة، والقديمة، والتي في العصور الوسطى. ويفرق بينها بمختلف الفحوصات والصبغات والمزارع.

التطعيم وأنواع الفاكسين:

وتحدث المناعة ضد الطاعون بسبب وجود المستضدات Antigens، وخاصة الموجودة على غلاف البكتريا. ويصنع الجسم مضادات الأجسام التي تضاد هذه المستضدات Antigens، وخاصية مقاومة البلع antiphagocytic التي تقوم بها خلايا المصاب البيضاء الموجودة في الدم. وتوجد عدّة فاكسينات للطاعون مستغلة هذه الخصائص، فهناك: الفاكسين من البكتريا الميّتة المقتولة بالفورمالديهاد Formaldhyde في درجة حرارة ٣٧ مئوية، ويحتوي على ١٥٠٠ مليون بكتريا مقتولة في نصف مليلتر، ويعرف باسم فاكسين هافكين Haffkine Vaccine ويعطى عن طريق الحقن. والمناعة تبقى لمدة ستة أشهر فقط.

والنوع الثاني: هو البكتريا الحيّة المضعّفة، ويعطي نتائج أفضل من سابقه، وقد تمّت تجربته في جاوه بأندونيسيا وفي مدغشقر، ويُعطى عن طريق الحقن. والمناعة تبقة لمدة ستة أشهر، ولذا ينبغي أن تكرّر الجرعة لمن يعيشون في مناطق موبوءة.

---

(١) ابن القيم: الطب النبوي تحقيق د.عبد المعطي أمين قلعجي، دار التراث، القاهرة ١٩٧٨، ص١١٠.

(٢) Manson's Tropical Diseases Baillierie - Tindal, London, 18th ed., 1982: 331-3.

وهناك طريقة ثالثة وهي جعل الفاكسين على هيئة أقراص استحلاب (تمص) وتوضع في الفم، ولكن عيبها أنها تسبّب التهاب اللوزتين بصورة حادّة لدى ٤٥ بالمئة من المستعملين. وعموماً فإن التطعيمات كلها ليست على درجة كافية من الكفاءة بالنسبة لمرض الطاعون، ولذا لا تقي وقاية تامّة. وتعطى أساساً للممرضين والأطبّاء، وأصحاب المختبرات الذين يعملون في مناطق الطاعون. وأمّا الوقاية الأفضل فباستخدام التتراسيكلين أيام الوباء، وبالقضاء على الفئران والبراغيث.

كيفية انتقال الطاعون:

في عام ١٨٩٧م وضع العالم الياباني مسانوري أوجاتا نظريّته بأن الطاعون ينتقل بواسطة البراغيث، وكالمعتاد سرق عالم فرنسي يدعى بول لويس سيمون هذه الفكرة وادّعاها لنفسه... وقامت الدوائر العلمية في الغرب كعادتها في نسبة كل اكتشاف لأبنائها، فادّعت زوراً وبهتاناً أن مكتشف هذه النظرية هو العالم الفرنسي، وتجاهلت تماماً العالم الياباني صاحب الفضل... وهي شنشنة نعرفها من أخزم!!

في عام ١٩٠٨ تأكّد بما لا يقبل الشك أن براغيث الفئران هي الناقلة لمرض الطاعون، بواسطة التجارب التالية:

١ - وضعت فئران مصابة بالطاعون (بعد قتل البراغيث)، إلى جانب فئران سليمة فلم تعدها رغم الملامسة، بل وحتى الرضاعة.

٢ - وضعت فئران سليمة وأضيفت إليها براغيث تحمل الميكروب، فأصيب جميعها بالطاعون.

٣ - وضعت فئران سليمة على رتفاع أكثر من أربع بوصات فوق فئران مصابة بالطاعون، وبما أن البراغيث لا تستطيع القفز أكثر من أربع بوصات فإن الفئران السليمة لم تصب بالطاعون. ولما وُضعت في مستوى أقلّ من أربع بوصات أُصيبت جميعها بالطاعون.

ينتقل الطاعون عادة بين الفئران ثم بعد ذلك ينتقل إلى الإنسان، فإذا أصيب الإنسان وأصيب بعض الأفراد بالطاعون الرئوي تَمَّ انتقال الطاعون من

الإنسان إلى الإنسان بواسطة استنشاق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون، وذلك أن بصاق المصاب بالطاعون الرئوي يحتوي على بلايين البكتريا المسبّبة للطاعون. كذلك يمكن أن ينتقل الطاعون لمن يتعاملون مع القوارض سواء بالصيد أو في المختبرات نتيجة إفرازاتها الملوّثة، وبالتالي يصابون بالطاعون الغددي أو الرئوي. كما أن احتمال الإصابة بالطاعون واردة عن طريق حرب الجراثيم، إذ تقوم كثير من الدول بزراعة أشدّ أنواع بكتريا الطاعون فتكاً، ويمكن ببساطة أن ترميها بصورة قنابل أو غيرها فتفتك بالأعداء وتنتشر بينهم الوباء.

دور البراغيث في نقل الطاعون:

تعتبر براغيث الفئران الناقل الأساسي لميكروب الطاعون، وبالذات نوع Xenopyslla Cheapis، (وهي البراغيث التي تعيش على الفئران في المناطق الحارّة). ويشترك معها براغيث الكلاب (Ctenocephalus Canis)، وبراغيث القطط، وهي لا تصاب عادة إلاّ بعد إصابة براغيث الفئران. ويمكن لبراغيث الكلاب والقطط أن تنقل المرض إلى هذه الحيوانات وإلى الإنسان. أما برغوث الإنسان (Pulex irritans)، فقد لعب دوراً في نشر الطاعون في القرون الوسطى، أما الآن فلم تعد له تلك الأهمية، وإن كان لا يزال يشكل خطراً في بعض مناطق منشوريا.

تتغذى البراغيث على الدم، فينتقل الميكروب إلى معدة البرغوث من الفأر المصاب، وتنمو البكتريا في معدته حتى تسدّها. وتخرج الميكروبات مع براز البرغوث، كما أن البرغوث يزداد نهمه وجوعه، فيحاول أن يجد وجبته بوخز الفأر وتنساب البكتريا من معدة البرغوث ومريئه وإفرازات فمه، فتصيب الفأر الجديد. . . وهكذا.

وتنتقل العدوى من فأر إلى آخر بسبب هذه الوخزات كما تنتقل أيضاً بواسطة براز البرغوث المليء بالبكتريا. وعندما يهرش ويحكّ الفأر جِلدَهُ تنتقل إلى الأوعية اللمفاوية.

ويكون من علامة الوباء كثرة وفيات الفئران. وتنتقل العدوى أصلاً من الجرذان أو القوارض البريّة Sylvatic rats and rodents إلى الفئران المنزلية

وتلك الموجودة في المخازن والمراكب... ثم تنتقل من الفئران المنزلية إلى الإنسان.

تعتبر دورة حياة البراغيث قصيرة حيث تتمّ تناسلها، ويتكاثر البيض ويتحول إلى يرقات ثم حشرات خلال أسبوعين أو ثلاثة. وفي الأماكن الرطبة والدافئة تتم الدورة خلال عشرة أيام فقط. وبما أن البراغيث لا تتحمّل الحرارة العالية ولا البرودة الشديدة، لذا نجد ذروة تكاثرها في الخريف في البلاد الحارّة (درجة الحرارة ما بين ١٠ و٣٠ مئوية)، بينما في البلاد الباردة تكون ذروة تكاثرها في الصيف. وهذا أيضاً يفسر حدوث الطواعين في الخريف في البلاد الحارة، وفي الصيف في البلادة الباردة.

طاعون الآجام (الغابات) والبراري Sylvatic plague

يوجد الطاعون في الطبيعة في الآجام والبراري في كثير من القوارض. وينتقل بواسطة براغيث هذه القوارض من مجموعة إلى أخرى من القوارض، دون أن يسبب وباءً ظاهراً. وقد تمكّن العلماء من إثبات أن ميكروب الطاعون يمكن أن يعيش في أكثر من مائتي نوع من أنواع القوارض الموجودة في الآجام والبراري[١]، ومنها مارموت سيبيريا ومنشوريا، والجرابيع الصحراوية، والسنجاب، وأنواع مختلفة وشتّى من القوارض. بل يوجد أيضاً في بعض الخفافيش، والأرانب البريّة، بالإضافة إلى أنواع الجرذان والفئران البرية.

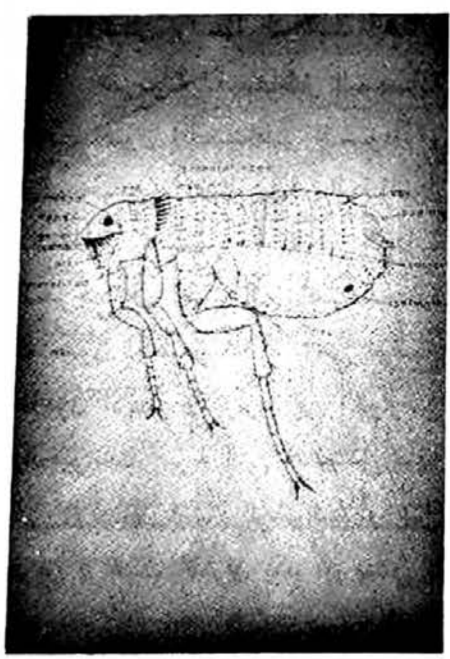
ويصيب الطاعون جرذ المجاري Sewer rat، وهو جرذ كبير بنّي اللون واسمه العلمي Rattus norvegicus بعد أن تنتقل إليه العدوى من أحد القوارض. وهذا الجرذ كثير الانتقال ويستطيع السير إلى مسافات بعيدة. وتنتقل العدوى بواسطة البراغيث من هذا الجرذ إلى الفأر المنزلي Rattus rattus، وهو أصغر حجماً ولونه يضرب إلى السواد.

وعند ظهور الطاعون تموت الفئران بكثرة وتظهر وتفرّ من مكان لآخر، وهذا أول علامات ظهور الوباء، وقد تنبّه القدماء إلى ذلك ووصفوا هروب الفئران والحشرات وغيرها من الحيوانات قبيل ظهور الوباء، (انظر الفقرات التالية من كلام ابن النفيس).

---

(١) المصدر السابق (مرجع مانسون للأمراض المتوطنة والمناطق الحارة)، ص٣٣٣.

وهذه صورة توضح البكتريا المسبّبة للطاعون، وهي بكتريا عصوية عنقودية تبدو حمراء بصبغة جرام وتدعى «يرسينيا بستس» Yersinia Pestis وبائية يرسن، نسبة إلى العالم السويدي الذي اكتشفها، وإن كان العالم الياباني شيبا سابور كيتاسو قد سبقه إلى اكتشافها (١٨٩٤).



صورة للبرغوث الذي ينقل العدوى والميكروبات، هناك أكثر من ٢٠٠٠ نوع من البراغيث، ومنها برغوث القوارض وبالذات برغوث الفأر والجرذ Xenopsylla. يعيش البرغوث على وخز وقرص العائل ويتغذّى على دمه، فإذا كان العائل مصاباً بميكروبات الطاعون انتقلت مع الدم إلى معدة البرغوث. وهناك حويصلة قبيل مدخل المعدة Preventriculus ينمو فيها المكيروب ويتكاثر حتى يسدّها. فإذا عاد البرغوث للوخز لأخذ وجبته الدموية انسابت المكيروبات إلى موضع الوخزة، ومنها إلى الغدد اللمفاوية مسبّبة الطاعون الدبلي (الغددي).



الجرذ الكبير الذي يعيش عادة في المجاري ويستطيع السفر إلى مسافات بعيدة، ويتميّز بقوّته وسرعته Rattus Norvegicus (الجرذ النرويجي)، ويلعب دوراً مهماً جداً في نقل الطاعون. وينتقل الميكروب بواسطة برغوث الجرذ إلى جرذان أخرى، ومنها إلى الفأر المنزلي.

الفأر المنزلي وهو أصغر حجماً وأطول ذيلاً من الجرذ النرويجي، ويعيش في المنازل ومستودعات الحبوب... إلخ. ينتقل الطاعون إلى الفئران المنزلية من الجرذان بواسطة البراغيث، فإذا انتشر الطاعون بين الفئران رأيتها تخرج مذعورة من جحورها ويكثر فيها الموت. ثم ينتقل الميكروب إلى الإنسان بواسطة البراغيث أيضاً.



خريطة للمناطق المصابة بالطاعون (المناطق السوداء)، والمحتمل إصابتها بالطاعون (المظلّلة) حسبما جاءت في الكتاب المرجع في طب المناطق الحارّة لمانسون (الطبعة ١٨)، وهي توضح طاعون الآجام والبراري في القوارض والحيوانات البرّية التي قد ينتقل منها إلى الإنسان أثناء الصيد، أو عن طريق براغيث الفئران بعد أن ينتقل إليها من براغيث القوارض.

ما ورد عن سبب الطاعون في التراث الطبي الإسلامي:

قال ابن النفيس في «الموجز في الطب»: «الوباء» فساد يعرض لجوهر الهواء لأسباب سماوية أو أرضية كالماء الآسن والجيف الكثيرة كما في الملاحم (المعارك الطاحنة الكبيرة)، إذا لم تُدفن القتلى، ولم تُحرق، والتربة الكثيرة النَّزّ (أي الرطبة)، فإذا كَثُرتْ الشُّهب والرُّجوم في آخر الصيف وفي الخريف أنذر بالوباء. وكذلك إذا كثرت الجَنوب والصّبا في الكانونين[1]. وإذا

(١) الجنوب: الريح تهب من جهة الجنوب. والصّبا: ريح من الشرق إذا استوى اللّيل والنهار، أي في الاعتدال الربيعي والخريفي. والكانونين: أي كانون الأول والثاني، وهما ديسمبر ويناير أشهر البرد والشتاء.

كثُرت علامات المطر، ولم تمطر، وتكرّر ذلك فمزاج الشتاء فاسد، وإذا كان الربيع قليل المطر بارداً، ثم رأيت الجنوب تكثر وتكدّر الهواء أياماً، ثم صفى أسبوعاً ثم حدث وَقْدَة[1] وغُمّة وكدورة، وبرد ليل فقد جاء الوباء... وإذا كان الصيف قليل الحرارة وبدأ تغيّر الأشجار، وجاءت في الخريف نيازك وشهب، فتوقّع الوباء، هذا إذا كان لأسباب سماوية.

وأما الأرضية فأن ترى الحشرات والضفادع قد كثرت، وهربت الحيوانات الذّكيّة كاللقلق، **وهربت الفأرة من جُحرها سِدَرَةً[2] ملقاة، فالوباء قريب»[3].**

وقال ابن سينا في القانون تحت عنوان فصل في الطواعين:

«كان أقدم القدماء يسمّون ما ترجمته بالعربية الطاعون ورم يكون في الأعضاء الغددية اللحم والخالية. إمّا الحسّاسة مثل اللحم الغددي الذي في البيض (المبايض) والثدي وأصل اللسان، وإما التي لا حسَّ لها مثل اللحم الغددي الذي في الإبط والأربية ونحوها. ثم قيل من بعد ذلك لما كان مع ذلك ورماً حارّاً. ثم قيل لما كان مع ذلك ورماً حارّاً قتّالاً. **ثم قيل لكل ورم قتّال لاستحالة مادته إلى جوهر سُمّي يفسد العضو ويغير لون ما يليه. وربما رشح دماً وصديداً ونحوه. ويؤدي كيفية رديئة إلى القلب من طريق الشرايين، فيحدث القيء والخفقان والغشي. وإذا اشتدّت أعراضه قتل.** وهذا الأخير يشبه أن تكون الأوائل كانوا يسمّونه قوماطاً. ومن الواجب أن يكون **مثل هذا الورم القتال يعرض في أكثر الأمر في الأعضاء الضعيفة مثل الآباط والأربية وخلف الأذن.** ويكون **أردؤها ما يعرض في الآباط وخلف الأذن، لقربها من الأعضاء التي هي أشد رياسة (أي قربها من القلب والدماغ). وأسلم الطواعين ما هو أحمر ثم الأصفر، والذي إلى السواد لا يفلت منه أحد. والطواعين تكثر في الوباء وفي البلاد الوبئية»[4].**

---

(١) الوقد: النار واتقادها. والمقصود شدّة حرارة النهار.

(٢) سِدَرَة: أي مسدورة أصابها السدر والخَدَر وفقدان الإدراك وأصابها مثل الغشي أو شدّة السُّكر.

(٣) ابن النفيس: الموجز في الطب، تحقيق العزباوي، إصدار المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، وزارة الأوقاف، مصر ١٩٨٦، ص٣٠٤.

(٤) ابن سينا: القانون، تحقيق ادوار القش، مؤسسة عز الدين، المجلد الثالث (ج٤/ ١٩٢٢).

ابن القيم يصف سبب الطاعون في الطب النبوي:

وهذا وصف من ابن سينا للطاعون وأنواعه وسببه... وكلّها غير دقيقة بل ولا صحيحة... بل إن ابن القيّم الفقيه المحدث استطاع أن يعرض كلام الأطباء بصورة أفضل من ابن سينا وابن النفيس، ثم ردّ على هؤلاء الأطبّاء. **وإليك ما قاله في الطب النبوي**[1].

«قال الأطباء: إذا وقع الخرّاج في اللحوم الرخوة والمغابن وخلف الأذن والأربية، وكان من جنس فاسد يسمّى طاعوناً. وسببه دم رديء مائل إلى العفونة والفساد، مستحيل إلى جوهر سُمّي يفسد العضو، ويغيّر ما يليه، وربما رشح دماً وصديداً ويؤدي إلى القلب كيفية رديئة، فيحدث القيء والخفقان والغشي».

«وهذا الاسم ـ أي الطاعون ـ، وإن كان يعمُّ كل ورم يؤدي إلى القلب كيفية رديئة حتى يصير لذلك قتّالاً، فإنه يختصّ به الحادث في اللحم الغددي، لأنه لرداءته لا يقبله من الأعضاء إلاّ ما كان أضعف الطبع، وأردؤه: ما حدث في الإبط وخلف الأذن لقربهما من الأعضاء التي هي أرأس. وأسلمه الأحمر ثم الأصفر، والذي إلى السواد فلا يفلت منه أحد».

ولما كان الطاعون يكثر في الوباء والبلاد الوبئية عُبِّرَ عنه بالوباء، كما قال الخليل: الوباء: الطاعون. وقيل: هو كل مرض يعمّ.

وأنت ترى أن ابن القيم عرض آراء الأطباء في الطاعون بصورة أفضل من عرض ابن سينا وعرض ابن النفيس، وبعبارة أسلس وأوضح.

ثم أوضح ابن القيم أن هناك فرقاً بين الطاعون والوباء وهو أمر لم ينتبه له ابن سينا والأطباء عامّة، قال: **«والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً مطلقاً، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً. وكذلك الأمراض العامّة أعمّ من الطاعون، فإنه واحد منها»**، ثم ذكر ما يقول الأطباء

(١) ابن القيّم: الطب النبوي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار التراث، القاهرة ١٩٧٨، ص١٠٧ ـ ١٠٩.

من أن الطواعين هي خراجات، وقروح وأورام رديئة حادثة في المواضع الرخوة، وردّ عليهم بقوله: **«هذه القروح والأورام والخراجات هي آثار الطاعون، وليست نفسه. ولكن الأطباء لمّا لم تدرك منه إلاّ الأثر الظاهر جعلوه نفس الطاعون»**.

«والطاعون يعبّر به عن ثلاثة أمور: (أحدها): **هذا الأثر الظاهر، وهو الذي ذكره الأطباء**. و (الثاني): **الموت الحادث عنه**، وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله: «الطاعون شهادة لكل مسلم». و (الثالث): **السبب الفاعل لهذا الداء»**.

وقد ورد في الحديث الصحيح «أنه بقية رجز أرسل على بني إسرائيل»، وورد فيه «أنه من وخز الجنّ»، وجاء «أنه دعوة نبي». وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها، كما ليس عندهم ما يدلّ عليها.

«والرسل تخبر بالأمور الغائبة، وهذه الآثار التي أدركوها من أمر الطاعون، ليس معهم ما ينفي أن يكون بتوسط الأرواح، فإن الأرواح في الطبيعة وأمراضها وهلاكها أمر لا ينكره إلاّ من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها...»

«والمقصود أن فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعِلّة الفاعلة للطاعون، وأنّ فساد جوهر الهواء الموجب لحدوث الوباء وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة، لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه كالعفونة والنتن والسُّمِّية، في أي وقت كان في السنة، وإن كان أكثر حدوثه في أواخر الصيف، وفي الخريف غالباً، لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف، وعدم تحلّلها في آخره. وفي الخريف لبرد الجو وردغة الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلّل في زمن الصيف، فتنحصر فتسخن وتعفن، فتحدث الأمراض العفنة، ولا سيّما إذا صادفت البدن مستعدّاً قابلاً، رهلاً، قليل الحركة، كثير المواد، فهذا لا يكاد يفلت من العطب».

وقد تنبّه الفقهاء والمحدِّثون إلى الفرق بين الطاعون والوباء، وأن كل

طاعون وباء، وليس كل وباءٍ طاعوناً. قال ذلك القاضي عياض، والإمام النووي، وابن القيم، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم كثير. وقد سبق أن نقلنا بعض ما قالوه فلا داعي لإعادته.

أحاديث وخز الجن وكلام ابن حجر فيها:

وذكر ابن حجر العسقلاني في كتابه «**بذل الماعون في فضل الطاعون**»، ومثله السيوطي في «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، الأحاديث الواردة في سبب الطاعون وأنها من وخز الجن، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «فناء أمتي بالطعن والطاعون»، فقيل: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «وخز أعدائكم من الجنّ وفي كلٍّ شهادة». الحديث ضعيف إذ رواه زياد عن علاقة عن رجل - ولم يسمِّ هذا الرجل فهو مجهول -، عن أبي موسى الأشعري. وفي رواية أخرى لأحمد عن زياد بن علاقة قال: (حدثني رجل من قومي)، فالجهالة لا تزال باقية... وفي كل الروايات التي ذكرها الإمام ابن حجر بقيت جهالة هذا الرجل الذي روى عنه زياد بن علاقة.

أما رواية الطبراني في الأوسط، فقد ذكر اسم الرجل حيث قال: (عن زياد بن علاقة عن يزيد بن الحارث عن أبي موسى الأشعري)، فرفعت الجهالة والإبهام. قال ابن حجر العسقلاني: (فالحديث حسن).

وهناك روايات أخرى ضعيفة من رواية أبي مريم عبد الغفار بن قاسم، و (أبو مريم) كما قال ابن حجر: (ضعيف جداً). وفي رواية لأحمد (عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك عن أبي موسى الأشعري) فذكر الحديث. وأسامة بن شريك صحابي. ويحتمل أن زياد بن علاقة سمع الحديث من (يزيد بن الحارث) وهو رجل من قومه، ثم سمعه من (سيد الحي) أسامة بن شريك، هكذا قال ابن حجر. ورواه أيضاً عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك الطبراني.

وبعد أن ناقش ابن حجر مختلف الروايات، قال: (**وفي الجملة: هذه الطريق الضعيفة لا تقدح في صحة الطريق القوية، فإن أمثل طرقه التي سمّى**

فيها المبهم رواية أبي بكر النهشلي، و أسامة بن شريك صحابي مشهور. وسائر الروايات شاهدة لصحتها إلاّ ما شذ به الفضل بن سهل، وخلط فيه حجّاج بن أرطأة، والله أعلم).

ولكن الدارقطني تكلّم عن هذا الحديث في «العلل»، واعتبر الاضطراب من زياد بن علاقة. وهناك طرق أخرى للحديث ذكرها الإمام ابن حجر، ومنها رواية ابن خزيمة في كتابه «التوكّل»، وأخرج أحمد والطبراني من طريق أبي عوانة، ولفظه: أن النبيّ ﷺ ذكر الطاعون فقال: «وخز أعدائكم من الجنّ، وهو شهادة لكل مسلم» وفي رواية: «للمسلم». وصحّحه الحاكم وأخرجه في كتاب «الإيمان»، من «المستدرك»، وقال: صحيح على شرط مسلم. وتعقّبُه الشيخ زين الدين العراقي في «أماليه على المستدرك»، وقال: لم يحتجّ مسلم بأبي بلج ـ أحد رواة الحديث ـ، وإنما روى له أصحاب السنن.

والخلاصة أن هذا الحديث مروي عند أهل الحديث بطرق مختلفة فيها الضعيف المتروك، وفيها الحسن.

وهناك حديث عائشة رضي الله عنها: ذُكِرَ الطاعون، فذكرت أن النبيّ ﷺ قالٰ: «وخز يصيب أمتي من أعدائكم من الجنّ، من أقام عليه كان مرابطاً»، أخرجه أبو يعلى. وقال ابن حجر العسقلاني فيه: (وهذا سند ضعيف لضعف ليث، وإبهام شيخه).

ثم ذكر حديث ابن عمر، وقال عن سنده أنه ضعيف. وقال ابن حجر: جميع ما وقفت عليه من الروايات في حديث أبي موسى، وفي حديث عائشة، وفي حديث ابن عمر بلفظ «وخز أعدائكم»، أو بلفظ: «طعن أعدائكم». واشتهر على الألسنة أنه ورد أيضاً «وخز إخوانكم». ويذكر ابن حجر أن لفظ إخوانكم لا يوجد في المصادر الحديثية والتي يعرفها حق المعرفة، ما عدا ما ورد في كراسة جمعها الشيخ بدر الدين الزركشي في مسألة الطاعون، حيث زعم وفي لفظ أحمد «إخوانكم». وقد أوضح ابن حجر خطأ ذلك متناً وسنداً، حيث إن روايات أحمد كلها ذكرت «أعداءكم من الجنّ». وكذلك ما ذكره محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي في كتابه: «آكام

المرجان في أحكان الجانّ»، فقد نسبه إلى مسند أحمد. وعلّق عليه ابن حجر قائلاً: (وما أدري من أين وجده في مسند أحمد كذلك) والموجود فيه ما ذكرته.

وكذلك انتقد الشبلي المنبجيُّ في كتابه عن «الطاعون»، وقال: (إن رواية إخوانكم من الجن ليست موجودة في مسند أحمد).

قال ابن حجر: وذكر لفظ إخوانكم أيضاً أبو عبيد الهروي في كتابه «الغريبين» - أي غريب لفظ القرآن والحديث -، وتبعه أبو السعادات المبارك ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث»، ورغم كل ما قدّمه من نفي للفظ إخوانكم، ذكر طرق الجمع بين لفظ «وخز أعدائكم» و «وخز إخوانكم».

ثم تحدّث عن تسلّط الجن على الإنس حتى في رمضان، ولذا لا يستنكر أن يتسلّط الجن على الإنس بالوخز مسبّبين الطاعون في رمضان وغيره، كما يمكن أن يتسلّط الأعداء من الإنس على المؤمنين ويكون طعنهم شهادة، فكذلك يمكن أن يتسلّط الجن على الإنس ويكون طعنهم طاعوناً، قال: (وَخْز) هو طعن غير نافذ، هذا أصل الوخز، وإنما قيل لطعن الجنّ إنه غير نافذ لأنه يقع من الباطن إلى الظاهر، فيؤثر في الباطن أوّلاً ثم ينفذ إلى الظاهر، وقد لا ينفذ، بخلاف طعن الإنس فإنه يؤثر أوّلاً في الظاهر، ثم قد ينفذ إلى الباطن وقد لا ينفذ. وهذه حقيقة الطاعون المحسوسة، وبهذا التقرير يندفع الإشكال، ويجتمع كلام الأطباء مع الآثار الواردة». انتهى كلام ابن حجر.

مناقشة سبب الطاعون:

لا شك أن سبب الطاعون كان مجهولاً لدى البشرية طوال القرون الماضية، حتى بدأت النهضة العلمية الحديثة. وفي أواخر القرن التاسع عشر اكتشف العالم الياباني كيتاسو ميكروب الطاعون، وذلك عام ١٨٩٤، وتبعه مباشرة العالم السويدي (يرسين)، ثم اتّضحت طريقة العدوى، ودور البراغيث والفئران في بداية القرن العشرين. وإن كان العالم الياباني أوجاتا قد قدّم نظريته حول دور البراغيث في نقل الطاعون عام ١٨٩٧. ولكن ذلك لم يتأكد

إلاّ في بداية القرن العشرين، وبالذات في عام ١٩٠٨، كما أوضحنا من قبل.

إذن من غير المعقول أن يتفطّن الأطباء إلى سبب الطاعون، ولذا أرجعوه إلى رداءة الجوّ وإلى عفونته وإلى أسباب سماوية وأسباب أرضية... وكلها بطبيعة الحال لا علاقة لها بالطاعون. أمّا الفقهاء والمحدّثون، فأرجعوه إلى طعن الجنّ ووخزهم.

وأرجعه ابن القيم إلى ثلاثة أسباب:

١ ـ أنه رجز وعذاب على الأمم السابقة.

٢ ـ وخز الجنّ.

٣ ـ دعوة نبي (على قومه).

قال في الطب النبوي: (وقد ورد في الحديث الصحيح «أنه بقية رجز أرسل على بني إسرائيل»، وورد فيه «أنه وخز الجن»، وجاء «أنه دعوة نبي»).

قلتُ: وكونه رجز وعذاب على الأمم السابقة أو على بني إسرائيل لا ينفي كونه رحمة وشهادة للمسلم، كما جاء في الأحاديث الكثيرة الصحيحة والحسنة والتي أفرد لها ابن حجر العسقلاني فصولاً في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون».

أما كونه «من وخز الجن»، فقد نقلنا آنفاً ما ذكره ابن حجر من أحاديث في هذا الباب، وأن أغلبها ضعيف، وفيها ما يصل إلى درجة الحسن.

ويحاول ابن القيّم بأسلوبه الطليّ أن يعلّل، فيقول:

(وهذه العلل والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها، كما ليس عندهم ما يدلّ عليها، والرسل تخبر بالأمور الغائبة. وهذه الآثار التي أدركوها من أمر الطاعون، ليس معهم ما ينفي أن تكون بتوسط الأرواح، فإن تأثير الأرواح في الطبيعة وأمراضها وهلاكها، أمر لا ينكره إلاّ من هو أجهل الناس بالأرواح وتأثيراتها، وانفعال الأجسام وطبائعها عنها .والله سبحانه قد يجعل لهذه

الأرواح تصرّفاً في أجسام بني آدم عند حدوث الوباء وفساد الهواء، كما يجعل لها تصرّفاً عند غلبة بعض المواد الرديئة التي تُحدِثُ للنفوس هيئةً رديئة، ولا سيّما عند هيجان الدّم والمِرّةِ السوداء».

وهكذا نجد أن ابن القيّم ينبّه إلى أن فساد الهواء الذي يجعله الأطباء سبب الطاعون ليس إلاّ أحد الأسباب العديدة التي يجعلها الله سبحانه وتعالىٰ سبباً للطاعون، ثم إن هناك ما وراء ذلك وهو وخز الجن التي تفعل فعلها بأمر الله سبحانه وتعالىٰ.

ما المقصود بالجنّ في الأحاديث الواردة عن الطاعون؟

ينبغي أن نؤكّد أوّلاً أن الأحاديث الواردة في سبب الطاعون، وأنه من وخز الجنّ أحاديث ضعيفة، وفيها ما يصل إلى درجة الحسن، كما قال الإمام ابن حجر العسقلاني. ولما كان من المستحيل أن يحدّثهم الرسول ﷺ عن الميكروبات والبكتريا إذ إنها لم تعرف إلاّ في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، كان لا بدّ من الإشارة إلى ذلك بما تحتمله اللغة العربية، وتحتمله عقولهم أيضاً. **فلفظ الجنّ كما جاء في قواميس اللغة العربيّة** ـ انظر الصحاح للجوهري والقاموس المحيط للفيروزآبادي ـ، كلها تدور حول معنى من معاني الستر والخفاء. جَنّهُ الليل أي ستره، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦]، وكل ما ستر عنك فقد جُنَّ عليك وجِنُّ الليل (بالكسر)، وجُنونه (بالضم)، وجَنانه (بالفتح): ظُلمته واختلاط ظلامه. والجَنَن (محرّكة): القبر، والميت، والكفن؛ لأنه يستر الميّت.

والجَنان (بالفتح): القلب أو روعه والروح لاختفائه واستتاره عن الأنظار، وهو أيضاً الثوب الذي يستر، والليل وإدلهمامه ـ حتى تختفي فيه الأشياء ـ، وكل جوف لا يُرى.

استجنّ: استتر. والجنين: الولد في البطن، والجمع: أجِنَّة، وكل مستور. وجَنَّ في الرحم، يَجِنُّ جَنّاً: استتر. وأجَنّته الحامل: سترته في بطنها. قال تعالىٰ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المجادلة: ١٦، والمنافقون: ٢]، أي: اتّخذوه ستراً ووقاية.

والجُنّة (بالضم): كل ما استترت به من السلاح، وكل سُترة. والمِجنّ: الترس. والمِجنّة والجُنان والجُنانة (بالضم): أيضاً الترس. والجُنة: كل ما وقى، وخِرقَة تلبسها المرأة تغطّي رأسها ووجهها ما عدا العينين كالبرقع.

الجِنّة: طائفة من الجنّ، قال تعالىٰ: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾. والمَجَنّة: الأرض كثيرة الجن، وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، أي جنون من مسّ الجن. وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨].

والجنّ: خلقهم الله من نار، وقال عنهم: إنهم يرونكم من حيث لا ترونهم، وسمّوا بالجنّ لاختفائهم واستتارهم وعدم ظهورهم. والجَانّ: اسم جامع للجن، وحيّة تستتر في البيوت ولا تؤذي (من النوع غير السام)، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

والجنون: فقدان العقل واستتاره، والجِنّة أيضاً الجنون، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾.

الجَنّة: أرض كثيرة الشجر، وسمّيت بالجنّة لاستتار أرضها لكثرة الشجر.

وجنَنْتُ الميّت: واريته، ومنه المَجَنّة: للمقبرة (لا تزال تستعمل في عدن إلى اليوم).

وهكذا تدور معاني لفظة الجن حول الستر والاستتار والاختفاء.

والوخز: طعن غير نافذ.

البراغيث المستترة ووخزها هي المقصودة بلفظ الجن:

والواقع أن هذه البراغيث التي تطعن في جلد الإنسان أو الحيوان بفكّيها الحادّين تطعن طعناً غير نافذ، ويسيل دم قليل لا يلاحظه المرء، ويتغذّى عليه البرغوث وفي أثناء ذلك يقيء ما في معدته المسدودة بميكروبات الطاعون التي تنساب من فيه إلى مكان الوخزة. ثم تنتقل عبر الأوعية اللمفاوية إلى الغدد اللمفاوية في المراق (المنطقة الأربية)، أو الإبط أو العنق حسب مكان الوخزة،

فإن كانت الوخزة في اليد أو الذراع انتقلت الميكروبات إلى غدد الإبط، وإن كانت في القدم أو الساق انتقلت إلى المراق (أسفل البطن عند التقائها بالفخذ وهي المنطقة الأربيّة)، وإن كانت الوخزة في الوجه انتقلت المكيروبات إلى غدد العنق خلف الأذن... وهي أماكن ظهور الطاعون الغددي التي سنوضحها بجلاء أكثر فيما يأتي.

ولا شكّ أن هذه البراغيث التي تسبّب الطاعون، هي مما لا يلاحظه الإنسان بل تستتر عنه وتختفي بين الملابس ولا يكاد يراها إلاّ بعد مشقة البحث عنها، ويمكن أن نطلق عليها لفظ الجن، لأن الجن كل مختفي ومستتر.

لا ننكر وجود الجن المخلوقات النارية:

وليس معنى هذا أننا ننكر وجود المخلوقات النارية المعروفة باسم الجن، فهذه ثابتة بالقرآن الكريم ولا ريب في وجودها. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٥].

ونزلت سورة كاملة عن الجن، وهي سورة الجنّ، وكيف استمعوا إلى القرآن الكريم والرسول محمد ﷺ يتلوه في صلاته فآمنوا به، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾، إلى آخر السورة الكريمة. كما جاء ذكر الجن أيضاً في سورة الأحقاف الذين اجتمع بهم الرسول ﷺ في بطن نخلة عند منصرفه من الطائف.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

والخلاصة أن لفظ الجنّ الوارد في الطاعون والمُعَبّرُ عنه بلفظ وخز الجنّ، ينبغي أن ينصرف إلى هذه المخلوقات الصغيرة المختفية التي لا تكاد تُرى إلاّ بالبحث عنها، وهي البراغيث. فهي التي تَخِزُ، وهي التي تسبّب الطاعون وتنقله... ولا علاقة للجنّ، ـ المخلوقات النارية ـ بموضوع الطاعون مطلقاً، وهو الذي ينبغي أن يصار إليه، وإلاّ فإن العلم يناقض القول بأن سبب الطاعون مخلوقات نارية تسمّى الجنّ. فالعلم والطبُّ واللغة كلها تؤيد ما ذهبنا إليه، وهو أن لفظ الجن في أحاديث الطاعون المرتبط بالوخز يشير إلى البراغث المختفية المتوارية والتي تخز الجلد وخزاً، وتنقل ميكروبات الطاعون في إفرازاتها وبرازها ورجيعها.

أعراض الطاعون في التراث الإسلامي والطب الحديث

أعراض الطاعون وعلاماته (الصورة الإكلينيكية) في التراث الإسلامي:

أخرج البخاري في كتاب الطب عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبيّ ﷺ: «الطعن عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدّة كغُدَّة البعير يخرج في المراق والإبط».

وأخرج الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، فما الطاعون؟ قال: لا غُدَّة كغُدَّة الإبل، المقيم فيها كالشهيد، والفارُّ منها كالفارِّ من الزحف».

وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم عن عائشة أيضاً قالت: «الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غُدَّة كغُدَّة البعير يخرج في المراق والإبط».

وصف الطاعون عند القدماء:

وصفه **ابن سينا في القانون** بقوله: ثم قيل لكل ورم قتّال: طاعوناً؛ لاستحالة مادّته إلى جوهر سُمّي يفسد العضو ويغيّر لون ما يليه، وربما رشح دماً وصديداً ونحوه. ويؤدي كيفية رديئة إلى القلب من طريق الشرايين، فيحدث القيء والخفقان والغشي، وإذا اشتدت أعراضه قَتَل... ويعرض في أكثر الأمر في الأعضاء الضعيفة مثل الآباط والأربيّة وخلف الأذن، ويكون أرداؤها ما يعرض في الآباط وخلف الأذن لقربها من الأعضاء التي هي أشد رياسة. وأسلم الطواعين ما هو أحمر ثم الأصفر، والذي إلى السواد لا يفلت منه أحد.

قال **الإمام النووي في شرح صحيح مسلم** كتاب الطب باب الطاعون ج١٤/ ٢٠٤]:

وأما الطاعون فهو فروح تخرج في الجسد، فتكون في المراق أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع، وسائر البدن. ويكون معه ورم وألم شديد، وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسودّ ما حواليه، أو يخضرّ، أو يحمرّ حمرة بنفسجية كدرة، ويحصل معه خفقان القلب والقيء.

وقال النووي في تهذيب الأسماء والصفات - كما ينقله ابن حجر في بذل الماعون -:

الطاعون مرض معروف وهو بثر وورم مؤلم جداً، يخرج مع لهيب، ويسودّ ما حواليه أو يخضرّ أو يحمرّ....

وقال في «الروضة»: فسَّر بعضهم الطاعون بانصباب الدم إلى عضو، وقال أكثرهم: إنه هيجان الدم وانتفاخه. قال المتولي: وهو قريب من الجذام، من أصابه تآكلت أعضاؤه وتساقط لحمه.

قال الإمام ابن حجر في «بذل الماعون»: وأصل كلام المتولي مستمد من كلام القاضي حسين في تعليقته المشهورة - وهي في فقه الشافعي -، فإنه قال: (الطاعون داء يصيب الإنسان، وهو قريب من الجذام، والعضو الذي يصيبه ذلك يتآكل ويَرِم).

وقال الغزالي في «البسيط»: الطاعون انتفاخ جميع البدن من الدم مع الحمّى أو انصباب الدم إلى بعض الأطراف، فينتفخ ذلك الموضع ويحمرّ، وقد يذهب العضو إن لم يتدارك أمره في الحال.

ثم نقل ابن حجر كلام ابن سينا المتقدم بتغيير طفيف في اللفظ، ثم قال: فحاصل ما اجتمع لنا من كلام من تقدّم كلامه أن الطاعون أنواع:

أشهرها: ما يخرج في البدن من الورم، خصوصاً في المغابن، وأنه قد يقع في اليد والأصبع وجميع الأعضاء، لكنه نادر بالنسبة إلى ما يقع في المغابن.

الثاني: يقع في أي عضو كان من البدن، مثل القرحة والبثرة، لكن الاختصاص له بالمغابن دون غيرها.

الثالث: ما يطفئ الروح كالذبحة، وليست الذبحة نفسها طاعوناً، وإنما

في أنواع الطاعون ما يضاهيها. ولذلك يختلف حال من وقعت به في زمن الطاعون، وفي غير زمنه...

الرابع: ما يقع في عضو ما فيتآكل منه كالجذام». ثم ذكر قصة إصابة زياد بن أبيه في البصرة بالطاعون وأنها خرجت من أصبعه مثل البثرة وتآكلت أصبعه، وأراد أن يقطعها ولكنه لم يفعل بإشارة القاضي شريح، فما لبث أسبوعاً حتى مات منها.

شرح الألفاظ: **المرَاقّ**: بفتح الميم وتخفيف الراء وتشديد القاف: هو ما رقّ من أسفل البطن، واحدها مرق: وهو ما سفل من البطن من المواضع التي يرقّ جلودها.... قلتُ: وهي منطقة التقاء البطن بالفخذ، وتسمّى أيضاً المنطقة الأربية Inguinal region، كما يقال لها المغابن، والصفة منه أربي ومغبني.

والمغابن جمع مغبن وهي بواطن الأفخاذ والآباط وشبهها. ويقال أيضاً لمعاطف الجلد.

والأربية: هي المنطقة التي يلتقي فيها الفخذ بالبطن، وقد يطلق على الورم الغددي أينما كان، فإذا أصيبت اليد بقرحة أو خراج كانت الأربية في الإبط، وإذا أصيبت الرقبة أو الوجه كانت الأربية في العنق وخلف الأذن غالباً... وإذا كانت الإصابة في الطرف السفلي كانت الأربية في المراق، وهكذا...

البثرة: هي انتفاخ جلدي عادة ما يكون مليئاً بالصديد. يقال بثرةُ الجدري، وبثرة الطاعون (Pustule)، وجمعه (بُثَر)، وهي كالدمّل الصغير.

الذُبحة: وجع أو ورم يعرض في الحلق بسبب التهاب شديد فيه من الداخل فيفسد معها، وقد ينقطع معه النفس Angina، وهي غير الذبحة الصدريّة. وهذه الذبحة كانت تكثر مع وجود الدفتريا (الخناق).

الغدد اللمفاوية: مجموعة من الغدد الصغيرة منتشرة في الجسم، ويمكن أن يحسّها الإنسان حتى في الجسم السليم في المغابن والآباط والمنطقة الأربية وخلف الأذن في العنق، ولكنها تكبر بسبب العديد من الأمراض الميكروبية والفيروسية والطفيليات، بالإضافة إلى الأورام الخبيثة بمختلف أنواعها. ويسبّب

الطاعون تضخُم الغدد اللمفاوية في المنطقة الأربية وفي الإبط وخلف الأذن في أعلى العنق.

أهم أعراض الطاعون الغددي والحديث النبوي:

مما تقدم نرى وصفاً دقيقاً لأهم أعراض الطاعون الغددي (الدبلي) Bubonic Plague، (غدّة كغدة البعير تخرج في المراق والإبط).

لقد قالت هذه الكلمات القليلات للحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، أهم ما يحتاج إلى معرفته الشخص العادي الذي يسأل عن الطاعون... كلمات قليلة تلخّص أهم الأعراض وتشخّص الداء. ورسول الله ﷺ لم يشاهد مريضاً بالطاعون، ولا عُرف الطاعون في جزيرة العرب... وإنما حدث في فارس والروم وبلاد الشام.

وينتقل الميكروب أوّلاً من موضع الوخزة البرغوثية إلى الغدد اللمفاوية، فإن كانت القرصة أو الوخزة في الطرف السفلي (الساق، القدم... إلخ)، تورّمت الغدد اللمفاوية الموجودة في المراق، وإن كانت القرصة في اليد أو الأصبع تورّمت الغدد الموجودة في الإبط. وإن كانت في الوجه انتفخت وتورمت غدد العنق، وخاصة تلك الموجودة خلف الأذن.

ومن الغدد اللمفاوية ينتقل الميكروب ليصل إلى الدم ويسير في مجراه إلى جميع أعضاء الجسم، فلا يكاد يفلت منه عضو. وترتفع درجة الحرارة إلى الأربعين أو ما فوقها بسرعة، وتبدو على المريض علامات الإرهاق الشديد مع صداع يكاد يفلق الرأس، وسرعان ما يصاب القلب بالهبوط.

وفترة الحضانة (وهي الزمن ما بين دخول الميكروب وظهور أوّل الأعراض) قصيرة في الطاعون، ولا تكاد تتجاوز خمسة أيام في الطاعون الغددي، وأقلّ من ذلك في الطاعون الرئوي. ويظهر المرض بصورة فجائية بالحمّى والصداع، وتظهرالغدد اللمفاوية المتضخمة مباشرة، وسرعان ما تتقرّح. ويمكن رؤية ميكروب الطاعون بغرز إبرة في الغدد المتضخمة ثم سحب شيء من السائل الموجود بها، وعند فحصها بالميكروسكوب تتضح البكتريا العصوية العنقودية المصطبغة سلباً بصبغة جرام، فتبدو حمراء قانية، ويمكن أيضاً زرعها بالمزارع الخاصّة.

وإذا لم يعالج المريض بسرعة فائقة بالتراسيكلين أو غيره من المضادات الحيوية مثل الاسترابتومايسين، فإن ما بين ٦٠ إلى ٩٠ بالمئة من المصابين قد يلاقون حتفهم خلال أسبوع منذ بدء الأعراض.

الطاعون الرئوي:

تحدّث القدماء أيضاً عن الطاعون الرئوي. قال **الإمام الغزالي** كما ينقله عنه الإمام ابن حجر العسقلاني في فتح الباري:

(إن الهواء ـ في البلدة المصابة بالطاعون ـ لا يضرّ من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام استنشاقه، فيصل إلى القلب والرئة، فيؤثر في الباطن، ولا يؤثر في الظاهر إلاّ بعد التأثير في الباطن).

وهو كلام دقيق جداً، حيث إن العدوى في الطاعون الرئوي تنتج من استنشاق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون. وذلك أن المصاب بالطاعون الغددي إذا أصيبت رئتيه نفث دماً وبصق بصاقاً مليئاً بميكروبات الطاعون، فتعدي مباشرة بالاستنشاق وتذهب إلى الرئة، ولا تحدث ما هو معروف من الطاعون الغددي (الدبلي) من تورم في الغدد اللمفاوية في المراق والإبط...

والطاعون الرئوي أشدّ فتكاً من الغددي، ولا يكاد ينجو منه أحد إلاّ إذا عولج بسرعة فائقة بالمضادات الحيوية والأوكسجين وأدوية هبوط القلب عند حدوثه.

وهكذا تفطّن الإمام الغزالي إلى كيفية حدوث العدوى في الطاعون الرئوي، ووصفه بدقّة بارعة، وهو ما لم يذكره أساطين الأطباء في زمنه والأزمنة التي تلته وسبقته.

وقد أشار إلى **الطاعون الرئوي ابن الوردي في مقامته** عن طاعون سنة ٧٤٩هـ، حيث قال: (ومن الأقدار أنه تتبع أهل الدار فمتى بصق واحدٌ منهم دماً تحقَّقَ كلٌّ منهم عَدَما. ثم يسكُنُ الباصق الأجداث ـ أي القبور ـ بعد ليلتين أو ثلاث)، وهو وصف دقيق وصحيح؛ إذ إن المصاب بالطاعون الرئوي لا يعيش أكثر من يومين أو ثلاثة بعد نفث الدم وبصقه. قال ابن الوردي:

سـألـتُ بـارئَ النَّسَمْ ... فـي دفـع طـاعـونٍ صدمْ
فـمـن أحسّ بَـلْـعَ دمْ ... فـقـد أحسّ بـالـعَـدَمْ

وقال الإمام ابن حجر في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون»:

وقرأت في كتاب القاضي تاج الدين السبكي (في طاعون سنة ٧٦٤هـ يصف ذلك الطاعون): إن طلعت حبّة لابن آدم هبطت به إلى الرّمس، وإن بصق دماً قال: يا حسرتا على ما فرّطت بالأمس.

وكذلك أشار الصفدي في صفة طاعون ٧٤٩هـ: (وكان يقتل بالرائحة، وبقدر الحبّة تظهر في المغابن: كالإبط ونحوه، وببثرة خلف الأذن، وبقدر الخيارة في الورك. وبعضهم يبصق دماً فيخرّ ميّتاً).

وهذا وصف كامل وجيّد لأنواع الطاعون الغددي والرئوي والجلدي، وقد أضاف القدماء في وصفهم للطاعون بعض الخصائص التي كانت لبعض الطواعين، فقد ذكر السيوطي في مقامته الدرّية عن الطاعون الذي حدث عام ٨٩٧ و٨٩٨هـ: (أنه خالف الطواعين بأمرين: أحدهما: أنه تأخر طروقه عن ميعاده قريباً من شهرين. والثاني: أنه هجم في مصر - أي القاهرة - قبل حلول قرى البحرين - أي الوجه البجري -).

(وذكر أنه خالف العوائد في أمر آخر زايد، وهو أنه مات به من تقدَّم، له طعنه قديماً، وجرت العادة أنه لا يموت به، وإن طُعِن كان سليماً». والمعروف أن من أصيب بالطاعون أو الجدري أو الحصبة تتكون لديه مناعة دائمة، فلا يصاب بها مرة أخرى. ولكن يبدو أن طاعون عام ٨٩٧ قد غيّر الميكروب فيه من المواد المناعية (الانتيجينات Antigens: المستضدات)، فأدّى ذلك إلى هجوم ميكروب لا عهد للجسم به فقتل.

وذكر القدماء أيضاً أن بعض الطواعين يكثر فيها موت الفجأة، ذكر ذلك ابن أبي حجلة، ونقل عن التنوخي. وكذلك ذكره ابن حجر العسقلاني في «بذل الماعون»، والسيوطي في «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وأن الشخص يموت وهو يصلّي أو يأكل أو في الحمّام أو حتى وهو يجامع... وذلك بسبب انتشار الطاعون الدموي الأنتاني (Septicaemic).

والعجيب حقاً أن كل هؤلاء الذين كتبوا في الطاعون وأفاضوا في ذكره، وذكر خصائصه بتفصيل ليسوا من الأطباء، بل من القضاة والفقهاء والمحدّثين مع براعتهم الأدبية.

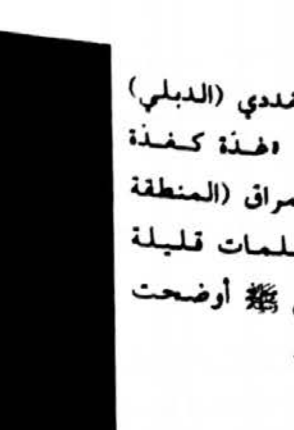
وذكروا حدوث البثرة في اليد وزيادتها كما ذكروا التقرّحات بل والأَكَلَة (الغرغرينا) التي قد تحدث في بعض حالات الطاعون، كما حدث لزياد بن أبيه (زياد بن سميّة، ويقال له أحياناً زياد بن أبي سفيان، وهو ابنه من الزنّا بسمية العاهرة، وقد ألحقه به معاوية ليستميله فكان حاكمه الطاغية على العراقين وفارس).

الأحاديث النبوية تصف أعراض الطاعون:

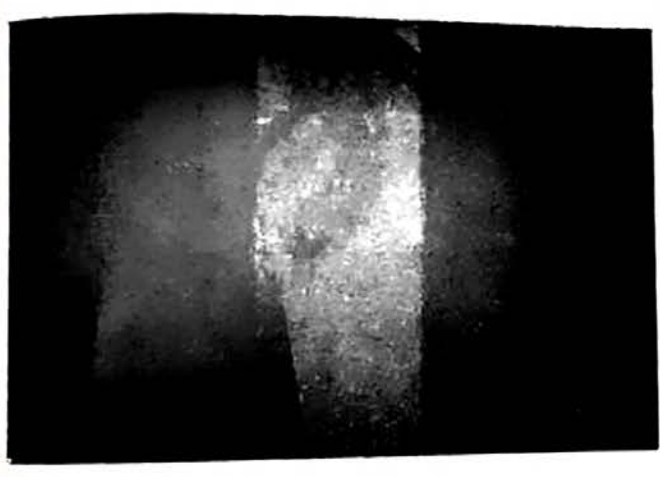
وقد وصف رسول الله ﷺ الطاعون الغددي أوضح وصف وأدقّه كما سبق أن ذكرناه في حديث البخاري وأحمد وغيرهما: «غدة كغدّة البعير تخرج في المراق والإبط»، كما وردت أحاديث أخرى تصف الإصابات الجلدية بالإضافة إلى الغدد اللمفاوية، فقد أخرج أحمد عن معاذ بن جبل قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستهاجرون إلى الشام فيفتح لكم، ويكون فيكم داء كالدمَّل أو كالحزَّة يأخذ بمراق الرجل يستشهد الله به أنفسهم ويزكّي به أعمالهم»، اللّهمّ إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول الله ﷺ فأعطِهِ هو وأهل بيته الحظَّ الأوفر منه)، فأصابهم الطاعون فلم يبق منهم أحد، فَطُعِنَ في أصبعه السبابة، فكان يقول: (ما يسرّني أن لي بها حُمر النّعم).

وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر الصديق، قال: كنت مع النبيّ ﷺ في الغار، فقال: اللّهمّ طعناً وطاعوناً. قلتُ: يا رسول الله إني أعلم أنك قد سألت منايا أمّتك، فهذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «ذرب كالدمّل، إن طالت بك حياة ستراه».

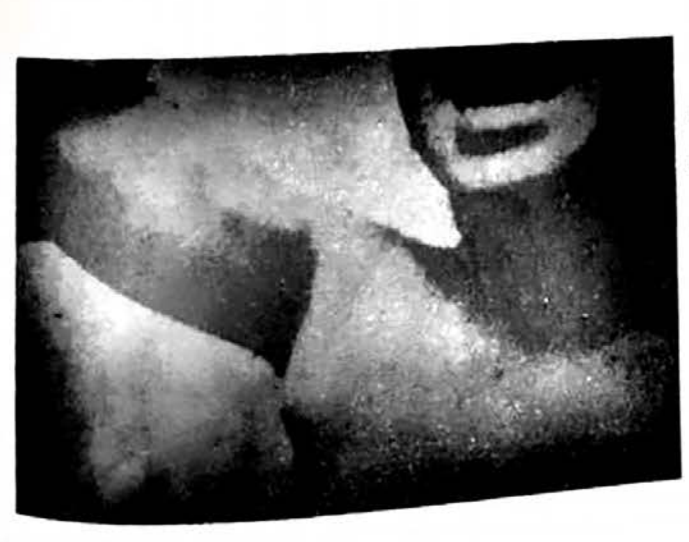
وأخرج البزار عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «يشبه الدُمَّل يخرج في الآباط والمراق، وفيه تزكية أعمالهم، وهو شهادة لكل مسلم».



أعراض الطاعون الغددي (الدبلي) Bubonic Plague، «غدة كغدة البعير يخرج في المراق (المنطقة الأربية) والإبط»، كلمات قليلة للحبيب المصطفى ﷺ أوضحت أهم أعراض الطاعون.



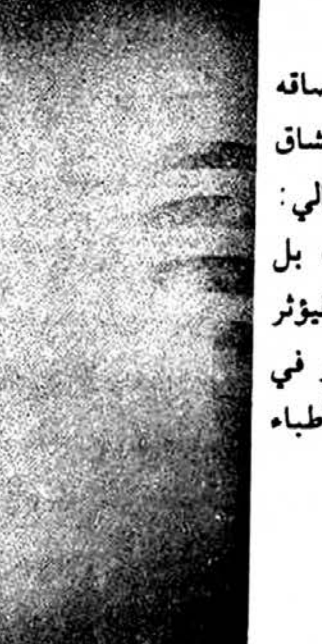
وتتقرح هذه الغدد اللمفاوية الملتهبة، فيخرج منها غسلين (دم وقيح)، مليء بميكروبات الطاعون.



صورة لطفل مصاب بالطاعون الغددي حيث تورّمت الغدد اللمفاوية في الإبط، لأن وخز البرغوث كان في اليد.

وتظهر الغدد اللمفاوية المتضخمة والملتهبة في أعلى العنق أيضاً وخلف الأذن، إذا كانت وخزة البرغوث في الوجه أو الرأس.





الطاعون الرئوي حيث ينفث المصاب دماً مع بصاقه وهو أشدّ حالات الطاعون، وتنتقل العدوى باستنشاق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون. قال الإمام الغزالي: «إن الهواء لا يضرّ من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام استنشاقه فيصل إلى القلب والرئة فيؤثر في الباطن، ولا يؤثر في الظاهر إلاّ بعد التأثير في الباطن»... وهو كلام دقيق ونفيس سبق به الأطباء بتسعمائة عام تقريباً.

الصورة الاكلينكية للطاعون في الطب الحديث[1]:

يوجد الطاعون في كثير من البلدان بصورة حالات محدودة نتيجة وجود الطاعون الآجامي (البرّي) Sylvatic Plague، حيث يصاب الإنسان نتيجة اتصاله بالقوارض، فعلى سبيل المثال تم تسجيل ٤٠٥٦ حالة طاعون عام ١٩٧٠ في البلاد التالية: فيتنام وبورما والبرازيل وكينيا وبيرو والسودان وبوليفيا والولايات المتحدة وزائير. وفي خلال عقد السبعينات (١٩٧٠ - ١٩٧٩) تمّ تسجيل ١٣,٧٨٦ في فيتنام، و٢٧٩٥ في بورما، و١٤٦٤ في البرازيل، و٣٩٣ في كينيا، و٢٢٦ حالة في السودان، و١٠٥ حالات في الولايات المتحدة، وكانت معظم هذه الحالات محدودة الانتشار Sporadic، ولم تصل إلى درجة الوباء... وكانت الوفيات فيها قليلة. وظهر الطاعون بصورة وباء محدود في الهند عام ١٩٩٤، عندما أصاب بضعة آلاف وبلغت الوفيات بضع مئات، وأثار حينها رعباً عالمياً، إلاّ أنه أمكن السيطرة عليه بسرعة.

ويظهرالطاعون بصور إكلينكية مختلفة بعد فترة الحضانة التي تتراوح ما بين يومين وثمانية أيام، ويمكن أن نوجز الصور الإكلينيكية كالتالي:

١ ـ **قبيل ظهور المرض**: يشعر كثير من المصابين بالإعياء والإرهاق والكآبة والقلق وآلام عامة في الجسم وخفقان (ضربات سريعة في نبض القلب).

٢ ـ **الطاعون الصغير**: وفيه يتمكن الشخص من المشي بل وممارسة عمله، ويظهر على نسبة من المصابين في كل وباء عالمي من أوبئة الطاعون، ويشكو المصاب بارتفاع في درجة الحرارة وتضخّم في الغدّة التناسلية (Bubo)، (في المراق) التي تلتهب وتتقرّح وتفرز الصديد. والغريب أن الحرارة تنخفض بعد هذا التقرّح وإفراز الصديد الذي يحتوي على عدد محدود من ميكروبات الطاعون.

---

(١) اختصرتها من المراجع الطبية التالية:

- Manson's Tropical Diseases, Balliere Tindal, London, 18th ed., 1983, p.339-341.
- Kumar P., Clark M.: Clinical Medicine, Baillierie Tindal, London, 2nd ed., 1990: 37-38.
- The Merck Manual of Diagnosis and Therapy, Merck co., 14th ed., N.J. 1982, 110 - 111.
- Cecil Textbook of Medicine Saunders co., Philadelphia, 17th ed., 1985: 1600-1602.

كذلك أمكن عزل ميكروب الطاعون من مسحة في الحلق Throat Swab، من هؤلاء المرضى ومن حاملي المرض الذين يحملون المرض دون أن تظهر عليهم أيّ أعراض... وظاهرة حاملي المرض ظاهرة محيّرة تقع في جميع الأمراض المعدية، حيث يحمل هؤلاء ميكروب المرض الخطير (الطاعون، الحمى الشوكية، الجدري، شلل الأطفال... إلخ)، دون أن يظهر عليهم أي مرض على الإطلاق. ويستطيعون أن ينقلوا المرض إلى غيرهم دون أن يصابوا هم بالمرض، وهو مصداق حديث رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»[1]، بمعنى أن العدوى لا تحدث بذاتها وإنما بأمر الله سبحانه وتعالىٰ، ولا يظهر المرض إلاّ بتوفر عوامل كثيرة، وأن الميكروب المسبّب للمرض ليس إلاّ واحداً من هذه العوامل. وقد أوضح المصطفى ﷺ ذلك للأعرابي، عندما قال الرسول ﷺ: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة»، فقال الأعرابي: يا رسول الله، فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها فيجربها كلها؟ قال: «فمن أعدى الأول؟»[2]. وقد أوضحت موضوع العدوى بتفصيل في كتابي «العدوى بين الطب وحديث المصطفى»، وكتابي «هل هناك طب نبوي»؟، فليرجع إليهما من أراد المزيد.

٢ ـ الطاعون الغددي (الدبلي) Bubo:

يشكّل الطاعون الغددي معظم حالات الطاعون، وكل الأوبئة العالمية بدأت بالطاعون الغددي وسببه كما أوضحنا وخز البراغيث المصابة بالطاعون، ونقلها العدوى إلى المصاب بواسطة إفرازاتها من الفم ومن البراز، وعندما يحك الشخص منطقة الوخزة تنتقل الميكروبات عبر الأوعية اللمفاوية إلى الغدد اللمفاوية التي تتضخّم. وتظهر بثرة أحياناً في موقع قرصة البرغوث، وقد وصفت المصادر الإسلامية العديدة البثرة التي ظهرت في أصبع أو يد معاذ بن جبل حين أصيب بالطاعون في طاعون عمواس الشهير.

ويظهر الورم الدبلي (تضخم الغدد اللمفاوية Bubo) في المراق Inguinal region في ٧٠٪ من الحالات، كما يظهر في الإبط في ٢٠ بالمئة من

(١) أخرجه البخاري ومسلم (كتاب الطب) من صحيحهما.
(٢) أخرجه الشيخان (البخاري ومسلم).

الحالات. أما العشرة بالمئة الباقية، فتظهر في الغدد اللمفاوية في العنق (تحت الفك، وخلف الأذن)، وعادة ما يكون ذلك في الأطفال. وفي بعض الحالات النادرة تصاب اللوز أولاً أو الغدد اللمفاوية في المرفق Epitrochlear، أو في المأبض Popliteal. ويبدأ المرض بارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة فوق الأربعين مئوية مع إرهاق شديد وتوعك وشعور بالعطش وهذيان. وقد يصحبه غشي Coma وتشنجات Convulsions. وقد يحدث في بعض الحالات قيء شديد متكرّر وإسهال، وتتضخم الطحال والكبد، ويكون النبض قوياً في أول الأمر ولكنه سرعان ما يضعف.

الأنتان الدموي:

وفي الماضي قبل استخدام المضادات الحيوية، فإن ٦٠ بالمئة من الحالات على الأقل كانت تزداد سوءاً وتتفاقم وتنتهي بالأنتان الدموي، حيث يصاب المرء بهبوط في ضغط الدم ويكون النبض ضعيفاً جداً مع إرهاق شديد وفقدان الوعي (الغشي)، ويكون الموت قاب قوسين أو أدنى خلال يومين أو ثلاثة، بسبب الصدمة والتجلّط داخل الأوعية الدموية.

الطاعون الرئوي:

وقد يتحوّل الطاعون الدبلي إلى الرئتين فيصيبها فينفث المصاب دماً... ويكون بصاقه المدمّم والمليء بالقيح أيضاً مرتعاً خصباً لميكروبات الطاعون، وبالتالي تعدي بواسطة الاستنشاق. ولذا يزداد الخطر على المحيطين بالمريض من أهل وأقارب وزوّار ومعالجين، وإذا أصيب شخص بالطاعون الرئوي عن طريق الاستنشاق لا تظهر عليه تورّمات الغدد اللمفاوية بل يصيب الرئتين مباشرة، ثم يصيب الأحشاء الداخلية... فتحدث نوبات ضيق التنفس والسعال وزرقة في الجسم، ويتوفى المريض عادة في اليوم الرابع منذ بدء الأعراض.

وما لم يعالج المريض بسرعة فائقة بالمضادات الحيوية والأوكسجين والعقاقير المعطاة لهبوط القلب، فإن الغالبية المطلقة (٩٠ إلى ١٠٠ بالمئة من الحالات)، يتوفون.

طاعون السحايا:

تمّ تسجيل التهاب السحايا بميكروب الطاعون في داكّار في السنغال وفي

زائير وفي شرق أفريقيا وأمريكا الجنوبية وجنوب كاليفورنيا في الولايات المتحدة، ومعظم الحالات هي من مضاعفات الطاعون الدبلي (الغددي)، حيث تنتقل الميكروبات في جسم المريض إلى العديد من الأحشاء بما فيها السحايا (أغشية الدماغ والنخاع الشوكي والتي يجري فيها السائل مخ ـ شوكي)، وتكون الأعراض مثل التهاب السحايا حيث يظهر الصداع الشديد، وخاصة في القذال (مؤخرة الرأس)، وتتصلّب الرقبة ويصبح فحص كرينج Kerings Sign إيجابياً، بالإضافة إلى نوبات من التشنج وفقدان الوعي (الغشي)... ويمكن التشخيص ببذل السائل المخ ـ شوكي بواسطة إبرة في المنطقة القطنية Lumbar Puncture. ويحلّل السائل وتبدو ميكروبات الطاعون تحت المجهر بعد صبغها.

وتتمّ المعالجة بالمضادات الحيوية (الاستربتومايسين حقناً في العضل وفي السائل المخ ـ شوكي)، والتتراسيكلين والكلورامفينكول.

الطاعون الجلدي:

ظهور البثرة في موضع قرصة البرغوث في اليد والساق ويتقرّح موضع التهاب الغدد اللمفاوية بالإضافة إلى غرغرينا تحدث في الطرف المصاب أو في موضع الغدد في المنطقة الأربية، وقد أصيب زياد بن أبيه الطاغية المستبد حاكم العراقين أيام معاوية بن أبي سفيان بالطاعون في يده حتى حدث فيها تآكل (غرغرينا)، وأراد أن يقطعها فنهاه عن ذلك القاضي شريح، ثم لم يلبث إلاّ أياماً حتى مات بذلك الطاعون سنة ٥٣هـ. وقد ظهرت البثرة أيضاً على يد معاذ بن جبل فجعل يمصّها ويدعو الله أن يبارك فيها حتى يحصل على الشهادة، فما لبث إلاّ قليلاً حتى مات بالطاعون، وذلك سنة ١٨هـ، وهو طاعون عمواس الذي مات فيه من جيش المسلمين في الشام خمسة وعشرين ألفاً، منهم أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل وأولاده وزوجته، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس (ابن عمّ ورسول الله ﷺ)، وسهيل بن عمرو وابنه أبو جندل، ويزيد بن أبي سفيان وخلق كثير من الصحابة.

الحجر الصحي والطاعون

الأحاديث الواردة في الحجر الصحي:

وردت أحاديث عدة في موضوع الطاعون والحجر الصحي، وهو منع الدخول إلى منطقة الوباء، ومنع الخروج من البلدة التي فيها الوباء. وإليك ما جاء فيه:

١ ـ عن **أسامة بن زيد** رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الطاعون رجس (رجز) أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**»، أخرجه الشيخان، وابن خزيمة، ومالك في الموطأ، والترمذي، والنسائي، وأبو نعيم بألفاظ متقاربة، من طرق متعدّدة، أفاض في ذكرها الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون»، باب «في حكم الخروج من البلد الذي يقع بها الطاعون والدخول إليها».

٢ ـ وأخرجه أيضاً مسلم عن **سعد بن أبي وقاص** (وهو سعد بن مالك) رضي الله عنه، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وابن خزيمة في صحيحه عن سعد رضي الله عنه بطرق متعدّدة، ولفظه: ذُكِرَ الطاعون عند رسول الله ﷺ، فقال: «**رجز أصيب به من كان قبلكم، فإذا كان بأرض فلا تدخلوها، وإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا عنها**».

٣ ـ وأخرجه عن **عكرمة بن خالد** ابن خزيمة وأحمد والطبراني والطحاوي بمثله.

٤ ـ وأخرجه مسلم عن **زيد بن ثابت** مقتصراً على قوله: «**إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**».

٥ ـ وذكره ابن حجر في «بذل الماعون» عن **شرحبيل بن حسنة** قال:

(انظروا ما أقول، فإن رسول الله ﷺ قال: «إذا وقع - يعني الطاعون - بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا، فإن الموت في أعقابكم، وإذا وقع بأرض فلا تدخلوها فإنه يحرق القلوب).

٦ - عن عائشة رضي الله عنها، عن النبيّ ﷺ قال: «ما من عبد يكون (الطاعون) في بلدة، يكون فيها، فيمكث فلا يخرج من البلدة صابراً محتسباً إلاّ كان له مثل أجر شهيد»، أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب القدر.

٧ - عن أم أيمن رضي الله عنها أنها سمعت الرسول يوصي بعض أهله، فقال: «وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم فاثبت»، قال ابن حجر في «بذل الماعون»: فيه انقطاع بين مكحول وأم أيمن.

٨ - أخرج الشيخان ومالك في الموطأ عن **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما قال: إن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد: أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام، فقال عمر: «ادعُ لي المهاجرين الأوّلين» فدعوتهم، فاستشارهم وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام فاختلفوا، فقال بعضهم: (قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه). وقال بعضهم: (معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء)، فقال عمر: (ارتفعوا عني).

ثم قال: ادعُ لي الأنصار، فاستشارهم فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: (ارتفعوا عني).

ثم قال: ادع لي من كان هاهنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: (نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء)... فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه، (أي إني مسافر غداً فاستعدوا للسفر). فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!! نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كانت لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟!

قال: فجاء عبد الرحمٰن بن عوف وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال:

إن عندي من هذا علماً. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه**»، قال: فحمد الله عمر بن الخطاب ثم انصرف.

٩ ـ وأخرج عبد الرزاق في تفسيره وابن جرير الطبري كذلك في التفسير في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، عن الحسن قال: «**فرّوا من الطاعون**». وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: (مقتهم الله على فرارهم من الموت فأماتهم الله عقوبة لهم، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها).

وأخرج الفريابي وابن راهويه وابن المنذر وابن جرير **عن ابن عباس قال: (كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون)**. واختلفوا في العدد على أقوال كثيرة، ومنها أن العدد يفيد الكثرة لا نفس العدد. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعني بالألوف كثرة العدد [أخرجه الطبري في تفسيره]. ورجّح الطبريّ: أكثر من عشرة آلاف؛ لأن «الألوف» جمع كثرة، لا يقال للعشرة فما دونها، وإنما يقال آلاف.

١٠ ـ **عن جابر** رضي الله عنه يرفعه إلى النبيّ ﷺ أنه قال: «**الفارُّ من الطاعون كالفارِّ من الزحف**»، أخرجه أحمد في مسنده.

إعجاز الأحاديث الشريفة في الحجر الصحي:

توضح هذه الأحاديث الشريفة مبادىء الحجر الصحي قبل أن تعرفها البشرية بقرون متطاولة، وكان أول من طبّق الحجر الصحي مدينة البندقية في إيطاليا في القرن السادس عشر الميلادي، ثم طبّقته أوربا بعد ذلك بدرجات متفاوتة من الالتزام... وكل ذلك بعد قرابة ألف عام من الهدي النبوي في الحجر الصحي. وإليك ما كتبته في هذا الموضوع نقلاً عن كتابي «العدوى بين الطب وحديث المصطفى ﷺ»[1].

(١) إصدار الدار السعودية بتقديم المرحوم الإمام الشيخ عبد الحليم محمود، شيخ الجامع الأزهر، الطبعة الخامسة ١٩٨٥ (ص١٠١ ـ ١١٢).

منع السليم من الدخول إلى أرض الوباء، والمنع من الخروج منها:

ومنع السليم من الدخول إلى أرض الوباء قد يكون مفهوماً بدون الحاجة إلى معرفة دقيقة بالطب... ولكن منع سكان البلدة المصابة بالوباء من الخروج وخاصة منع الأصحّاء منهم يبدو عسيراً على الفهم بدون معرفة واسعة بالعلوم الطبية الحديثة... فالمنطق والعقل يفرض على السليم الذي يعيش في بلدة الوباء أن يفرّ منها إلى بلدة سليمة حتى لا يصاب هو بالوباء!!

هكذا يقول العقل والمنطق... لماذا تبقى في بلاد الوباء وتنتظر حتى يأتيك الوباء والموت؟... والفرار من الوباء والهلاك تفرضه غريزة حب البقاء كما يفرضه المنطق والعقل... وقد يقول لك قائل: «ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»... والبقاء في أرض الوباء تَهلُكَة أيّ تهلكة...

الحامل للمرض وفترة الحضانة:

ولكن الطب الحديث يقول لك: إن الشخص السليم في منطقة الوباء قد يكون حاملاً للميكروب. وكثيرٌ من الأوبئة تصيب العديد من الناس، ولكن ليس كل من دخل جسمه الميكروب يصبح مريضاً... فكم من شخص يحمل جراثيم المرض دون أن يبدو عليه أي أثر من آثار المرض... فالحمى الشوكية وحمى التيفود والزحار الاميبي والباسيلي والسل، بل وحتى الكوليرا والطاعون قد تصيب أشخاصاً عديدين دون أن يبدو على أيٍّ منهم علامات المرض، بل ويبدو الشخص وافر الصحة سليم الجسم... ومع ذلك فهو ينقل المرض إلى غيره من الأصحاء...

وهناك أيضاً فترة الحضانة... وهي الفترة الزمنية التي تسبق ظهور الأعراض منذ دخول الميكروب إلى الجسم... وفي هذه الفترة يكون انقسام الميكروب وتكاثره على أشدّه، ومع ذلك فلا يبدو على الشخص في فترة الحضانة هذه أنه يعاني من أي مرض... ولكنه بعد فترة قد تطول وقد تقصر على حسب نوع المرض والميكروب الذي يحمله تظهر عليه أعراض المرض الكامنة في جسمه.

ومن المعلوم أن فترة حضانة الأنفلونزا مثلاً هي يوم أو يومان... بينما فترة حضانة التهاب الكبد الفيروسي قد تطول إلى ستّة أشهر... كما أن ميكروب السل قد يبقى كامناً في الجسم عدة سنوات طوال دون أن يحرّك

ساكناً... ولكنه لا يلبث بعد تلك الحقبة من الزمن أن يستشري في الجسم...

والشخص السليم الحامل للميكروب أو الشخص المريض الذي لا يزال في فترة الحضانة يعرّض الآخرين للخطر دون أن يشعر هو أو يشعر الآخرون...

الوعد لمن يصبر، والوعيد الشديد لمن يفرّ من الطاعون:

ولذا جاء منع الرسول صلوات الله عليه أهل البلدة المصابة بالوباء من أن ينتقلوا منها تشريعاً رائعاً... ومعجزة علمية ظهرت حقيقتها اليوم بعد مضيّ أربعة عشر قرناً من الزمان...

فالشخص السليم في المنطقة الموبوءة قد يكون حاملاً للميكروب كما قد يكون في فترة الحضانة، فإذا خرج من بلدته تلك لم يلبث أن يظهر عليه الوباء... فيعدي غيره وينقل بذلك المرض إلى آلاف بل إلى ملايين البشر...

لذا جاء المنع شديداً... وجاء الوعيد مرعباً مخيفاً... «والفارّ من الطاعون كالفارّ من الزحف»... كما جاء الوعد مرغّباً وحاثّاً أشد الحثّ على الإقامة والصبر... «المقيم فيه كالشهيد»... «والصابر فيه كالصابر في الزحف»... «والمطعون شهيد»...

إن الوعد والوعيد للمؤمنين أهم من كل الإجراءات القانونية التي تتخذها الأمم اليوم... فالقانون يسهل التحايل عليه مهما كانت الإجراءات مشدّدة في تطبيقه... أما عذاب الآخرة فأمر لا يستهين به المؤمن مطلقاً... وأمام هذا الوعيد المرعب تذوب نفس المؤمن، فيصبر وينفتح أمامه باب الرجاء وباب الأمل في الدنيا والآخرة... فهو كالمجاهد في سبيل الله ينتظر إحدى الحسنيين إن أفلت من الوباء وقد صبر فله أجر المجاهد... وإن اخترمته المنية فلن يفوته أجر الشهادة... وقد قال رسول الله ﷺ: «المطعون شهيد والمبطون شهيد»، والمطعون هو الذي يموت في الطاعون... والمبطون هو الذي يموت نتيجة إصابته بالإسهال الشديد... وهو أغلب ما يكون في الكوليرا...

تحريم الخروج من أرض الوباء:

والطاعون والكوليرا هما أخطر الأمراض الوبائية وأسرعها انتشاراً... والحجر الصحي أوجب ما يكون فيها وقد أشار إليهما الحديث النبوي لأهميتهما الخاصة... وأغلب فقهاء المسلمين يحرّمون الخروج من البلاد المصابة بالطاعون... وقد رأى بعض الفقهاء أن النهي للتنزيه فيكره ولا يحرم... ولكن رأي الجمهور يذهب إلى التحريم لا الكراهة[1].

لذا كانت الأوامر النبوية بالعزل والحجر الصحي سبقاً لكل التصوّرات والإجراءات الطبية والوقائية طوال هذه العهود والآماد... فكيف يتأتى لمن عاش في القرن السابع الميلادي أن يتحدّث عن مبادئ الحجر الصحي التي لم تعرف إلاّ بعد معرفة الميكروبات وطريقة انتقالها وفترة حضانتها. ومن هو حامل الميكروب وكيف يمكن أن يكون صحيحاً معافى، من ينقل المرض إلى غيره؟ كل هذه معلومات حديثة لم نتوصّل إليها إلاّ في القرن العشرين. فكيف يتأتّى لمن عاش في القرن السادس والسابع الميلادي أن يعرف هذه الأبعاد فيصدر أوامره وتعليماته بأن لا يدخل أرض الوباء أحد، وأن لا يخرج من أرض الوباء أحد.

لا يمكن أن يتأتى ذلك لبشر إلاّ أن يكون رسولاً نبياً... فإن حديث الطاعون معجزة كاملة من معجزات الرسول صلوات الله عليه... ودليل قاطع على صدق رسالته... إذ لا يمكن لبشر عاش في ذلك الزمان أن يعلم ما في الغيب إلاّ أن يوحى إليه. وكل ما يتعلق بالحجر الصحي كان غيباً من الغيوب التي أظهرها الله إلى عالم الشهادة في القرن العشرين... وإخبار النبيّ صلوات الله عليه بذلك معجزة لا ريب فيها.

الإمام الغزالي يتحدث عن حامل الميكروب ويسبق عصره:

وقد حاول علماء الإسلام الأجلاّء أن يشرحوا هذه الحقائق البعيدة التي لا تزال في طيّ الغيب وأن يصلوا إلى هذه القمة السامقة التي وصلتها

(١) راجع كتاب الطب من فتح الباري، شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني في الجزء العاشر، ص١٨٨.

التوجيهات النبوية التي لم يكشف عنها إلا اليوم... فأحسنوا الجهد ولكن أنّى لهم أن يصلوا إلى كل هذه الأسرار... ونحن لم نعرف الميكروبات وخصائصها وفترة الحضانة وحامل المرض إلاّ اليوم في القرن العشرين...
ومع ذلك انظر إلى الإمام الغزالي وكأنه يستشفّ من وراء الغيب حقيقة حامل الميكروب وفترة الحضانة، فتعلم أنه يرى بنور النبوّة لا بنور الحقائق العلمية الطبية المعلومة له آنذاك.

يقول الإمام الغزالي: إن الهواء ـ في البلدة المصابة بالوباء ـ لا يضرّ من حيث ملاقاته ظاهر البدن، بل من حيث دوام الاستنشاق فيصل إلى القلب والرّئة فيؤثر في الباطن ولا يظهر على الظاهر إلاّ بعد التأثير في الباطن... **فالخارج من البلد الذي يقع به الوباء لا يخلص غالباً مما استحكم به**... ولذا فهو ينطلق حاملاً معه الميكروب إلى بلاد أخرى فينقل بذلك العدوى إلى غيره من البشر بسبب خروجه من بلدته المصابة بالوباء.

تعليل ابن القيّم للمنع من الخروج من أرض الطاعون:

ويقول الإمام ابن القيّم: وأما نهيه عن الخروج من بلده، ففيه معنيان:

أحدهما: حمل النفوس على الثقة بالله والتوكّل عليه والصبر على أقضيته والرّضا بها.

والثاني: ما قاله الأطباء أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يخرج بدنه من الرطوبات الفضليّة ويقلّل الغذاء ويميل إلى التدبير المجفّف من كل وجه إلاّ الرياضة والحمام، فيجب أن يُحذرا، بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدّعة وتسكين هيجان الأخلاط... ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها إلاّ بحركة شديدة وهي مضرّة جداً.

وهذه نقطة هامة... إذ إن الشخص المعرض للوباء تقلّ مقاومته مع الإجهاد العضلي، فالراحة والإخلاد إلى الهدوء يزيد من مقاومة الجسم للأوبئة والجراثيم... وشدّة الحركة والإجهاد تضعف المقاومة.

ولا يعيب ابن القيم أن يفوته أن خروج الشخص من أرض الوباء، ولو كان يبدو سليماً قد يكون سبباً في انتشار الوباء إلى أصقاع الأرض نتيجة سفره... لأن ذلك لم يعلم إلاّ في القرن العشرين... ويكفي ابن القيم فخراً

أن تنبه إلى حِكَم وأسرارٍ كثيرة عارض بها الأطباء في زمنه، وأثبت الطب الحديث صدق ما ذهب إليه ابن القيّم الإمام الفقيه!

ومع هذا نرى أن ما فات الإمام ابن القيّم في هذه النقطة لم تفت الإمام الغزالي، فذكرها رغم أن الطب في زمنه لم يكن يعلم عنها شيئاً.

الإمام ابن القيم يعلّل أسباب المنع من الدخول إلى أرض الوباء:

واستمع مرّة أخرى إلى الإمام ابن القيّم وهو يلخص أسباب المنع من الدخول إلى أرض الوباء، بعد أن استمعنا إليه وهو يشرح أسباب منع الخروج من أرض الوباء، فيقول: وقد جمع النبيّ ﷺ في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو - أي الوباء - بها، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه، كمال التحرّز منه، فإن في الدخول في الأرض التي هو بها تعريضاً للوباء وموافاة له في محل سلطانه... وإعانة الإنسان على نفسه وهذا مخالف للشرع والعقل، بل تجنّبه الدخول إلى أرضه - أي أرض الوباء - من باب الحِمية التي أرشد الله سبحانه إليها وهي حِمية عن الأمكنة والأهوية المؤذية... وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي وقع بها عدة حِكَم:

الأولى: تجنّب الأسباب المؤذية والبعد منها.

والثانية: الأخذ بالعافية التي هي مادّة المعاش والمعاد.

والثالثة: أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد، فيمرضون.

الرابعة: أن لا يجاوروا المرضى الذين قد مرضوا بذلك، فيحصل لهم بمجاورتهم من جنس أمراضهم.

الخامسة: حمية النفوس عن الطيرة والعدوى، فإنها تتأثّر بهما، فإن الطيرة على من تطيّر بها.

وبالجملة، فالنهي عن الدخول في أرضه، الأمر بالحذر والحمية، والنهي عن التعرّض لأسباب التلف... وفي النهي عن الفرار منه الأمر بالتوكّل والتسليم والتفويض... فالأوّل تأديب وتعليم والثاني تفويض وتسليم. انتهى من الطبّ النبوي.

وهناك العديد العديد من الحكم في هذه الأحاديث.

أجر الشهادة لمن يصبر في الطاعون:

ومن هذه الحكم أن هذه الأحاديث النبوية الشريفة تنزل برداً وسلاماً على المؤمنين الذين أوقعتهم الأقدار في بلدة أصيبت بالوباء، «إذا وقع بأرض فلا تخرجوا فراراً منه»... «والفارُّ من الطاعون كالفارّ من الزحف»... وإلى أين تفرّون؟ أمن الموت تفرّون... فإنه ملاقيكم ولو كنتم في بروج مشيّدة... فالآجال مضروبة محدودة، والوباء والمرض لن يصيب إلاّ من كتب عليه ذلك... ولو لم يكتب عليه لما أصابه... فليطمئن نفساً وليهدأ بالاً... ولا تذهب نفسه حسرات، وليعلم بعد ذلك أنه لو مات مات شهيداً،... «فالمطعون شهيد والمبطون شهيد»، وهو في ذلك كالمجاهد ينتظر إحدى الحسنيين إمّا النصر أو الشهادة... وهو كذلك إما الانتصار على الوباء أو الشهادة... وفي الحديث الآخر: «الطاعون شهادة لكل مسلم»، وكما أن القتال والجهاد تنال به الشهادة، فإن الطاعون كذلك... ولا بدّ من استيفاء شروط الشهادة في كلا الحالتين... فلا بدّ للحصول على درجة الشهادة من القتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله مقبلاً غير مدبر... وكذلك شهادة المطعون لا تنال إلاّ بالصبر والرضى بقضاء الله... وفي الحديث الذي أخرجه البخاري: «فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً يعلم أنه لا يصيبه إلاّ ما كتبه الله له إلاّ كان له مثل أجر الشهيد». وفي رواية أحمد: «فيمكث في بيته»، بدل: «فيمكث في بلده». **ويقول ابن حجر العسقلاني**: قوله (صابراً) أي غير منزعج ولا قلق بل مسلّماً لأمر الله راضياً بقضائه، وهذا قيد في حصول أجر الشهادة لمن يموت بالطاعون، وهو أن يمكث بالمكان الذي يقع به فلا يخرج فراراً منه كما تقدم النهي في الباب صريحاً... وقوله: (يعلم أنه لن يصيبه إلاّ ما كتب الله له) قيد آخر... فلو مكث وهو قلق أو متندّم على عدم الخروج ظانّاً أنه لو خرج لما وقع به أصلاً ورأساً وأنه بإقامته يقع به، فهذا لا يحصل له أجر الشهيد ولو مات بالطاعون. هذا الذي يقتضيه مفهوم هذا الحديث كما اقتضى منطوقه أن من اتّصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد، وإن لم يمت بالطاعون .اهـ. من فتح الباري.

وليتّخذ من الأسباب ما شاء، فإنها لن تنجيه إلاّ بقدر الله... وعليه أن لا يعتمد على الأسباب، وإنما يكون اعتماده وتوكّله وثقته بالله وحده... وليتّخذ الأسباب وسيلة، فإنه مأمور باتّخاذها وسيلة فحسب.

وبهذا تستقيم نفس المؤمن وتطمئن... وتستقيم الحياة فلا تكون قلقاً كلها... ولا ضراماً كلّها... وإنما تكون نفس المؤمن هادئة مطمئنة، فهي تعلم أن ما أصابها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها لم يكن ليصيبها... وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، فعليه تعتمد وتتوكّل وتثق... وتتّخذ الأسباب وهي تعلم أن ليست الأسباب مانعة قدر الله ولكنها تتّخذها لأنها من قدر الله؛ كما قال عمر بن الخطاب لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما عندما قال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ قال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة... نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله...

وذلك هو كمال الإيمان وكمال التوحيد... التوكّل على الله وحده والأخذ بالأسباب لأنها من قدر الله... وهو مأمور باتّخاذها.

تلك هي القمة السامقة التي تجتمع في قلب المؤمن ولا تجتمع لأحد غيره... والفرق بين القمة والسفح هو الفرق بين النور والظلام... والفرق بين الكفر والإيمان...

الرسائل والمصنفات في الطاعون والوباء
في التراث الإسلامي باللغة العربية

كتب الحديث والطاعون:

الغريب حقاً أن أكثر من صنّف في الطاعون والوباء الفقهاء والمحدّثون لا الأطباء، وقد اهتمّ أهل الحديث بصورة خاصة بالطاعون نتيجة لما ورد فيه من أحاديث نبويّة عديدة، ولما يثيره الطاعون من قضايا عقدية دينية هامّة: من أين جاء الوباء؟ وكيف جاء الوباء؟ ولماذا يصاب المؤمنون؟ وهل جزاء المؤمن والكافر والمنافق، وكلهم يصاب بالطاعون واحداً؟ وكيف يمكن أن يكون الطاعون رجزاً وعذاباً لفئة من البشر، ثم يكون رحمة وشهادة لفئة أخرى هم المؤمنون؟ لهذا كله اهتمّ أهل الحديث خاصة بالطاعون.

وقد خصّص **الإمام البخاري في صحيحه** في كتاب **«الطب»** بابين للطاعون، هما: **«باب ما يذكر في الطاعون»**، وباب **«أجر الصابر في الطاعون»**. وفي كتاب **«الحيل»** من صحيحه **«باب ما يكره من الاحتيال من الفرار من الطاعون»**. وبوّب للطاعون أيضاً **في كتاب الفتن، وكتاب التوحيد، وكتاب القدر، وكتاب الأذان، وكتاب الجهاد، وكتاب فضائل المدينة، وكتاب المرضى، وكتاب الدعوات**... وكلها من كتابه العظيم الجامع الصحيح... وعادة البخاري رحمه الله أن يوزع الموضوع الواحد تحت أبواب أو كتب كثيرة حسب موقعها، وقد يكرّر الحديث الواحد في أكثر من موضع للاستدلال به على موضوعين أو أكثر.

أمّا **الإمام مسلم**، فإنه عادة ما يجمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد ويبوّب لها ولا يوزعها مثل الإمام البخاري، ولذا يسهل العثور عليها، ولكنه عند الحاجة يوزعها على أبواب مختلفة من كتابه **«الجامع الصحيح»**، فقد

ذكر الطاعون في كتاب السلام «باب الطاعون والطيرة»، وفي كتاب الحج «باب بيان الشهداء»، وفي كتاب الإمارة، وهكذا.

وقد ذكر أبو داود في سننه أحاديث الطاعون في بابين من كتابه المشهور باسم «سنن أبي داود»، وهما باب «فضل من مات في الطاعون» وباب «الخروج في الطاعون»، وكلاهما من كتاب الجنائز من سننه.

أما الترمذي، فقد ذكر الطاعون في كتاب الجنائز باب «في كراهية الفرار من الطاعون» وكتاب الفتن باب «ما جاء في الدجال لا يدخل المدينة».

وذكر النسائي في سننه أحاديث الطاعون مفرّقة في كتاب الجنائز، وكتاب الجهاد، وكذلك فعل ابن ماجه حيث ذكره في كتاب الجهاد، باب «ما يرجى فيه الشهادة»، وفي كتاب الفتن باب «العقوبات».

وبوّب الإمام مالك في كتابه «الموطأ» للطاعون مرتين: «باب ما جاء في وباء المدينة»، و «باب ما جاء في الطاعون».

وذكر الحاكم في المستدرك طاعون عمواس بالشام عام ١٨هـ، ووفاة الحارث بن هشام في طاعون عمواس (ج٣/ ٢٧٨، ٢٨٢).

وذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد» الطاعون تحت عنوان: باب «في الطاعون وما تحصل به الشهادة» (ج٢/ ٣١٠). وفي جامع الأصول لابن الأثير باب «الطاعون والوباء والفرار منه» (ج٧/ ٥٧٩ وما بعدها)... وفي كتاب «المطالب العالية» للحافظ ابن حجر، باب «الزجر عن الدخول إلى أرض وقع بها الطاعون، والنهي عن الفرار منها».

أما الإمام النووي، فقد ذكر الطاعون في كتابه الأذكار «فصل في الإشارة إلى بعض ما جرى من الطاعون في الإسلام»، بالإضافة إلى ما ذكره في شرحه لصحيح مسلم، وفي تهذيب الأسماء والصفات وفي كتابه «الروضة».

الرسائل المستقلة في الطاعون:

وأول من أفرد الطاعون بمصنف مستقل هو الحافظ ابن أبي الدنيا، المتوفى سنة ٢٨١هـ.

ثم انتشرت الكتب والرسائل عن الطاعون والوباء، وقد استعرض بعضها

الأستاذ أحمد عصام عبد القادر الكاتب في تحقيقه لكتاب **الحافظ ابن حجر العسقلاني** «بذل الماعون في فضل الطاعون» (إصدار دار العاصمة، الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩١م). وقد ذكر قائمة بثلاثة وثلاثين رسالة، كما ذكر السيد عبد اللاه الحبشي في كتابه معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما أُلّف فيها (الدار اليمنية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ثلاثة وعشرين رسالة. ووجدت رسائل أخرى في فهارس المكتبات، وسأحاول هنا ترتيبها زمنياً (حسب المستطاع، لأن بعضها غير مذكور فيها سنة التأليف، وأخرى مجهولة المصنف)، ومن أهمها فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، إصدار مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، إعداد الدكتور رمضان ششن وإشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي... وسأذكر ها هنا الرسائل والمصنّفات باللغة العربية. أمّا ما عداها من اللغات مثل الفارسية والتركية فلن أعرّج عليها.

الأطباء والطاعون:

وقد تحدّث الأطباء أيضاً عن الوباء والطاعون، ولكنّنا لم نجد من الأطباء من يفرد الطاعون بكتاب أو رسالة إلاّ في مراحل متأخّرة، على عكس أهل الحديث والفقه من علماء الإسلام ما عدا رسالة إلياس اليهودي بن إبراهيم الأسباني، له «مجنّة الطاعون والوباء» (غير معروف سنة التأليف أو وفاة المؤلف).

وأكثر كتابات الأطباء كانت حول **الجدري والحصبة**، فقد كتبوا فيهما الرسائل المتعدّدة، وأوّل من فعل ذلك **ثابت بن قرة الصابيء المتوفى سنة ٢٨٨هـ**، ثم تبعه **أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٠٣هـ ـ وقيل سنة ٣١٣هـ ـ**... وتعتبر **رسالة الرازي من أفضل الرسائل في التفريق بين الجدري والحصبة**، وكان هو أول من وصف الفروق بينهما بدقّة. ولذا تمّت ترجمة رسالته إلى اللغات الأوربية وخاصّة اللاتينية، ومنها ترجمت إلى اللغات الأروبية الحيّة. وقد فقد النصّ العربي للرسالة. وقام الأستاذ الدكتور محمود الحاج قاسم من الموصل بالعراق بترجمة الرسالة إلى العربية من النص الانجليزي، وعلّق عليها.

وذكر **الرازي** أنواع الحميات بتفصيل وافٍ في كتابه الممتع **«المنصوري في الطب»**، الذي حقّقه الدكتور حازم البكري الصديقي ونشره معهد المخطوطات العربية، التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في طبعة جميلة مجلّدة ومحقّقة تحقيقاً جيّداً (الكويت ١٩٨٧)، ولكنه لم يذكر الطاعون في الحميّات، وإنما ذكره ـ كما يفعل الأطباء ـ في فصل الأورام والبثور.

وقد عنون الرازي **«للجدري والحصبة والطواعين»**، في كتابه الموسوعي **«الحاوي في الطب»**، في المجلد السابع عشر (صفحة ١ ـ ٣٤)، ولكنه لم يذكر الطواعين في هذا الباب، وإنما اكتفى بذكر الجدري والحصبة والتفريق بينهما... وطريقة الرازي في الحاوي أن ينقل كلام من سَبَقَهُ من الأطبّاء في الموضوع، ثم يعقّب عليه بقوله: (ولي) فيشرح آراءه وما يريد أن يضيفه... وقد قامت دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكّن، في الهند بطبع الحاوي في ٢٤ مجلداً بتحقيق موجز، ونشرته عام ١٩٥٥.

ونرى **ابن سينا في القانون** يتحدّث عن الحميّات في الكتاب الرابع، ويتحدّث عن **الجدري والحصبة**. ولكنه لا يتحدّث عن الطواعين إلاّ في باب «الأورام الحارة والفاسدة من الأورام والبثور»... ولم يزد ما كتبه عن الطاعون عن نصف صفحة، وعلاجه نصف صفحة أخرى (ج٣: ١٩٢٢، ١٩٢٣) ـ بتحقيق إدوار القش ونشر مؤسسة عز الدين، بيروت، ١٩٨٧ ـ.

ووضع الطبيب **أحمد بن أبي الأشعث** المتوفّى سنة ٣٦٥هـ، رسالة عن **«الجدري والحصبة والحميقاء»**. والحميقاء هي الجديري (Chicken Pox)، وتسمّى في السعودية «العنجز»، وفي اليمن «الجديعة».

وقام **الطبيب القيرواني** ـ القيروان في تونس ـ **أحمد بن إبراهيم الجزّار**، المُتوفىٰ سنة ٣٩٥هـ، بوضع رسالة بعنوان **«نعت الأسباب المولّدة للوباء في مصر»**، كما قام **أبو عيسى الجرجاني** المّتوفى سنة ٤٠١هـ، بوضع رسالة في **«الوباء»**.

وتحدّث ابن النفيس **علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي**، المتوفى سنة ٦٨٧هـ، عن الوباء في كتابه **«الموجز في الطب»**، ضمن الباب الثالث الذي جعله في «الأورام والبثور والجذام والوباء والتحرّز منه». وكان ما كتبه عن

الوباء لا يزيد عن صفحة (٣٠٤ ـ ٣٠٥)، تحدّث فيه عن فساد جوهر الهواء، وذلك ناتج عن أسباب سماوية وأسباب أرضية، مع حدوثه غالباً في آخر الصّيف وبداية الخريف. ومن علامات الوباء كثرة الحشرات والفئران وهروب الفأرة من جُحرها. وأمّا معالجته والاحتراز منه، فبتنقية البدن والإقلال من الفاكهة والشراب، والاكتفاء بالمجفّفات والحوامض، والتبخير بما يصلح الهواء، وخاصة الكافور والسُّعْد والصندل والمسك والعود والعنبر، ورشّ البيت بماء الورد، وتقريب الفواكه العَطِرة مثل التفاح والأترج والكمثري، واستخدام الزهور الباردة.

ومعظم كلام الأطباء قد أوجزه ابن النفيس، وهو كلام قليل الفائدة، ولا يقارن بما كتبه أهل الحديث والفقه من تتبّع حالات الطاعون والوباء، ودقّة التفريق بينهما... وكل ذلك عائد إلى كثرة الأحاديث النبويّة الواردة في الطاعون والوباء. واستنباط العلماء ـ الفقهاء والمحدّثون ـ منها مواضيع شَتَّى تشمل الطبّ كما تشمل العقيدة... ومتابعتهم للطواعين الحادثة في الإسلام، ودقّتهم في تسجيلها، ومتابعة تفاصيلها وأخبارها.

التفريق بين الوباء والطاعون:

لهذا نجد أن كتب الحديث وشروحها تفيض في ذكر الطاعون والوباء، وتفرّق بينهما تفريقاً جيداً، في الوقت الذي نجد فيه أساطين الطب مثل ابن سينا لا يستطيعون أن يبلغوا مستواهم.

يقول الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم»:

(وأما الوباء، فقال الخليل وغيره: هو الطاعون، وقال: هو كل مرض عام. والصحيح الذي قاله المحققون: أنه مرض الكثير من الناس، في جهة من الأرض دون سائر الجهات، ويكون مخالفاً للمعتاد من أمراض في الكثرة وغيرها، ويكون مرضهم واحداً بخلاف سائر الأوقات، فإن أمراضهم فيها مختلفة... قالوا: وكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً. والوباء الذي في الشام في زمن عمر كان طاعوناً، وهو طاعون عمواس، وهي قرية معروفة بالشام).

ولن تجد تعريفاً أدق من هذا التعريف للوباء إلى اليوم.

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله في «الطب النبوي»:

(والتحقيق أن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً... وكذلك الأمراض العامة أعمّ من الطاعون، فإنه واحد منها).

ويقول الإمام ابن حجر في «فتح الباري شرح صحيح البخاري»:

(والدليل على أن الطاعون يغاير الوباء ما سيأتي في رابع أحاديث الباب، «أن الطاعون لا يدخل المدينة»، وقد سبق في حديث عائشة رضي الله عنها: «قدمنا إلى المدينة وهي أوبأ أرض الله»... وفيه قول بلال (أخرجونا إلى أرض الوباء)، فكل ذلك يدلّ على أن الوباء كان موجوداً بالمدينة... وقد صرّح الحديث الأوّل أن الطاعون لا يدخلها، فدَلَّ على أن الوباء غير الطاعون، وأن من أطلق على كل وباء طاعوناً فبطريق المجاز).

ابن سينا لم يحسن التفريق بين الوباء والطاعون:

أمّا شيخ الأطباء وأعظمهم قاطبة في تاريخ الإسلام، وهو الشيخ الرئيس ابن سينا، فلم يستطع أن يفهم ما فهمه الفقهاء والمحدّثون من أمثال النووي وابن القيّم وابن حجر العسقلاني، بل اضطرب مفهومه اضطراباً شديداً، ولم يستطع التمييز بين الوباء والطاعون، فقال في «القانون»: **(والطواعين تكثر عند الوباء في البلاد الوبئية، ومن ثمَّ أُطلق على الطاعون وباء وبالعكس)**، وهو كلام غير دقيق، بل خطأ فاضح من شيخ الأطباء بحيث لم يصل إلى ما وصل إليه علماء الحديث.

وقد تتبّعت في كتابي «العدوى بين الطب وحديث المصطفى»، نقاط الخلاف بين علماء الدين وعلماء الطب، وكيف أن علماء الدين بلغوا من الدقّة العلمية الفائقة ما يعتبر إعجازاً إلى اليوم، عندما نظروا إلى سبب الطاعون، وإلى الطاعون الغددي، والرئوي، وكيف ينتقل الرئوي بالنفث وملاقاة الهواء، كما أوضحه الغزالي في الأحياء، بينما كان الأطباء لا يفرّقون بين مختلف الطواعين، كما أنهم أرجعوا سببها وسبب جميع الأوبئة إلى فساد الهواء!!! وفساد الهواء يرجع إلى النجوم والفصول وتغيّر في البيئة الأرضية.

الرسائل المستقلة في الطاعون والوباء:

وإليك ذكر الرسائل والمصنّفات المستقلة في الطاعون والوباء مرتّبة قدر الإمكان حسب وفاة مصنفيها، وقد كتب أغلبها علماء الحديث والفقه... ولم نأتِ على ذكر ما كتبوه في كتب شرح الحديث أو الفقه أو كتب الطب النبويّ، لأنها فصول من كتبهم، وإن كان بعضها في غاية الأهمية. إلاّ أننا قد نذكرها عند الحديث عن أسباب الطاعون وأعراضه وأنواعه.

١ ـ **الحافظ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا... وفاته سنة ٢٨١هـ، له كتاب «الطواعين»**، ذكره ابن النديم في الفهرست (ص٢٦٢)، والبغدادي في الهداية (ج١/ ٤٤٢)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (ج١٣/ ٤٠٢)...

وهو من مصادر كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني «بذل الماعون في فضل الطاعون». ويبدو أن الكتاب مفقود إذ لم أجده في فهارس المخطوطات التي لديّ.

٢ ـ **أحمد بن إبراهيم الجزار القيرواني الطبيب التونسي المشهور، المتوفى سنة ٣٩٥هـ**، له رسالة **«نعت الأسباب المولّدة للوباء في مصر»**. ذكر ذلك الدكتور عادل البكري في بحثه المقدم إلى ندوة «الطب والصيدلة في المغرب العربي»، مركز إحياء التراث، بغداد في ٦/ ٥/ ١٩٩٠، ولكنه لم يذكر أين يوجد المخطوط؟ وما هي الفهارس والمعاجم التي ذكرته ووثّقته؟ وعنوان بحث البكري هو «حمدان بن عثمان وكتابه إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء».

٣ ـ **أبو عيسى الجرجاني، المتوفى سنة ٤٠١هـ**: له رسالة **«الوباء»**، ذكره أيضاً الدكتور عادل البكري في البحث أعلاه، ولم يذكر مصادره ولا أين يوجد المخطوط؟

٤ ـ **أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري، المتوفى سنة ٧٧١هـ**، له رسالة **«تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد»**[1]، تحدث فيه عن الطاعون

(١) توجد من المخطوط نسخة في مكتبة الإسكوريال بمدريد (إسبانيا) برقم ١٧٨٥ في ٥٧ ورقة، مكتوبة بخط مغربي معتاد كما يقول الأستاذ محمد العربي الخطابي في كتابه الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨ ج٢/ ١٥٢ ـ ١٥٩. والكتاب في عشر مسائل وهي:

الذي اجتاح الأندلس والمغرب عام ٧٤٩هـ ذكره الدكتور عادل البكري في بحثه المقدم إلى ندوة «الطب والصيدلة في المغرب العربي»، مركز إحياء التراث، بغداد في ٦/٥/١٩٩٠، بعنوان: «حمدان بن عثمان وكتابه إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء».

٥ ـ **الإمام السبكي**: تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (أبو نصر)، قاضي القضاة المتوفى سنة ٧٧١هـ، وقد ذكر أحمد عصام الكاتب في مقدّمته لكتاب الحافظ ابن حجر «بذل الماعون في فضل الطاعون»، أنه من مراجع كتاب ابن حجر وذكره في الكشف عرضاً فقال: (وصنَّف الشيخ تاج الدين السبكي جزءاً ـ أي في الطاعون ـ)، وقد مات الإمام السبكي بالطاعون حيث ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته أنه مات في سابع ذي الحجة سنة ٧٧١هـ. . . خطب يوم الجمعة، فطُعن ليلة السبت، رابعه، ومات ليلة الثلاثاء. وقد نقلت ما كتبه السبكي في طاعون سنة ٧٤٩هـ، وطاعون سنة ٧٦٠ كما جاءت في مخطوطة ليدن «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للسيوطي، وشرحت غوامض ألفاظها.

ولم أجد في الفهارس أي ذكر مستقل لهذا المخطوط، بل إن معجم المؤلفين والهدية والدرر الكامنة وغيرها لم تذكره.

٦ ـ **الديباجي**: **ولي الدين محمد بن أحمد بن عثمان الديباجي المِلَّوي** (أبو عبد الله)، المتوفى سنة ٧٧٤هـ، له كتاب **«حلّ الحُباء لارتفاع الوباء»** ـ والحبوة ما يحتبي بها الإنسان حيث يلفّها من الظهر إلى الركبتين أثناء الجلوس ـ، ذكره البغدادي في الهدية (ج٢/ ١٦٦، والإيضاح ج١/ ٤١٦)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج٨/ ٢٨٩)، وهو من مصادر ابن حجر العسقلاني. وذكره الحبشي في معجم الموضوعات المطروقة، ولم أجد في الفهارس الأخرى أي ذكر لهذا المخطوط أيضاً.

٧ ـ **ابن أبي حجلة**: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر **بن أبي**

= ١ ـ حقيقة وباء الطاعون. ٢ ـ في أسباب الوباء القريبة والبعيدة. ٣ ـ ما باله خصَّ قوماً دون آخرين على قرب الجوار. ٤ ـ ما ظهر من عدواه. ٥ ـ كيفية التحفظ والاحتراز منه. ٦ ـ ما علاجه إذا نزل؟ ٧ ـ ما جاء عن الشرع فيه. ٨ ـ ما معنى حديث النهي عن القدوم على أرضه أو الخروج عنها. ٩ ـ ما معنى قوله عليه السلام: «لا عدوى ولا طِيَرة»؟ ١٠ ـ كيف الجمع بين الحديثين؟.

وهي كلها مباحث هامة. وقد أكد ابن خاتمة على العدوى في الطاعون، وتحدث عن الطاعون الدبلي (الغددي) والرئوي والدموي باقتدار وبراعة.

حجلة التلمساني (أبو العباس)، المتوفى سنة ٧٧٦هـ. . . له كتاب **«الطب المسنون في دفع الطاعون»**.

ذكره البغدادي في الهداية (ج١/١١٣) والإيضاح (ج٢/٧٨)، وذكره الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون». . . وكان ابن أبي حجلة ممن توفي بالطاعون (الأعلام للزركلي ج١/٢٦٨، ٢٦٩)، وذكره أيضاً صاحب ذيل كشف الظنون.

وقد نقل عنه الإمام ابن حجر العسقلاني نقولات كثيرة في كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون»، كما نقل عنه الإمام السيوطي في كتابه «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون». وقد أثبتُّ ما كتبه ابن أبي حجلة نقلاً عن كتاب ابن حجر العسقلاني «بذل الماعون في فضل الطاعون»، ولم يثبتها السيوطي في كتابه «ما رواه الواعون»، وجعلتها في نهاية كتاب السيوطي. وهي في طاعون عام ٧٤٩هـ.

٨ ـ **السُّرَّمَرِّي**: أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود العبادي العقيلي، جمال الدين صاحب كتاب **«شفاء الآلام في طبّ الإسلام»**، المتوفى سنة ٧٧٦هـ، له رسالة بعنوان **«ذكر الوباء والطاعون»**.

ذكر أحمد عصام الكاتب في مقدّمته لكتاب ابن حجر «بذل الماعون في فضل الطاعون»، أن الكتاب موجود في مكتبة شستربتي (في إيرلنده) تحت رقم ٤٣٠٧ في ١٥ ورقة، وقد كتب المخطوط في القرن العاشر.

وأمّا كتاب «شفاء الآلام في طب الإسلام»، فموجود في مكتبات عدة منها نسخة في مكتبة الأحقاف بتريم في ٣٠٧ ورقة، نسخت سنة ١١٨٩هـ. وعنها صورة في معهد المخطوطات بالكويت، وعندي منها صورة أيضاً. وأخرى في سزكين برقم ٣١٥٠.

وذكر فهرس مخطوطات الطب الإسلامي إعداد د.رمضان ششن وإشراف الدكتور أكمل الدين أوغلي أنه توجد منه ثلاث نسخ بمكتبات تركيا.

أ ـ مكتبة سمسون برقم ٤٩٣ (٢٧٧٧) في ٣٧١ ورقة بخط نسخ كتبه إبراهيم بن عمر التستري في ١٠ صفر ٧٨١هـ، وهي أقدم النسخ.

ب ـ مكتبة الفاتح رقم ٣٥٨٤ في ٥٠٥ ورقة بخط نسخ، تمّ الفراغ من كتابته في ٢٨ شوّال سنة ٨٤٧هـ.

جـ ـ مكتبة داماد إبراهيم باشا رقم ٩٣٤ في ٤٨٥ ورقة بخط نسخ.

ويوجد المخطوط أيضاً في مكتبة شستربتي (إيرلنده) برقم ٤٥٨٦.

٩ ـ **أبو عبد الله محمد بن علي اللحمي الشقوي (الأندلسي)**: له رسالة في طاعون عام ٧٤٩هـ سماها «تحقيق النبا عن أمر الوباء» قال عنها محمد العربي الخطابي في كتابه الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية: لعلها من الآثار المفقودة، ولم يبقَ منها إلا خمس ورقات مخطوطة في مكتبة الأسكوريال، تحدّث فيها عن سبب هذا الوباء، وهو فساد الهواء، ثم وصف بعض أعراضه وكيفية توقّيه وجعلها بعنوان النصيحة.

١٠ ـ **الشيخ زين الدين عمر بن مظفر بن الوردي، صاحب «المقامة الوردية»**: كتب مقامة أدبية مطوّلة عن الطاعون العام، وهو طاعون عام ٧٤٩هـ، الذي طبّق الأرض من مشرقها إلى مغربها، ووصل إلى الصين شرقاً وأوربا غرباً... وهو ثاني وباء عالمي للطاعون. وقد ابتدأ عام ٧٤٧هـ ـ ١٣٤٧م، في فرنسا ومنها انتقل إلى دول أوربا والأندلس وبلاد المغرب، ثم زحف على مصر والإمبراطورية البيزنطية وسوريا والعراق واجتاح الأرض المعمورة... ومات فيه نصف سكان المعمورة.

وقد نقلت هذه المقامة بكاملها كما جاءت في كتاب الإمام السيوطي «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وقمت بشرح غوامض ألفاظها والأماكن التي ذكرها.

١١ ـ **صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي**: له رسالة في طاعون سنة ٧٤٩هـ، وهي ردّ على رسالة السبكي إليه في هذا الطاعون. وكان السبكي قد وصف له الطاعون وما فعله بمصر فردّ عليه الصفدي بما فعله الطاعون في فلسطين وأرض الشام... واعتمد الأسلوب الأدبي القديم مع السجع والنظم السقيم... ورسالة الصفدي أيضاً ملحقة بمخطوطة ليدن، من كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للسيوطي... وقد حاولت عبثاً فكّ بعض رموزها، ولهذا لم أثبتها بالإضافة إلى وجود كلمات غير مقروءة.

١٢ ـ **لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني، المعروف بابن الخطيب، ذو الوزارتين الأندلسي سنة ٧٧٦هـ**، له كتاب **«مقنعة السائل عن المرض الهائل»**[1]،

---

(١) نقل فصلاً من هذه الرسالة الأستاذ محمد العربي الخطابي في كتابه «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية» ج٢/ ١٨٧ ـ ١٨٨ وتحدّث بشيء من التفصيل عن كتابه الآخر «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» وأثبت في رسالته عن الطاعون العدوي، وأن ذلك لا يخالف الحديث الصحيح في نفي العَدْوى، لأن العرب في الجاهلية كانت تعتقد أن العدوى بذاتها لا من قَدَر الله، فجاء الحديث ليثبت العدوى ولكن لا بذاتها، بل هي بأمر الله سبحانه وتعالى مسبِّب الأسباب.

وهو طاعون عام ٧٤٩هـ المهول الذي طبّق الأرض بأكملها. وتوجد من المخطوط نسخة في مكتبة الإسكوريال بمدريد برقم ١٧٨٥.

١٣ ـ **المنبجي: شمس الدين محمد بن محمد بن محمود المنبجي (أبو عبد الله) الحنبلي المتوفى سنة ٧٨٥هـ** له كتاب **«ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»**، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ص٨٧٦، ١٥٧٤)، وقال: (ألفه لمّا رأى في طاعون سنة ٧٦٤ حدوث بدعة، وهي أدعية مروية عن النبيّ عليه الصّلاة والسّلام في الرؤيا)، وذكره رضا كحالة في معجم المؤلفين (ج١١/ ٢٩٥). وقال الزركلي في الأعلام (٧/ ٤١، ٤٢): (له كتاب **«تسلية أهل المصائب في موت الأولاد والأقارب»**... وقال: لعلّه الذي أشار إليه ابن قاضي شهبة بقوله: **(وله مصنف في الطاعون الواقع سنة أربع وستين وسبعمائة)**... قال: وهو يدلُّ على حفظ وفضل، وفيه فوائد كثيرة). وتوجد نسخة خطيّة منه في مكتبة حليم بالقاهرة برقم ١٦.

وهو من مصادر كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني في «بذل الماعون في فضل الطاعون».

١٤ ـ **الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي، الشافعي**، أبو عبد الله المتوفى سنة ٧٩٤هـ، **له جزء في الطاعون**، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٨٧٦)، وهو من مصادر كتاب الحافظ ابن حجر العسقلاني بذل الماعون في فضل الطاعون.

١٥ ـ **الحافظ ابن حجر العسقلاني: أحمد بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢هـ**، له كتاب **«بذل الماعون في فضل الطاعون»**، حقّقه وعلّق عليه ووضع له مقدّمة ضافية الأستاذ أحمد عصام عبد القادر الكاتب، ونشرته دار العاصمة، الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ويوجد من الكتاب نسخ عديدة مخطوطة ذكر المحقّق أربع نسخ حصل عليها، هي:

أ ـ نسخة مكتبة الأوقاف الشرقية بحلب برقم ١٢٥٨، وهي ١١٤ ورقة بخط نسخ، بخط محمد بن إبراهيم الأنصاري، تمّ نسخها سنة ٨٦٤هـ في الثالث من ذي الحجّة. وهي أفضل النسخ التي حصل عليها المحقّق وجعلها أصلاً.

ب ـ نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق برقم ٣١٥٨ في ١٠٧ ورقة بخط نسخ، فرغ منها ناسخها محمد بن محمد بن بهادر المؤمني الشافعي في رجب سنة ٨٧٤هـ.

جـ ـ نسخة المكتبة العثمانية بحلب برقم (٢٦/ ملحق) في ٧١ ورقة بخط نسخ، بقلم محمد بن ناصر الدين الشفّوني، سنة ١٠٦٦.

د ـ نسخة مكتبة أيا صوفيا بالسليمانية برقم ٨٨٠ في ١٥٤ ورقة بخط نسخ جيّد، نسخها الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن بدر الدين بن علي الحسني المصري الشافعي، وفرغ من نسخها في ١٣ ربيع الآخر سنة ٨٥٢هـ. وهي أقدم النسخ وتمّ نسخها قبل وفاة الحافظ ابن حجر بثمانية أشهر تقريباً.

وذكر المحقّق نُسخاً أخرى لم يقف عليها: نسختان في التيمورية (دار الكتب المصرية) برقم ١٩٨ ورقم ٢١٣ مجاميع. ونسخة في مكتبة أسعد أفندي/٨، وأخرى في عاشر أفندى/ ١٨٠، وأخرى في كتبخانة أيا صوفيا وغيرها في كوبريللي/١٦ وكلّها في تركيا. ونسخة بمكتبة الحرم المدني، وأخرى في جامعة لندن برقم ١٣٩٩٨، ونسخة في مكتبة ليدن بهولنده.

العلماء الذين اختصروا كتاب ابن حجر في الطاعون:

وقد اختصر كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني مجموعة من العلماء، وأضافوا إليه ما حدث في الطواعين بعد زمان ابن حجر، وبعض تعليقاتهم، وما يروونه من آراء خاصة، نذكر منهم الإمام **زكريا الأنصاري** وسمّاه: «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين» والإمام **المناوي** المتوفى سنة ٧٨١هـ، **والسيوطي** المتوفى ٩١١هـ، وسمّاه: «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وهو الكتاب الذي نحن بصدده. كما توجد نسخة في المكتبة البلدية بالإسكندرية بعنوان «خلاصة ما رواه الواعون من الأخبار الواردة في الطاعون»، سرد فيه حوادث الطاعون إلى سنة ٨٤٨هـ، ثم أكمله بعض العلماء إلى سنة ١٠٥٣هـ. ذكر ذلك الدكتور شاكر عبد المنعم في رسالته للدكتوراه: ابن حجر العسقلاني: «مصنّفاته ومنهجه وموارده في كتاب الإصابة»، طبع دار الرسالة بغداد سنة ١٩٧٨م.

وقد وضع الإمام ابن حجر كتابه على فترتين الأولى عام ٨١٩هـ، عندما توفّت ابنتاه فاطمة وعالية في الطاعون الذي حدث ذلك العام. وترك ابن حجر الرسالة ولم يتمّها إلاّ بعد وفاة ابنته الكبرى زين خاتون بالطاعون سنة ٨٣٣هـ وهي حامل، فحَمَله ذلك على إتمام رسالته، مع ما توجّب عليه للرد على بدعة الخروج إلى الصحراء بعد صيام ثلاثة أيام كما في الاستسقاء، بالأضافة إلى طلب بعض الإخوان.

وقد قسّم ابن حجر كتابه إلى خمسة أبواب، هي: (١) مبدأ الطاعون، (٢) التعريف بالطاعون، (٣) في كونه شهادة، (٤) في حكم الخروج من البلد الذي يقع بها الطاعون والدخول إليها، (٥) فيما يشرع فعله بعد وقوعه.

ولكل باب مجموعة من الفصول، ويعتبر الكتاب ثروة في الأحاديث النبوية الواردة في الطاعون، وقد أفاض الحافظ في شرحها وتبيينها. ثم ختم الكتاب بذكر الطواعين التي وقعت في الإسلام، ونبذة مما قيل فيها إلى زمنه.

١٦ ـ الشيخ زين الدين **عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن داود الدمشقي الصالحي الحنبلي**، أبو الفرج المتوفى سنة ٨٥٦هـ، له كتاب **«تسلية الواجم في الطاعون الهاجم»**. ذكره البغدادي في هدية العارفين (ج١/ ٥٣١)، وفي الإيضاح (ج١/ ٢٨٧)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج٥/ ١٢٨).

١٧ ـ **عبد الرحمٰن بن محمد بن علي بن أحمد الأنطاكي** الحنفي المتوفى سنة ٨٥٨هـ، نزيل بروسه في تركيا، له كتاب **«وصف الدواء في كشف آفات الوباء»**، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (ص٢٠١٣)، والبغدادي في الهدية (ج١/ ٥٣١، ٥٣٢).

١٨ ـ **الحدّادي (المناوي): شرف الدين يحيى بن محمد بن محمد الحدادي المناوي المصري الشافعي (أبو زكريا)** من تلاميذ الحافظ ابن حجر، **وكانت وفاته سنة ٨٧١هـ**، قام باختصار كتاب شيخه وسمّاه **«مختصر بذل الماعون»**.

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢٣٧)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج١٣/ ٢٢٧).

١٩ ـ **عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرحمٰن التونسي المتوفى سنة ٨٩٩هـ**، له كتاب: **«الطب في تدبير المسافرين ومرضى الطاعون»**، ويوجد من المخطوط نسخة في مكتبة أيا صوفيا برقم ٤٨١٤/ ٤ بخط نسخ بخط المؤلف، فرغ من كتابته في ٢٧ محرم ٨٩٩هـ.

٢٠ ـ **ابن المِبْرد: جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي الصالحي**، الحنبلي المتوفى سنة ٩٠٩هـ، له كتاب: **«فنون المنون في الوباء والطاعون»**.

يوجد المخطوط في مكتبة الفاتح بتركيا برقم ٣٥٩١ في ١١٣ ورقة.

وقد ذكره المصنف أيضاً في فهرست مؤلفاته، (دراسة عن ابن المبرد أعدّها صلاح الخيمي، مجلة معهد المخطوطات مجلد ٢٦/ ٧٨٤)، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، والبغدادي في الهداية.

٢١ ـ وله أيضاً **«كتاب الطواعين»**، ذكره في فهرست مؤلّفاته. وذكره

البغدادي في الهداية (ج٢/٥٦١)، والظاهر أنه كتاب مستقل عن «فنون المتون في الوباء والطاعون».

٢٢ ـ **الإمام جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ**: له «**ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**»، وهو اختصار لكتاب الإمام ابن حجر «بذل الماعون في فضل الطاعون» مع إضافات كثيرة، وإضافة مقامة ابن الوردي ومقامة السيوطي، وهي المقامة الدرية التي وضعها السيوطي في طاعون عام ٨٩٧هـ، وفيها تتجلى مقدرته اللغوية والفقهية والنحوية والأصولية والحديثية، فقد تحدث بلسان هؤلاء جميعاً عن الطاعون وما يفعله، كما سرد الطواعين الحادثة في الإسلام إلى زمنه.

ويوجد الكتاب في العديد من المكتبات مخطوطاً، نذكر منها:

١ ـ دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم ١٦٥ حديث تيمور.

٢ ـ مكتبة قسطموني بتركيا برقم ٢/١١٤٤، في مجموع من صفحة ١٠٣ إلى ١١٥ بخط نسخ كتبه حسن الأجهوري في شهر ذي الحجة سنة ٩٨٢هـ.

٣ ـ مكتبة أيا صوفيا بتركيا برقم ٧/٤٣٩٦ في مجموع من صفحة ٨٥أ إلى ١٣١ب، بخط نسخ كتبت المخطوطة في القرن الحادي عشر الهجري.

٤ ـ مكتبة رئيس الكتاب بتركيا برقم ٦/١١٥٠ في مجموع من صفحة ٥٢أ إلى ٨٢أ بخط نسخ، كتبت المخطوطة في القرن الحادي عشر الهجري.

٥ ـ مكتبة جامعة ليدن بهولنده ضمن مجموع رقم ٤٥٥ مخطوطات شرقية من ورقة ٨٠ب إلى ١٦٠ب.

٦ ـ قام المستشرق الألماني فون كريمر بترجمة كتاب السيوطي إلى الألمانية وخاصة «سرد الطواعين الواقعة في الإسلام»، وفيه ذكر الطواعين في الإسلام منذ عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى طاعون عام ٨٩٧ زمن المؤلف.

٧ ـ المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٥٨٩٦.

٨ ـ المكتبة الصديقية بحلب برقم ١٣٨.

٩ ـ مكتبة يحيى باشا بالموصل برقم ٢٥٦ سير، ق ٧٠ ـ ١٠٣.

١٠ ـ جامعة برنستون بالولايات المتحدة، مخطوطات الشرق الأوسط، مكتبة فايرستون.

وقد أضاف السيوطي إلى كتاب ابن حجر بعد اختصاره تعليقات كثيرة، وما حدث من طواعين وقعت بعد زمن ابن حجر. وأضاف إلى الكتاب: مقامة ابن الوردي في الطاعون، ورسالة السبكي إلى الصفدي، ورسالة الصفدي إلى السبكي في طاعون ٧٤٩هـ. **والمقامة الدرية** للسيوطي في طاعون ٨٩٧هـ، **وتعتبر المقامة الدرية رسالة مستقلة في الطاعون**.

٢٣ ـ مصلح الدين مصطفى بن أوحد الدين **اليار حصاري**، القاضي الحنفي المتوفى سنة ٩١١هـ، له **«رسالة الوباء وجواز الفرار منه»**.

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٨٩٧)، والبغدادي في هدية العارفين (ج٢/ ٤٣٣)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج٢/ ٢٤٣).

٢٤ ـ شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري، المتوفى سنة ٩٢٦هـ، **«تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين»**.

يوجد المخطوط في مكتبة أسعد أفندي بتركيا برقم ٣٥٦٧/٥ بخط نسخ، بقياس ١٤,٧ × ٢٠,٢ سم. كتبت المخطوطة سنة ٩٨٩هـ.

وهو مختصر لكتاب «بذل الماعون في فضل الطاعون»، مع إضافات ما حدث من طواعين بعد وفاة الإمام ابن حجر إلى عهد شيخ الإسلام زكريا الأنصاري.

وقد ذكر الأستاذ أحمد عصام عبد القادر الكاتب في مقدّمته لكتاب «بذل الماعون في فضل الطاعون» لابن حجر العسقلاني أن الدكتور شاكر في كتابه عن ابن حجر العسقلاني ذكر أن هناك نسخاً من كتاب شيخ الإسلام زكريا الأنصاري «تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين» في دار الكتب المصرية (تيمور رقم ١٤١ ورقم ٥٧٠ ورقم ٣٤).

٢٥ ـ إدريس بن حسام الدين علي البدليسي المتوفى سنة ٩٣٠هـ، وقيل سنة ٩٢٧هـ، له رسالة **الإباء عن مواقع الوباء**، ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون (٨٤٠، ٨٤١)، وقال: ذكر فيها أنه توجّه من القسطنطينية إلى نحو الاسكندرية في ٩١٧هـ من البحر. وحجَّ ثم عاد امتثالاً لأمر السلطان سليم، ولما دخل الشام سمع أن بمصر نازلة الوباء فامتنع من الدخول إليها، وركب إلى اسلامبول (القسطنطينية) من البحر، فأنكر عليه جمع من العلماء بدمشق وحلب، فكتبها.

٢٦ ـ وذكرها في كشف الظنون ثانية بعنوان «**رسالة في الطاعون وجواز الفرار عنه**» (الكشف ص٨٧٦). والظاهر أنها نفس رسالة الإباء عن مواقع الوباء، حيث يبدو أن موضوعهما واحد وهو الفرار من الطاعون وعدم الدخول إليه في البلد التي يكون فيها، **وربما كانت رسالة ثانية**.

وذكر البغدادي في هدية العارفين (ج١/١٩٦) اسم الرسالة بعنوان: «**رسالة الأدباء عن مواقع الوباء وجواز الفرار عنه**». أما رضا كحالة فقد أوردها في معجم المؤلفين (ج٢/٢١٧)، بعنوان: «**الإباء عن مواقع الوباء**»، مثل كشف الظنون.

٢٧ ـ شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي المتوفى سنة ٩٤٠هـ، له رسالة «**راحة الأرواح في دفع عاهة الأشباح**»، ذكرها حاجي خليفة في كشف الظنون (ص٨٢٩)، وقال عنها: (رسالة مختصرة في أمر الطاعون... رتّبها على مقدمة وأبواب). وذكرها البغدادي في هدية العارفين (ج١/١٤١)، وذكرها عبد اللاه الحبشي تحت باب الطاعون والوباء في كتابه «معجم الموضوعات المطروقة».

وجاء في فهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا، إصدار مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة الإسلامية باستانبول ١٩٨٤، وإعداد د. رمضان ششن: له عدّة مؤلفات منها رسالة في طبيعة الأفيون، وتوجد منها عدة نسخ في مكتبات تركيا، و «فوائد طبية» باللغات التركية، وطب رسالة سي باللغة التركية، **ورسالة في الطاعون**، وتوجد منه نسختان، الأولى: في مكتبة عاطف أفندي رقم ١٩/٢٨٠٢ بخط تعليق وبمقياس ١٢,٥ سم × ١٧,٥سم. والثانية: في مكتبة المالي برقم ٣/٧٢ بخط نسخ ومقياس ١٥,٥ × ٢١ سم، ويبدو أن رسالة «راحة الأرواح في دفع عاهة الأشباح» و «رسالة في الطاعون»، شيء واحد لأن موضوعهما واحد، وربما كانتا رسالتين مستقلّتين.

٢٨ ـ شمس الدين محمد بن علي بن محمد بن طولون الصالحي الدمشقي الحنفي، أبو عبد الله المتوفى سنة ٩٥٣هـ، له **تحفة النجباء بأحكام الطاعون والوباء**.

ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٣٧٦)، والبغدادي في هدية العارفين (ج٢/ ٢٤٠)، وهو مذكور أيضاً في مقدمة كتاب «المنهل الروي في الطب النبوي» لابن طولون، طبع حيدر أباد الهند ١٩٨٧، وتعليق عزيز بك. وكتاب المنهل الروي منقول عن كتاب «المنهج السوي والمنهل الروي» للسيوطي مع إضافات بسيطة جداً.

وقد ذكر رسالة «تحفة النجباء بأحكام الطاعون والوباء» أيضاً السيد عبد اللاه الحبشي في كتابه «معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما أُلِّفَ منها»، إصدار الدار اليمنية للنشر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٢٩ ـ الطرابلسي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن **الحسيني الطرابلسي**، المالكي، أبو عبد الله المعروف **بحطّاب الرعيني**، المتوفى سنة ٩٥٤هـ.

له **«البشارة الهيّنة بأن الطاعون لا يدخل مكة والمدينة»**، ذكره البغدادي في هدية العارفين (ج٢/ ٢٤٢) والإيضاح (ج١/ ١٨٣). وذكر البغدادي أن له كتاباً آخر بعنوان:

٣٠ ـ «القول المبين في أن الطاعون لا يدخل البلد الأمين» الإيضاح (٢/ ٢٥٢) والهدية (٢/ ٢٤٢). . . ويحتاج الأمر إلى مقارنة النسختين إن وجدتا، فلعلّهما كتاب واحد لأن موضوعهما واحد، وقد ذكره أيضاً الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة».

٣١ ـ وله أيضاً **«عمدة الراوين في أحكام الطواعين»**، ذكره البغدادي في الإيضاح (ج٢/ ١٢١)، والهدية (ج٢/ ٢٤٢)، وذكره أيضاً عبد اللاه الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي».

٣٢ ـ طاشكبري زاده: عصام الدين أحمد بن مصطفى بن خليل الرومي، الحنفي، المعروف بطاشكبري زاده، أبو الخير، المتوفى سنة ٩٦٨هـ، له رسالة **«الشفاء في أدوية الوباء»**، وذكرت بعنوان: **«رسالة الشفاء لأدواء الوباء»**.

ذكرها في كشف الظنون الحاجي خليفة (ص٨٧٤)، وبيّن أبوابها وفصولها، والبغدادي في هدية العارفين (ج١/ ١٤٣، ١٤٤)، والزركلي في الأعلام (ج١/ ٢٥٧)، وذكر أنها قد طبعت كما ذكرها عبد اللاّه الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة».

وفي كتاب «فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا» (ص٢٨٠ ـ ٢٨٢) أن المخطوط موجود في مكتبات تركيا، وقد ذكر منها ١٥ نسخة باللغة العربية وأربع نسخ مترجمة إلى اللغة التركية، وقد ذكرها بالعنوان التالي: **«رسالة الشفاء لأدواء الوباء المسمّى ببذل الماعون في جواز الخروج عن الطاعون»**، وهو موجود في المكتبات التالية:

ـ مكتبة قسطموني برقم ٢٠٢٣ في ١٠٨ ورقة كتبت سنة ٩٦١هـ، في حياة المصنف.

ـ مكتبة لاله لي برقم ١٦٢٦/١، نسخت سنة ٩٧٢هـ، (بعد أربع سنوات من وفاة المصنف).

ـ مكتبة حميديه برقم ٣/٥٣٣، نسخت منه ١١٢٤هـ.

ـ مكتبة عاشر أفندي برقم ١/٢٧٥، كتبه مسعود بن إبراهيم سنة ١١٨٤هـ.

ـ مكتبة شهيد علي ٢٧٩٩.

٣٣ ـ وللمصنف أيضاً: **«رسالة في بيان الطاعون»**، ويوجد منها ثلاث نسخ في مكتبة ولي الدين أفندي بتركيا، وهي بالأرقام التالية: ٢/٢٥١٤، ٢/٢٥١٥، ٢/٢٥١٦.

٣٤ ـ ابن نجيم: الشيخ زين الدين بن إبراهيم بن محمد بن محمد المصري، الحنفي المشهور بابن نجيم المتوفى سنة ٩٧٠هـ. قال أحمد عصام عبد القادر الكاتب في مقدمة كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون أنه وقف على نسخة منها في مكتبة الأحمدية، بحلب في مجموع برقم ٣٦١، بعنوان: **«رسالة في الطاعون ووصفه» لابن نجيم.**

٣٥ ـ زين العابدين بن إبراهيم المصري، المتوفى سنة ٩٧٠هـ، له رسالة «الطعن والطاعون وبيانهما»، توجد منه نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

٣٦ ـ المقدسي الكرمي: **الشيخ مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي الحنبلي المتوفى سنة ١٠٣٣هـ**، له رسالة: **«ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شرّ الطاعون»**، ذكره البغدادي في هدية العارفين (ج٢/٤٢٧)، والإيضاح

(ج٢/ ٤٢١)، وذكره الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة»، بعنوان: «ما يفعله الواعون لدفع شر الطاعون». ونقل ذلك عن ذيل كشف الظنون، وذكر الحبشي أيضاً رسالة **«السر المصون في أخبار الطاعون»**، وقال أنها للمقدسي. وهل الشيخ مرعي الكرمي المقدسي هو المقصود أم غيره؟ لم يوضح ذلك الحبشي؛ إذ إنه يذكر اللقب فقط دون ذكر الاسم كاملاً، ودون ذكر سنة الوفاة. ونقل ذلك عن ذيل كشف الظنون.

وذكر أحمد عصام الكاتب في مقدمته لبذل الماعون لابن حجر رسالة أخرى للمقدسي بعنوان: **«تحقيق الظنون بأخبار الطاعون»**، ويبدو أنها المذكورة آنفاً من الحبشي، بل أكّد ذلك حيث قال: ووجدت في الإيضاح (للبغدادي ج٢/ ١١)، كتاباً بعنوان «السر المصون في أخبار الطاعون»، قال: واكتفى ـ أي البغدادي ـ بقوله: للشيخ المقدسي. فلعلّ العنوانين لكتاب واحد.

٣٧ ـ البيلوني: محمد بن فتح الله بن محمود الحلبي، البيلوني الأنصاري **المتوفى سنة ١٠٤٢هـ**، ـ ذكر في الأعلام للزركلي أن وفاته كانت سنة ١٠٨٥ ـ له: **«خلاصة ما يحصل عليه الساعون في أدوية دفع الوباء والطاعون»**، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٧١٩)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج١١/ ١١٧)، ويوجد المخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق بعنوان **«رسالة في أحوال الطاعون»**، برقم ٦٠٩٩، وتوجد منها صورة في جامعة الكويت برقم **٧٠٠م ك ٥ في ٥١ ورقة**، كتبت سنة ١٢٠٥هـ.

وتوجد من المخطوط ثلاث نسخ في مكتبات تركيا هي: (أ) مكتبة لاله لي برقم ١٦٤٦/ ٢ بخط نسخ، كتبت سنة ١٠٢٨. (ب) مكتبة قسطموني برقم ١٨٤٨/ ٤٣ بخط تعليق نسخه محمد بن مقصود القسطموني سنة ١٠٤٧هـ. (جـ) مكتبة كوبريللي، القسم الثاني، برقم ١٨٦/ ١ بخط نسخ، كتبت في ١٧ محرم ١٠٥٣م.

٣٨ ـ أحمد الحموي، المتوفى سنة ١٠٦٨هـ، له رسالة **«الجوهر المكنون في الكلام عن الطاعون»** في سبع ورقات. توجد نسخة من المخطوطة في مكتبة أوقاف بغداد برقم ٣٧٩٦، وأخرى نسخت سنة ١٢٤٥هـ، برقم طب ٥٩٢، وهي في دار الكتب المصرية بالقاهرة.

٣٩ ـ الشريف أحمد بن محمد الحسيني الحنفي، المتوفى سنة ١٠٩٧هـ، له رسالة: «السرّ المكنون في الكلام عن الطاعون»، ذكره الدكتور عادل البكري في بحثه المقدم إلى «ندوة الطب والصيدلة في المغرب» المقامة في جامعة بغداد في ٦/٥/١٩٩٠، والتي نشرها مركز إحياء التراث العلمي ببغداد، (جامعة بغداد) ١٩٩٠.

٤٠ ـ نعمة الله بن عبد الله الجزائري، البصري، الشيعي، نزيل أصبهان المتوفى سنة ١١١٢هـ، له رسالة: «مسك الشجون في الفرار من الطاعون»، ذكرها البغدادي في الإيضاح (ج٢/٤٧٩)، وهدية العارفين (ج٢/٤٩٧). وفيه «مسكن الشجون» بدلاً من مسك. أما السيد عبد اللاّه الحبشي فقد ذكره في معجم الموضوعات المطروقة بعنوان: «مبكى الشجون في الفرار من الطاعون».

٤١ ـ زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زيد العابدين، الحدّادي المناوي القاهري، الشافعي المتوفى سنة ١١٣١هـ، له: «منحة الطالبين لمعرفة أسرار الطواعين».

٤٢ هـ عبد الوهاب بن أحمد أدراق المتوفى سنة ١١٥٩هـ، له رسالة: «هز السمهري فيمن نفى العيب عن الجدري».

٤٣ ـ مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري الصديقي الدمشقي الحنفي الخلوتي المتوفى سنة ١١٦٢هـ، له: «سرّ الساعون في دفع الطاعون»! هكذا ورد عنوانه في الإيضاح (ج٢/ ١٠)، وهدية العارفين (ج٢/ ٤٤٨)، والحبشي في معجم الموضوعات المطروقة. وكان ينبغي أن يكون «سر الساعين» أو «الساعون في دفع الطاعون».

٤٤ ـ صبغة الله الحيدري المتوفى سنة ١١٨٧هـ، له «رسالة في الطاعون»، توجد نسخة من المخطوط في مكتبة أوقاف الموصل برقم ٢٢٨١١.

٤٥ ـ عثمان بن موسى الاسكي شهري. عاش في القرن الثاني عشر الهجري، وكان مدرساً في جامع السلطان محمد الفاتح، له كتاب «الماعون في مسألة الطاعون»، ويوجد المخطوط في مكتبة بغدادلي وهبة في تركيا برقم ١٣٧٠، في ٢٤ ورقة، كتبت سنة ١٢١٠هـ. ذكر ذلك فهرس مخطوطات الطب الإسلامي، إعداد رمضان ششن. وقال: وله أيضاً رسالة في الحجامة

باللغة التركية، بعنوان (حجامت رسالة سي)، وهي في مكتبة مُلّى خانه برقم ١٢/٤٧١٤٨.

٤٦ ـ مستقيم زاده: سعد الدين سليمان بن عبد الرحمٰن أمن الله بن محمد الرومي الحنفي المشهور بمستقيم زاده، **المتوفى سنة ١٢٠٢هـ**، له **«جهاز المعجون في الخلاص من الطاعون»**، ذكره البغدادي في الإيضاح (ج١/ ٣٨٧)، وهدية العارفين (ج١/ ٤٠٥)، وعبد اللّاه الحبشي في الموضوعات المطروقة.

٤٧ ـ كورك زاده حافظ حسين أفندي، المتوفى سنة ١٢١٦هـ، له رسالة **«مجنة الطاعون والوباء»**، وتوجد من المخطوط نسخة في جامعة استانبول، القسم التركي برقم ١٢٩٩ في ٣٠ ورقة. وقد كتبت هذه النسخة سنة ١٢٩٩هـ، وللمصنف أيضاً رسالة في الأسقربوط (نقص فيتامين ج)، وذكر ذلك فهرس مخطوطات الطب الإسلامي.

٤٨ ـ السيد عقيل بن عمر السقاف العلوي المكي الشافعي المتوفى سنة ١٢٤٠هـ، له **«رسالة في الطاعون»**، المخطوط في مكتبة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بالطائف برقم ٣/ ١٧٠ بخط نسخي متقن في ١٧ ورقة، ٢١ سطر في الورقة مقاس ١٦سم × ٢١,٥سم عليه تملك عثمان محمد القارئ ـ وكان معاصراً للمصنف ـ، وأول الرسالة: (الحمد لله... أما بعد، فإن الذي تسأله من المخرج من هذا الطاعون بحيلة التوبة هل هو مكروه أو حرام يوجب الضلال، فأبيّن لك من أحاديث نبيّك، وأنت أبصر بنفسك فيها)، وآخره: (فإني لاأسألكم عليه أجراً، إن أجري إلاّ على رب العالمين، والحمد لله رب العالمين، تمّت وبالخير عمّت).

٤٩ ـ ابن بيرم: محمد بن محمد الأول بن حسين التونسي الشهير بابن بيرم، المتوفى سنة ١٢٤٦هـ، وقيل سنة ١٢٤٧هـ، له كتاب **«حُسن النبا في جواز التحفّظ من الوبا»**، ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (ج١/ ٤٠٥)، وهدية العارفين (ج٢/ ٣٦٣)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج١١/ ٢٠٩)، والزركلي في الأعلام (ج٧/ ٧٢)، وذكر أنه قد طبع. وذكره أيضاً عبد اللّاه الحبشي في معجم الموضوعات المطروقة عن إيضاح المكنون.

الرومي، المتوفى سنة ١٢٥٠هـ.

٥٠ ـ **أحمد بن رشيد بن محمد صدقي الرومي**، المتوفى سنة ١٢٥٠هـ. له كتاب «**تحفة الراغبين في بيان أمر الطواعين**»، وهو نفس عنوان كتاب الشيخ زكريا الأنصاري. ذكره إيضاح المكنون (ذيل كشف الظنون) للبغدادي (ج١/ ٢٤٨)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج١/ ٢٢٢).

٥١ ـ **علي بن عبد الله الأصفهاني** - غير معروف سنة وفاته -، عاش في القرن الثالث عشر الهجري، له **رسالة تبحث في طاعون عام ١٢٤٧هـ**. ذكره الدكتور عادل البكري في بحثه المقدّم لندوة «الطب والصيدلة في المغرب»، التي عقدت في جامعة بغداد في ٦/ ٥/ ١٩٩٠، ونشرتها جامعة بغداد عام ١٩٩٠.

٥٢ ـ **حمدان بن عثمان خواجه الجزائري الحنفي المتوفى سنة ١٢٦١هـ**، له «**إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الاحتراز عن الوباء**» ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (ج١/ ٢٠)، وهدية العارفين (ج١/ ٣٣٥)، ورضا كحالة في معجم المؤلفين (ج٤/ ٧٥)، وعبد اللّاه الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة» نقلاً عن إيضاح المكنون. وقال البغدادي: وفرغ منه سنة ١٢٥٢. وذكر المصنف الحجر الصحي ووجوب الالتزام به، وذلك بعد أن طبّقته أوربا، وأدّى ذلك إلى تخفيف الأوبئة فيها، ووضع فيه بحثاً جيداً د. عادل البكري في ندوة الطب والصيدلة في المغرب العربي، جامعة بغداد، ١٩٩٠.

٥٣ ـ **كلوت بك رئيس أطباء الجيش المصري**، ومؤسّس مدرسة الطب في القصر العيني، له «**رسالة في الطاعون**» **طبعت بمصر سنة ١٢٥٠هـ**».

٥٤ ـ إبراهيم النجار، المتوفى سنة ١٢٨١، له رسالة في «**الهواء الأصفر**»، يتحدّث فيها عن الوباء.

٥٥ ـ **حسن محمد باشا**: له كتاب «**تحفة السامع والقاري في داء الطاعون البقري الساري**»، **طبع الكتاب بمصر سنة ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م**.

٥٦ ـ **محمد بن أحمد الاسكندراني المتوفى سنة ١٣٠٦هـ**، له «**رسالة الهيضة**»، وقد طبعت بمصر سنة ١٢٩٢هـ ١٨٧٥م.

٥٧ ـ **حسن محمود الطبيب المتوفى سنة ١٣٢٣هـ**، له رسالة «**وباء الهيضة**».

٥٨ ـ **عبد الحميد بن نعمر نعيمي بن أحمد الخربوتي، الرومي، الحنفي المدرّس، المتوفى سنة ١٣٢٠هـ**، له كتاب **«جواب الوزير في حرمة امتناع الحاج عن دخول مكة عند الوباء الكبير»**، ذكره البغدادي في إيضاح المكنون (ج١/٣٧٣)، وفي هدية العارفين (ج١/٥٠٧).

وأمّا الرسائل التي لم يعرف سنة تأليفها ولا سنة وفاة كاتبها، فهي كالتالي:

٥٩ ـ **الطبري**: **«الفوائد الخبرية في أحكام الطاعون»**: ذكره عبد اللّاه الحبشي في معجم الموضوعات المطروقة، وأشار إلى أن البغدادي ذكره في الذيل (أي ذيل كشف الظنون وهو إيضاح المكنون).

٦٠ ـ **المولى إياس**: وله **«طلسم العون في الدواء والصون عن الطاعون والوباء»**، ذكره الحبشي في معجم الموضوعات المطروقة من كشف الظنون لحاجي خليفة.

٦١ ـ **مصلح الدين**: **«رسالة الوباء وجواز الفرار منه»**، ذكره الحبشي عن كشف الظنون في كتابه «معجم الموضوعات المطروقة».

٦٢ ـ **المؤلف مجهول**: **ترجمة رسالة «دفع طاعون»**، الناسخ عبد اللطيف زين العابدين سنة ٩٨٦هـ، وتوجد نسخة من المخطوط في مكتبة جار الله بتركيا برقم ١٥٣٩ في ٤٨ صفحة، ذكره «فهرس مخطوطات الطب الإسلامي».

٦٣ ـ **إبراهيم النشو الجمال**: **«الرسالة الجمالية في تدبير الحمّيات الوبائية»**، توجد منه نسخة في دار الكتب المصرية برقم ١٦ طب.

٦٤ ـ **عبد الرحمٰن بن محمد البسطامي**: **له رسالة «وصف الدواء في كشف الوباء»**، توجد منه نسخة في المكتبة الأحمدية بتونس برقم ٥٤٠٨.

٦٥ ـ **عزريا كثير**، رئيس أطباء السلطان عبد المجيد خان، له رسالة **«الهواء الأصفر»** ومعالجته.

٦٦ ـ **شبلي شميل**، له كتاب **«الهواء الأصفر»**، طبع في مصر سنة ١٣٠٦هـم ١٨٨٩م.

٦٧ ـ **يعقوب بن ساحاق الكندي**: له كتاب **«الأبخرة المصلحة للجو من**

الوباء»، ذكره الدكتور عادل البكري في بحثه المقدم إلى ندوة الطب والصيدلة في المغرب العربي المنعقدة ببغداد في ٦/ ٥/ ١٩٩٠، (نشر مركز إحياء التراث جامعة بغداد).

٦٨ ـ **مصطفى الدهنة الأزهري**: له «**رسالة في الطاعون**»، في ١٤ ورقة تحت رقم ٤٩٢ طب طلعت بدار الكتب المصرية.

٦٩ ـ **المؤلف مجهول**: «**رسالة فيما ينفع من الوباء والطاعون**»، برقم طب ٥٩١، دار الكتب المصرية بالقاهرة.

٧٠ ـ **إلياس اليهودي بن إبراهيم الأسباني**: «مجنّة الطاعون والوباء»، غير معروف سنة الوفاة للمؤلف ولا سنة التأليف ولا سنة النسخ، مخطوط ضمن مجموع معهد المخطوطات العربية ميكروفيلم رقم MS 3676 في ٣٢ ورقة.

٧١ ـ **عبد الله المقدسي**: «**السر المصون في أخبار الطاعون**»: توجد منه نسخة خطية في المكتبة الأحمدية بتونس برقم ٥٤٤٦، ذكر ذلك الدكتور عادل البكري في بحثه المقدم إلى «ندوة الطب والصيدلة في المغرب» بجامعة بغداد في ٦/ ٥/ ١٩٩٠، وهل المقدسي هذا هو نفس الشيخ مرعي بن يوسف بن أبي بكر الكرمي المقدسي المتوفى سنة ١٠٣٣هـ، وصاحب كتاب «ما يفعله الأطباء والداعون لدفع شر الطاعون»، أم هما مقدسيان أحدهما الشيخ مرعي الكرمي والثاني عبد الله المقدسي. ورسالة «السر المصون في أخبار الطاعون» ذكرها إيضاح كشف الظنون للبغدادي، وقال: للشيخ المقدسي، وذكرها كذلك عبد اللّاه الحبشي في «معجم الموضوعات المطروقة»، وكذلك لم يوضح عن المصنف أيّ شيء سوى قوله للشيخ المقدسي: «السر المصون في أخبار الطاعون».

هذا ما تيسّر جمعه عن الرسائل المستقلّة عن الطاعون والوباء، وأمّا ما كتب عن الطاعون ضمن الكتب فكثير لا يمكن حصره، وقد حوت كتب الحديث المختلفة وشروحها وكتب الطب النبوي على فصل أو باب في الطاعون. كذلك حوت كتب التاريخ وكتب الأدب الكثير الكثير عن أخبار الطاعون، ولكنا أعرضنا عنها لأنها لم تكن رسائل مستقلة، كما أن كتب الطب كلّها قد حوت فصولاً عن الوباء، وأغلبها لم يذكر الطاعون في الوباء، وإنما

ذكره في الأورام والبثور؛ لأن الطاعون الغددي يظهر كغدة في المراق (المنطقة الأربية) والإبط وفي العنق خلف الأذن. كما يظهر مثل البثرة في اليد أو الساق أو القدم.

وهكذا يبدو أن التراث الإسلامي غني بصورة غير متخيّلة بالكتب والرسائل عن الطاعون والوباء.

مخطوطات ما رواه الواعون في أخبار الطاعون للسيوطي

يعتبر كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للإمام جلال الدين السيوطي من الكتب الهامّة في تاريخ الطاعون، والأحاديث الواردة فيه، في التراث العربي الإسلامي. وقد اختصره الإمام السيوطي من كتاب «بذل الماعون في فضل الطاعون» للإمام ابن حجر العسقلاني ـ صاحب «فتح الباري» شرح صحيح البخاري ـ. ولم يكتفِ السيوطي بالاختصار وحذف الأسانيد، بل يعتبر الكتاب في بعض مناحيه تأليفاً حيث يورد السيوطي آراءه الخاصة، ويحذف ما لا يراه مناسباً، كما أضاف إليه ذكر الطواعين التي حدثت بعد زمان ابن حجر العسقلاني، ومقامة وضعها في طاعون عام ٨٩٧هـ، وسمّاها «المقامة الدرية».

أين يوجد المخطوط؟

يوجد الكتاب في العديد من المكتبات:

١ ـ **دار الكتب المصرية بالقاهرة**: برقم ١٦٥ حديث تيمور، وهي في مجموع من ٦٢ صفحة تضمّ كتابين للسيوطي، هما: (أ) ما رواه الواعون في أخبار الطاعون من صفحة ٢ إلى ص٣٤. (ب) تلخيص بشرى الكئيب بلقاء الحبيب الذي لخَّصه الشيخ عبد المجيد بن أبي العباس الحريثي الشافعي، وهو من ص٣٥ إلى ص٦١. وفي الصفحة الأخيرة ٦٢ مجموعة فوائد بخط مختلف عن خط الناسخ، منها: فائدة: قال عليه الصّلاة والسّلام: «من قال في كل يوم ماية مرة: لا إلٰه إلاّ الله الحق المبين استفتح بها أبواب الرزق، ونفت عنه الفقر، وفتحت بها أبواب الجنّة، ووقي بها فتنة القبر، وأتته الدنيا وهي راغمة».

المخطوط بخط نسخ مقروء الصفحة ١٧,٥سم × ١٠,٥سم، في كل صفحة ٢١ سطراً، في كل سطر ١٢ كلمة، وأوله:

(بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله مقدر الأرزاق والآجال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد والصحب والآل. هذا جزء انتخبت فيه ما ورد في أخبار الطاعون، اختصرته من «بذل الماعون» لشيخ الإسلام ابن حجر، فأتيت بالمقصود وحذفت الأسانيد، وما وقع على سبيل الاستطراد، والله الموفق).

وآخرها مجموعة من الأبيات التي قيلت في الطاعون:

(أنشد المعمار:

يا من تمنّى الموت قم واغتنم	هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله	ومات من لا عُمُره ماتا

وقال آخر:

رعى الرحمٰن دهراً قد توالى	يجازي بالسلامة كل شرطِ
وكان الناس في غفلات أمنٍ	فجاء طاعونهم من تحت إبطِ

شهاب الدين فضل الله:

قَبُحَ الطاعون داء	فنيت فيه الأحِبَّهْ
أرخص الأنفس بيعاً	كلُّ إنسان بحبَّهْ

ابن أبي حجلة في الطاعون سنة أربع وسبعمائة (الصواب ٧٤٩هـ):

أرى الطاعون يفتك في البرايا	ويطعن طعن أرباب الحرابِ
وينشد عند هدم العمر مِنّا	لدوا للموت وابنوا للخرابِ

ألف في الطاعون: ابن أبي الدنيا، البدر الزركشي، المنبجي، التاج السبكي، ابن أبي حَجَلة، الحافظ بن ناصر الدين الدمشقي، شيخ الإسلام ابن حجر، السراج ابن الملقّن، الشيخ زكريا (الأنصاري)، الحافظ السيوطي رحمهم الله تعالىٰ أجمعين). ولم يذكر اسم الناسخ ولا سنة النسخ.

وقد جعلت هذه النسخة مرجعاً لتصويب نسخة ليدن، ورمزت لها بحرف (ب).

وبما أن نسخة ليدن فيها إضافات غير موجودة في نسخة دار الكتب المصرية، فقد اعتمدتها. وكنت أقارن بين النسختين وما هو ناقص في واحدة أكمله من الأخرى، ورمزت لنسخة ليدن بحرف (أ).

٢ ـ مكتبة جامعة ليدن بهولندة: ضمن مجموع برقم «مخطوطات شرقية ٤٤٥٥»، ويضمّ المجموع:

(أ) «مختصر آكام المرجان في أحكان الجان» للشبلي: من ورقة ١ب إلى ورقة ٧٧ب.

(ب) من ورقة ٧٨ أ ـ ٨٠أ فراغ.

(جـ) من ورقة ٨١ب ـ ١٠٦ب: «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للسيوطي، بخط نسخ واضح إلاّ كلمات مبهمة، استعنت على فهمها بالمخطوطة (ب)، وبقيت كلمات معدودة تركت موضعها فراغاً وأشرت إليه في الهامش.

وقد تكرّم الأخ الأستاذ نظام يعقوبي البحراني المتعدّد المواهب والداعية إلى الله بإعطائي نسخة مصوّرة من مكتبته الخاصة العامرة بمئات المخطوطات والكتب النفيسة في داره بالبحرين. وهو عنده برقم طب ١٠١، ورقم حديث/ طب نبوي ٢٥. المخطوط بخط نسخ واضح... والصفحة ١٩,٥سم × ١٠سم، في كل صفحة ٢٥ سطراً، والسطر في المعدل ١٢ كلمة على ورقة الغلاف: (دخل في سلك ملك الفقير إلى ربّه الغني الصمد علي بن أمر الله بن محمد، جمع الله تعالىٰ بينهم في مقعد صدق، وحبّذا ذاك المقعد، بالقاهرة في شوال سنة أربع وتسعين وتسعمائة).

وعليها: «الله حسبي، طالعت فيه من قوادمه إلى خوافيه، أنا الفقير إلى الله سبحانه الراجي عفوه وغفرانه مصطفى بن محمد الأنصاري، عفا الله الملك الباري عنه يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام، بحرمة سيّد الأنام عليه الصّلاة والسّلام. آمين.

وأوّله: (كتاب: ما رواه الواعون في أخبار الطاعون للشيخ جلال الدين السيوطي رحمه الله، فهرسة أبوابه: مبدأ الطاعون، حقيقة الطاعون، الفرق بينه وبين الوباء، سبب وقوعه، اختصاص المدينة بأنه لا يدخلها، هل تشاركها مكة في ذلك، النهي عن الفرار منه والقدوم عليه، هل يشرع الدعاء برفعه. فوائد منثورة، سرد الطواعين الواقعة في الإسلام. مقامة ابن الوردي، مقامة الصلاح الصفدي، مقامة المؤلف المشار إليه).

«ما كان عليه صورة (هكذا) في هذا الكتاب، فهو عبارة عن استدراك المؤلف على شيخ الإسلام ابن حجر، وزيادة عليه في بذل الماعون، والله أعلم».

(بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله مقدّر الأرزاق والآجال، والصلاة والسّلام على سيّدنا محمد والصحب والآل. هذا جزء انتخبتُ فيه ما ورد في أخبار الطاعون، اختصرته من «بذل الماعون» لشيخ الإسلام ابن حجر، فأتيتُ بالمقصود وحذفت الأسانيد، وما وقع على سبيل الإطِّراد، والله أعلم بالمراد).

وآخره: (فالحمد لله على حسن الاختتام واتّقوا الله يا أولي الألباب إن كنتم تسمعون، ولا تعقلون عن طاعة الله، إن كنتم في مثبوته تسمعون، ولا تغرنّكم المهلة، فإنما هي فسحة لعلكم تذكّرون وتنتفعون، وسيلحق آخركم بأولكم فطوبى لقوم يفقهون ويعون، ولأمر الله ورسوله متّبعون. كل شيء هالك إلاّ وجهه له الحكم وإليه ترجعون. تمّ الكتاب المبارك بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، والحمد لله وحده، وصلّى الله على سيدنا محمد تسليماً كثيراً إلى يوم الدين).

غير مذكور اسم الناسخ ولا سنة النسخ، ولكن قد ذكر في الغلاف (الورقة أ)، تملّك علي بن أمر الله بن محمد بالقاهرة في شوال سنة أربع وتسعين وتسعمائة، ولا شكّ أنه قد تمّ نسخه قبل ذلك، وهو غير بعيد عن زمن المصنف المتوفى سنة ٩١١هـ.

وتتميّز نسخة ليدن بالإضافة إلى قدمها ووضوح خطّها بأنها تحتوي على إضافات غير موجودة في مخطوطة دار الكتب المصرية، وهي المقامة الدرّية للسيوطي في طاعون ٨٩٧هـ. ومقامة الصلاح الصفدي ورسالة السبكي. ولهذه الأسباب جعلت هذه النسخة المعتمدة واستعنت بنسخة دار الكتب وأشرت إلى الفرق بينهما، وما هو ناقص من واحدة أكملته من الأخرى وأشرت إليه في الهامش.

٣ ـ **قام المستشرق الألماني فون كريمر بترجمة كتاب السيوطي** «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» إلى اللغة الألمانية وعلّق عليه، كما نشر الفصل

الأخير من كتاب السيوطي بعنوان: «**سر الطواعين الواقعة في الإسلام**»[1]، وفيه سرد الطواعين التي وقعت منذ بداية العهد النبويّ وأوّلها طاعون شيرويه بالمدائن في فارس، ولم يصب فيه أحد من المسلمين ولا دخل جزيرة العرب. والثاني طاعون عمواس بالشام، وقتل فيه من جند المسلمين خمسة وعشرين ألفاً بينهم ثلّة من خيرة الصحابة من أمثال أبي عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حَسَنة ومعاذ بن جبل وابنيه وزوجته، وضرار بن الأزور والفضل بن العباس... إلخ. وذكر الطواعين إلى زمنه وآخرها طاعون سنة ٨٩٧هـ، وقد اعتمدت نسخة كريمر لأنها محقّقة وقارنتها بالمخطوطتين عندي وأشرت إلى مواضع الخلاف. كما استعنت بكتاب الإمام ابن حجر العسقلاني «بذل الماعون في فضل الطاعون»، الذي حقّقه الأستاذ أحمد عصام الكاتب تحقيقاً جيّداً ونشرته دار العاصمة بالرياض سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، وذلك في سرد الطواعين الواقعة في الإسلام.

وهناك مجموعة من **النسخ المخطوطة التي لم أطلع إليها**، والتي وجدتها في فهرس مخطوطات الطبّ الإسلامي في مكتبات تركيا، إعداد الدكتور رمضان ششن وإشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي وإصدار مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول والتابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي. وهذه النسخ هي:

١ ـ **مكتبة قسطموني بتركيا** برقم ٢/١١٤٤، في مجموع من صفحة ١٠٣ب إلى ١١٥ب، بخط نسخ، وبمقياس ١٠,٦ × ١٥سم. كتبه حسن الأجهوري في شهر ذي الحجّة سنة ٩٨٢هـ.

٢ ـ **مكتبة أيا صوفيا باستنانبول** (تركيا) برقم ٧/٤٣٩٦ في مجموع من صفحة ٨٥أ إلى ١٣١ب، بخط نسخ، وبمقياس ١٠,٨ × ١٥,٧سم، كتبت المخطوطة في القرن الحادي عشر الهجري.

٣ ـ **مكتبة رئيس الكتاب بتركيا**، برقم ٦/١١٥٠ في مجموع من صفحة

(١) أعطاني نسخة مصوّرة منها الأستاذ لورانس كونراد من معهد ويلكم لتاريخ الطب بلندن والأستاذ بجامعة لندن.

٥٢أ إلى ٨٢أ، بخط نسخ، وبمقياس ٩,٧ × ١٦سم، كتبت المخطوطة في القرن الحادي عشر الهجري.

وهناك نسخ أخرى موزعة في مكتبات العالم، نذكر منها:

٤ ـ **المكتبة الظاهرية بدمشق** برقم عام ٥٨٩٦، ق٩٠ ـ ١٠٠.

٥ ـ **المكتبة الصديقية بحلب**، رقم ١٣٨.

٦ ـ **مكتبة يحيى باشا بالموصل**، برقم ٢٥٦ سير، ق٧٠ ـ ١٠٣.

٧ ـ **جامعة برنستون بالولايات المتحدة** ضمن مخطوطات الشرق الأوسط، مكتبة فايرستون.

فهارس الكتب التي ذكرت هذا المخطوط:

وكتاب الإمام السيوطي هذا مذكور في العديد من المراجع وفهارس كتب المصنّفين مثل كشف الظنون لحاجي خليفة حيث جاء فيه (ص١٥٧٤): «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون لجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ»، وقد ذكره كثير ممن ترجموا للإمام السيوطي وذكروا كتبه مثل الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل في تحقيقه لكتاب «المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي» للسيوطي، وكتاب الدكتور علي صافي حسين ترجمة حياة «الإمام جلال الدين السيوطي»، وندوة المجلس الأعلى لرعاية الفنون بالاشتراك مع الجمعية المصرية: جلال الدين السيوطي، و «مكتبة جلال الدين السيوطي» للأستاذ أحمد شرقاوي إقبال. لهذا فإن نسبة كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» إلى الإمام السيوطي ثابتة بهذا الفيض من النسخ المخطوطة، وبما أشارت إليه المراجع وفهارس الكتب.

ميزة كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للسيوطي:

يعتبر هذا الكتاب أحد الكتب العديدة التي حفلت بها المكتبة العربية حول الطاعون والوباء. والغريب حقاً أن الفقهاء والمحدّثين هم أكثر الناس اهتماماً بالطاعون، وتدوين أخباره وتفاصيل أعراضه، وذلك لارتباط الطاعون والوباء والعدوى بالأحاديث النبوية العديدة، ولمعالجة قضايا هامة بالنسبة إلى ملايين المسلمين حيث كان الطاعون يقضي على سكان مدن بكاملها أو تفقد

البلدة نصف سكانها. . . كما أن الموضوع يعالج قضايا عقدية دينية هامة.

لهذا كان اهتمام الفقهاء والمحدّثين أكثر بكثير من اهتمام الأطباء، وقد أوضحنا ذلك بعدد مصنفاتهم وما كتبه أساطين الطب من أمثال الرازي وابن سينا وابن النفيس في الطاعون، حيث لا يتجاوز ما كتبه أحدهم صفحة واحدة من ضمن كتبهم المحتوية على مئات بل وآلاف الصفحات.

وبما أن السيوطي أحد أعلام علم الحديث والفقه، كما يعتبر من المؤرخين والأدباء أيضاً، فقد شارك في هذه الفنون جميعاً، فإن السيوطي لم يهمل موضوع الطاعون بل قام باختصار كتاب شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني «بذل الماعون في فضل الطاعون»، وحذف منه الأسانيد والاستطراد، وأضاف إليه آراءه الخاصة، وشيئاً من معلوماته، وما حدث من طواعين بعد وفاة ابن حجر. . . وانتهى إلى طاعون عام ٨٩٧هـ و٨٩٨هـ الذي وضع فيه مقامته «الدُّرّية»، وهي مقامة في وصف ذلك الطاعون ضمنها قدرته النحوية والبلاغية ومعرفته لعلم الحديث والفقه وأصولهما. . . إلخ.

لهذا نجد في كتاب السيوطي عرضاً شاملاً للطواعين حتى نهاية القرن التاسع الهجري، وهذا يعطينا معرفة جيّدة لتأثير هذه الطواعين على الحياة العامّة في البلاد الإسلامية على مدى تسعة قرون، كما يعطينا بعداً في تصوّر القضايا العقدية والدينية المتعلّقة بالطاعون وإصابته للمسلم وكيف هو شهادة له بينما هو رجز وعذاب للكافر والمنافق، كما تعطينا تصوّراً لأسباب الطاعون وارتباطه بوخز الجن ـ والجن كل ما اختفى واستتر ـ، وكونه أيضاً عقوبة لانتشار الزنا، كما أنه في الوقت نفسه رحمة وشهادة لكل مسلم. . . وفيه أيضاً وصف لكثير من أعراض الطاعون وعلاماته نستشفّ منها معرفة جيّدة بأنواعه: الدبلي (الغددي) وهو أكثر أنواعه، والرئوي، والدموي، والجلدي، وكيفية حدوث الوفاة منه، وسرعة حدوثها، وحدوث الإصابة بالطاعون لمن طُعِن من قبل، وذلك في طاعون عام ٨٩٧هـ.

عملي في الكتاب:

١ ـ اعتمدت مخطوطة «ليدن» لأنها أقدم، مع وضوح خطها إلاّ في بعض الكلمات، كما أنها تحتوي على إضافات غير موجودة في مخطوطة دار

الكتب المصرية، وهي المقامة الدرّية للسيوطي نفسه، ومقامة الصلاح الصفدي ورسالة السبكي. ومع هذا فقد كنت أقارنها بمخطوطة دار الكتب المصرية، وأضع ما يوجد من نقص أحياناً في مخطوطة ليدن وأكمله بما هو موجود في مخطوطة دار الكتب المصرية.

كما استعنت أيضاً بفصل «سرد الطواعين الحادثة في الإسلام»، بما كتبه فون كريمر حيث أنه مطبوع ومحقّق من عدة نسخ من كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، واستعنت أيضاً بكتاب الحافظ ابن حجر في مراجعة هذا الفصل ومقامة الصفدي وابن الوردي وغيرهما من الفصول... وكتاب ابن حجر «بذل الماعون في فضل الطاعون»، قد حقّقه ونشره الأستاذ أحمد عصام الكاتب.

٢ ـ عزو الآيات إلى أماكنها ووضع الآيات بين أقواس مزهرة.

٣ ـ وضع الأحاديث بين قوسين مزدوجين، وتخريج بعض الأحاديث المسكوت عنها.

٤ ـ شرح الألفاظ المبهمة ومواقع الأماكن وخاصة المذكورة في مقامات ابن الوردي والسبكي والصفدي والسيوطي.

٥ ـ شرح ما ذكره السيوطي من مختلف العلوم بطريقة موجزة في مقامته الدُرّية.

٦ ـ شرح ما ذكر من قصص الطاعون في بني إسرائيل وإيراد النصوص الموجودة في التوراة الموجودة بين أيدينا اليوم.

٧ ـ وضع عناوين وفصول للكتاب.

٨ ـ وضع مقدمة طويلة وضافية عن الطاعون بدأتها بتاريخ الطواعين العالمية في الفصل الأول، ثم جعلت الفصل الثاني للطاعون بين الطب وحديث المصطفى ﷺ وسببه. والثالث: أعراض الطاعون وعلاماته في التراث الإسلامي والطب الحديث. والرابع: للحجر الصحي والطاعون. والخامس: للرسائل والمصنّفات في الطاعون والوباء في التراث الإسلامي. والسادس: وهو هذا الفصل في نسخ كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وأين توجد، وخصائص هذا الكتاب وعملي فيه. والسابع: ترجمة الإمام السيوطي.

صفحة الغلاف من مخطوطة ليدن وعليها: دخل في سلك ملك الفقير إلى ربّه الغني الصمد عليّ بن أمر الله بن محمد، جمع الله تعالىٰ بينهم في مقعد صدق، ـ وحبّذا ذاك المقعد ـ بالقاهرة في شوال سنة أربع وتسعين وتسعمائة.

الصفحة الأولى من مخطوط «ليدن»، كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وفيه الفهرس والمقدمة.

الصفحة الأخيرة من المقامة الدرّية في طاعون سنة ٨٩٧هـ، للإمام السيوطي، وهي نهاية كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، من مخطوطة «ليدن» بهولندة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مقدر الارزاق والآجال والصلاة والسلام على سيدنا
محمد والصحب والآل هذا جزء انتخبت فيه ما ورد في
اخبار الطاعون اختصرته من بذل الماعون لشيخ الاسلام ابن حجر
فاتيت بالمقصود وجردت الاسانيد وما وقع على سبيل الاستطراد
والله الموفق مبدأ الطاعون اخرج الشيخان واللفظ لمسلم
عن اسامة بن زيد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان هذا
الطاعون رجز وبقية عذاب عذب الله به قوما وفي لفظ
لهما ناسا قبلكم وفي لفظ له رجز اهلك الله به بعض الامم وقد بقي في
الارض منه شيء يجيء احيانا ويذهب احيانا واخرج ابن جرير
وابن ابي حاتم وعبد بن حميد في تفاسيرهم عن سعيد بن جبير
قال امر موسى قومه من بني اسرائيل بعد ما جاء قوم فرعون
الآيات الخمس الطوفان وما ذكر الله في الآية فلم يؤمنوا
ولم يرسلوا معه بني اسرائيل فقال ليذبح كل منكم كبشا ثم
ليخضب كفه في دمه ثم ليضرب به على بابه فقالت القبط لبني اسرائيل
لم تجعلون هذا الدم على ابوابكم فقالوا ان الله يرسل عليكم عذابا
فيقتلكم وتهلكون فاصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون الفا
فامسوا وهم لا يتدافنون فقال فرعون عند ذلك لموسى عليه السلام
ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز وهو الطاعون
لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم
مرسل جيد الاسناد وقد روي موصولا من طريق ابن عباس

واخرج

الصفحة الثانية من مخطوطة دار الكتب المصرية لكتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، للإمام جلال الدين السيوطي.

ترجمة الإمام السيوطي

اسمه ونسبه ولقبه وكنيته:

هو جلال الدين، أبو الفضل، عبد الرحمٰن بن الكمال أبي بكر ابن محمد بن سابق الدين بن الفخر بن عثمان بن ناظر الدين بن نجم الدين أبي الصلاح أيوب بن ناصر الدين بن همام الدين الخضيري نسبة إلى خضيرية ـ محلة بالعراق ـ الأسيوطي، (السيوطي: نسبة إلى مدينة أسيوط المشهورة بصعيد مصر).

وقد ترجم السيوطي لنفسه في كتابه «حسن المحاضرة»، وقال عن جدّه الأعلى همام الدين: إنه كان من مشايخ الصوفية وإنه من أهل الحقيقة... وقال: إن نسبه الخضيري إلى محلة الخضيرية ببغداد. وقد سمع والده يقول: إن جده الأعلى كان أعجمياً من الشرق (إما أن يكون من أصل فارسي أو تركي). وأمّا أمه فهي تركية (أم ولد)، وقد ذكر ذلك الحبيب العلّامة محيي الدين عبد القادر بن شيخ العيدروس في كتابه «تاريخ النور السافر» (ص٥٤ ـ ٥٧)، كما ذكر العيدروس سبب تلقيبه بابن الكتب، وهو أن والده العلامة الكمال أبو بكر طلب من أمّه ـ أي أم جلال الدين ـ أن تأتيه بكتاب وكانت حاملاً متمّاً، فلما ذهبت بين الكتب جاءها المخاض ووضعت وليدها بين الكتب... وكانت فاتحة عجيبة للإمام جلال الدين السيوطي الذي عاش حياته كلها بين الكتب، رذكر الزركلي في الأعلام نفس القصة نقلاً عن كتاب «المنح البادية».

مولده ونشأته وأخذه العلم:

ولد السيوطي بعد المغرب ليلة الأحد مستهلّ رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة بالقاهرة، كما ذكر ذلك السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة».

والغريب حقاً أن كثيراً من القدماء كانوا يسجلون تاريخ الميلاد بكل دقة...
وأمّا تاريخ الوفاة فلا يكاد يوجد من العلماء والأعلام من لا يُعرف تاريخ وفاته إلاّ نادراً جداً... وكان المصنّفون يضعون في نهاية كتبهم تاريخ الفراغ من تصنيف الكتاب، وكثيراً ما يفعل ذلك أيضاً ناسخ الكتاب وقد يكتب الناسخ اسمه، وهذا يعطينا دقّة علمية لم نصل إليها إلى اليوم.

وقد نشأ السيوطي في بيت علم، فقد كان أبوه عالماً وتولّى القضاء وله مصنّفات في الفقه[1]. وقد ذكر السيوطي في «حسن المحاضرة» أن أجداده كان فيهم الصالحون ومن تولّى الحُسْبَة ومن تولّى الحكم في بلده، ولكن أحداً منهم لم يخدم العلم حق الخدمة إلاّ والده الكمال.

قال السيوطي في «حسن المحاضرة»: أمّا جدي الأعلى «همام الدين»، فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق، وسيأتي ذكره في قسم الصوفية، ومَن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة، منهم من وُلِيَ الحكم ببلده، ومنهم من وُلِيَ الحُسْبَةَ بها، ومنهم من كان تاجراً في صحبة الأمير شيخون (من حكام مصر)، وبنى مدرسة بأسيوط ووقف عليها أوقافاً - هي موجودة في أسيوط إلى الآن، وتعرف باسم جامع سيدي جلال الدين وبه ضريح تزعم العامّة جهلاً أنه ضريح السيوطي، كما يقول أحمد تيمور -، ومنهم من كان متموّلاً. ولا أعرف منهم من خدم العلم حق الخدمة إلاّ والدي وسيأتي ذكره في قسم الفقهاء.

وقد أخذه والده وهو صغير، كما يقول السيوطي في «حُسن المحاضرة»: إلى الشيخ محمد المجذوب، رجلٌ من كبار الأولياء بجوار المشهد النفيسي - أي مشهد السيدة نفيسة العالمة الزاهدة التقية التي تنتسب إلى سيّدنا الحسن بن عليّ سِبْطِ رسول الله، ومشهدها معروف بالقاهرة -، فبرّكَ عَلَيَّ.

---

(١) ولد الكمال أبو بكر والد الإمام جلال الدين السيوطي في مدينة أسيوط، وظهر بالعلم، ثمّ تولى القضاء فيها، ثم ارتحل إلى القاهرة، وتولى تدريس الفقه بالجامع الشيخوني والمدرسة الشيخونية، وهي مدرسة مشهورة آنذاك لتدريس الفقه. وتولّى خطبة الجمعة بالجامع الطولوني. وله مؤلّفات في الفقه ذكرها الإمام السيوطي، وكانت وفاته سنة ٨٥٥هـ، وللسيوطي خمس سنوات وسبعة أشهر.

ثم أخذه والده وله من العمر ثلاث سنوات إلى الحافظ ابن حجر العسقلاني فدعا له. . . وبدأ يحفظ القرآن الكريم عل يد والده، ثم توفي والده ليلة الاثنين الخامس من شهر صفر سنة خمس وخمسين وثمانمائة (٨٥٥هـ)، وعمر السيوطي آنذاك خمس سنين وسبعة أشهر.

وقد أوصى به والده إلى أحد أصدقائه من العلماء الصوفية، وهو كمال الدين بن الهمام فاعتنى به. وحفظ السيوطي القرآن الكريم وهو دون الثامنة، ثم ألحقَهُ ابن الهمام بالمدرسة الشيخونية التي درَّسَ فيها والده من قبل (وهذه المدارس تُجْرِي جرايات للطلبة)، وسرعان ما ظهر نبوغ الصبي وسرعة حفظه، فقد حفظ عمدة الأحكام، ومنهاج النووي، وألفية ابن مالك، ومنهاج البيضاوي وهو دون البلوغ، وعرضها السيوطي على مشايخه في تلك السن الغضّة الطرية، فأعجبوا به وأثنوا عليه ودعوا له.

وأخذ السيوطي عن الجلال المحلّي (الذي أكمل السيوطي تفسيره، والذي اشتهر بتفسير الجلالين)، والمحدّث الزين العقبي وهو صغير. ثم أخذ عن عدد كبير من المشايخ، ذكر السيوطي في حسن المحاضرة أنهم أنافوا على مائة وخمسين شيخاً، وسنذكر بعض أسماء شيوخه وتلاميذه فيما يأتي.

والغريب حقاً أن السيوطي بدأ التأليف في مرحلة مبكرة جداً من حياته. قال في «حسن المحاضرة»: وأُجِزْتُ بتدريس العربية في مستهل سنة ست وستين (أي ٨٦٦هـ)، وقد ألّفتُ في هذه السنة، فكان أول شيء ألّفته: «شرح الاستعاذة والبسملة»، وأوقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني، فكتب عليه تقريظاً. وكان سن السيوطي آنذاك ١٧ سنة.

واستمر السيوطي في دراسة الفقه والحديث، وأجازه شيوخه بالتدريس والإفتاء سنة ٨٧٦هـ، وعمره آنذاك ٢٧ عاماً فقط.

واستمر، رغم بلوغه في مرتبة التصدُّر للإفتاء والتدريس، في أخذ العلم عن مشايخ عصره. قال السيوطي في «حسن المحاضرة»: فلما تُوُفيَ ـ أي شيخه البلقيني ـ سنة ثمان وسبعين لزمتُ شيخ الإسلام شرف الدين المناوي، فقرأتُ عليه قطعة من المنهاج وسمعته عليه في التقسيم إلاّ مجالس فاتتني. وسمعت دروساً من شرح البهجة ومن حاشية عليها ومن تفسير البيضاوي.

ولزمت في الحديث والعربية شيخنا العلاّمة تقي الدين الشمني الحنفي، فواظبته أربع سنين وكتب لي تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية، تأليفي، وشهد لي غير مرة بالتقدّم في العلوم بلسانه وبنانه.

يقول السيوطي: ولم أنفك عن الشيخ إلى أن مات ولزمتُ شيخنا العلاّمة، أستاذ الوجود، **محيي الدين الكافيجي** أربعة عشر سنة، فأخذت عنه الفنون من التفسير والأصول العربية والمعاني وغير ذلك. وكتب لي إجازة عظيمة، وحضرت عند الشيخ سيف الدين الحنفي دروساً عديدة في الكشاف والتوضيح وحاشيته، وعليه تلخيص المفتاح والعضد.

وذكر السيوطي أنه سافر لأخذ العلم إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور[1]، وأنه لما حجّ شرب من ماء زمزم بنيّة أن يصل في الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر. وقد بلغهما، كما يقول كثير من أهل العلم، أو كاد.

علومه وظهور فضله:

ظهر نبوغ السيوطي المبكر، فقد أجيز بتدريس علوم العربية وله من العمر سبعة عشر عاماً. وفي تلك السنة بدأ التأليف، فوضع كتابه «شرح الاستعاذة والبسملة»، الذي قرّظه شيخه علم الدين البلقيني، ولم يبلغ سن السابعة والعشرين إلاّ وقد تصدَّر لتدريس الفقه والحديث والإفتاء، وهي منزلة عالية.

ورغم ذلك لم يتوقف السيوطي عن طلب العلم، على أيدي مشايخ وأئمة الدين فيه بل استمرّ على ذلك دهراً.

وقد ذكر السيوطي أنه رزق التبحّر في سبعة علوم، هي: التفسير

---

(١) بلاد التكرور هي ما كان يعرف بالسودان الغربي وتشمل نيجيريا وتشاد وتمتد إلى مالي والسنغال وجامبيا. وسمّيت كذلك نسبة إلى قبائل التكرور، وفي السعودية يطلقون لفظ التكروني ويقصدوني التكروري، وهو الشخص الذي أتى من تلك البلاد. والعجيب حقاً أن تكون بلاد التكرور من منارات العلم حتى يسافر إليها طلبة العلم للتلقّي في جامعاتها في زمن السيوطي، كما أن رحلة السيوطي توضح وحدة العالم الإسلامي حضارياً وثقافياً وجغرافياً، ولم تكن هناك حدود مصطنعة من الهند وحدود الصين شرقاً إلى أقصى بلاد التكرور في غرب أفريقيا على المحيط الأطلسي.

والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة. واعترف أن شيخه البلقيني أرفع منه مقاماً في الفقه؛ وأمّا بقية هذه السبعة، فقد جاوز فيها مرتبة مشايخه وأهل عصره.

ومن دون هذه السبعة في المعرفة علوم أخرى هي أصول الفقه والجدل والتصريف، ودونها الإنشاء، والترسّل، والفرائض، ودونها القراءات، لم يأخذها عن شيخ، ودونها الطب. (وأما علم الحساب فهو أعسر شيء عليّ وأبعده من ذهني، وإذا نظرت في مسألة تتعلّق به، فكأنما أحاول جبالاً)، كما يقول عن نفسه في كتابه «حسن المحاضرة».

ثم يقول: وقد أزفّ الرحيل وبدأ الشيب وذهب أطيب العمر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنّفاً بأقوالها وأدلّتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرتُ على ذلك من فضل الله، لا بحولي ولا بقوّتي، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

عصر السيوطي:

لقد شهد السيوطي عصر انتقال مراكز الحضارة والعلم من بغداد وخراسان من المشرق، والأندلس من المغرب إلى مصر والشام... وذلك أن بغداد واجهت بعد زحف هولاكو دماراً رهيباً، كما أن دول المشرق الموجودة فيما يعرف بما وراء النهر، والمقصود نهر جيحون (أموداريا) وسيحون (سرداريا)، وهي البلاد الواقعة فيما يعرف باسم التركستان، وما يعرف بخراسان الموجودة حالياً في ثلاثة أقاليم هي تركمنستان، (في الاتحاد السوفيتي سابقاً)، وأفغانستان وإيران، وقد واجهت جميعها آثار الغزو المغولي المدمّر في القرن السابع الهجري (غزو هولاكو لبغداد سنة ٦٥٦هـ).

وتسمّى الفترة ما بين دخول المغول بغداد وظهور الدولة العثمانية ودخولهم مصر (سنة ٩٢٣هـ) «العصر المغولي»، حيث إن هؤلاء المغول دخلوا في الإسلام وافرين، بعد فترة عداء شديد له، ودخل بركة خان من الأورد الذهبي الإسلام كما دخل ابن هولاكو الثاني الإسلام، ولكن آثار الدمار المغولي للثقافة والعلم بقيت دهراً طويلاً. فقد أحرق جنكيز خان أثناء زحفه الرهيب المدمّر مئات الآلاف من الكتب ودمّر عشرات المكتبات الضخمة. وفي بغداد قام حفيده هولاكو بإقامة جسر من الكتب على نهر دجلة.

والذي فعله المغول في المشرق فعله الأسبان في الأندلس... ولم يدمّروا البلاد فحسب، ولكنهم قتلوا النساء والأطفال وطردوا الوجود العربي الإسلامي في الأندلس شرّ طردة، وأحرقوا مئات الآلاف من الكتب. وقد قام الكردينال زيمتسي بإحراق ثمانين ألف مجلد في مكتبة غرناطة في القرن التاسع الهجري.

وقد أدّى هذا العسف والجور والظلم في المشرق، حيث المغول، والطرد والإبادة في المغرب، حيث الأسبان، إلى نزوح أعداد كبيرة من أهل المشرق والمغرب صوب مصر والشام والشمال الأفريقي، وأصبحت حواضر الشام ومصر وتونس والمغرب مراكز للحضارة والعلم، وحلّت محلّ بغداد وبخارى ونيسابور وأشبيلية وغرناطة وقرطبة.. وكان نصيب القاهرة من ذلك كلّه أوفر نصيب، فقد كانت مصر الدولة التي هزمت المغول وهزمت الصليبيين.

وأدّى فقدان الثروة العلمية الضخمة التي أحرقها الغزو الوثني المغولي، والغزو الصليبي الأسباني إلى أن يقوم العلماء بوضع الموسوعات العلمية للحفاظ على ما بقي من هذه الثروة، كما أدّى هذا التدمير إلى إيجاد وعي تاريخي، فكثر في هذه الفترة المؤرّخون الذين سجّلوا في موسوعاتهم التاريخية كل الأحداث التي مرّت في تلك الفترة القاسية.

وقد شهدت هذه الفترة المغولية (ما بين دخول المغول بغداد ودخول العثمانيين مصر ٦٥٦ ـ ٩٢٣هـ)، التآليف الموسوعية الكبيرة في التاريخ مثل «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و «البداية والنهاية» لابن كثير، و «الكامل في التاريخ» لابن الأثير، و «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة، و «تاريخ الإسلام الذهبي»... إلخ، كما شهدت أيضاً المعاجم اللغوية والموسوعية مثل «لسان العرب» لابن منظور، و «نهاية الأرب» للنويري، و ««مسالك الأبصار» لفضل الله العمري، و «القاموس المحيط» للفيروزبادي، و «صبح الأعشى» للقلقشندي.

وفي هذه الفترة ظهر كثير من أعلام الفقه والحديث، ويكفي أن نذكر كتاب «فتح الباري في شرح صحيح البخاري»، لنستدلّ على الفكر الموسوعي لهذه الفترة الزمنية... ومن هؤلاء العلماء الموسوعيين الإمام جلال الدين السيوطي.

مؤلّفاته:

قال السيوطي في «حسن المحاضرة» عن مصنّفاته: (وشرعتُ في التصنيف في سنة ست وستين - ٨٦٦هـ وعمره آنذاك سبع عشرة سنة -، وبلغت مؤلّفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه). ثم زاد عليها في فترة انقطاعه وانعزاله التي امتدّت أكثر من عشرين عاماً، إذ أن السيوطي لما بلغ الأربعين، وطبّقت شهرته الآفاق وجاء إليه الطلبة والملوك، انعزل في داره في منيل الروضة (وهي جزيرة بين القاهرة القديمة والجيزة، وهي الآن جزء من القاهرة)، وتفرّغ السيوطي في تلك الفترة للعبادة والتأليف، واعتذر عن مخالطة الناس وعن التدريس، وألّف في ذلك رسالة سمّاها «التنفيس عن تركِ الإفتاء والتدريس». وقد ذُكِرتْ هذه الرسالة بعنوان «التنفيس في الاعتذار عن الإفتاء والتدريس».

وقد اخْتُلِفَ في عدد مؤلّفاته، فمنها الصغير ومنها الكبير، ومنها الذي لا يعدو عدة ورقات وهي بالمقالة أشبه. وقال الدكتور حسن مقبولي الأهدل في مقدّمة كتاب «المنهج السويّ والمنهل الرويّ» للسيوطي: إن مؤلفاته بلغت ٧٢٥ كتاباً ورسالة، وقد لاقت كتبه كثيراً من الرواج في حياته وبعد مماته. وقد أحصى حاجي خليفة في كشف الظنون ٥٧٦ كتاباً للسيوطي. وذكر ابن إياس في «بدائع الزهور» أن مؤلّفات السيوطي بلغت ستمائة مؤلّف. وذكر الشعراني أنها ٤٦٠ مصنّفاً. والشعراني معاصر للسيوطي، وقد حضر وفاته في القاهرة والصّلاة عليه. وقد أحصى يوسف سركيس في كتابه معجم المطبوعات العربية ٩٢ كتاباً، تَمَّ طبعها لغاية سنة ١٣٣٩هـ/١٩١٩م من كتب الإمام السيوطي. ولا شكّ أن أعداداً أكبر طبعت من تلك الفترة حتى اليوم (١٩٩٧)، كما أعيد طبع العديد منها. وذكر الأستاذ إياد خالد الطباع في كتابه «الإمام جلال الدين السيوطي: معلمة العلوم الإسلامية» الذي أصدرته دار القلم بدمشق أسماء مؤلفات الإمام السيوطي فأوصلها إلى ١١٩٤ مصنفاً. وقد ذكرها جميعاً وما هو مطبوع منها وما هو مخطوط، كما سكت عن أخرى لعلها مفقودة.

وقد بارك الله للإمام السيوطي في وقته، فأخرج هذه المؤلّفات الكثيرة. وقد ذكر السيوطي في «حسن المحاضرة» الفنون التي ألّف فيها، والكتب التي صنّفها في كل فن إلى حين كتابته تلك.

وإليك بعض مؤلّفاته في مخلف الفنون:

التفسير وعلوم القرآن:

١ ـ الإتقان في علوم القرآن (مطبوع).
٢ ـ الدرّ المنثور في التفسير المأثور (مطبوع).
٣ ـ تفسير الجلالين (جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي)، مطبوع عشرات الطبعات.
٤ ـ مفحمات الأقران في مبهمات القرآن (مطبوع).
٥ ـ شرح الشاطبية في القراءات.
٦ ـ تناسق الدرر في تناسب السور.
٧ ـ الأزهار الفائحة على الفاتحة.
٨ ـ حاشية على تفسير البيضاوي إلى سورة الإسراء.
٩ ـ إتمام الدراية لقراءة النقاية (مطبوع).
١٠ ـ الإكليل في استنباط التنزيل (مطبوع).
١١ ـ متشابه القرآن.
١٢ ـ ترجمان القرآن (مطبوع).
١٣ ـ التحبير في علم التفسير (مطبوع).

علوم الحديث:

والسيوطي يعتبر أعلم أهل زمانه بالحديث أو من أعلمهم ويقال إن السخاوي أحفظ منه في الأسانيد وهو أحفظ للمتون. وقد ذكر السيوطي أنه يحفظ مائتي ألف حديث بأسانيدها، وقال: لو وجدت أكثر لحفظته، ثم قال: ولعله لا يوجد على وجه الأرض الآن أكثر من ذلك. وقد شرب ماء زمزم كما ذكر بنيّة أن يصل في الحديث إلى مرتبة الإمام ابن حجر العسقلاني.

«وحكي عنه أنه قال: رأيت في المنام كأني بين يدي النبيّ ﷺ فذكرت له كتاباً شرعت في تأليفه في الحديث وهو جمع الجوامع، فقلت له: أقرأ عليكم شيئاً منه، فقال: هاتِ يا شيخ الحديث. قال: هذه البشرى عندي أعظم من الدنيا بحذافيرها[1].

---

(١) محيي الدين عبد القادر بن شيخ العيدروس: النور السافر عن أخبار القرن العاشر (غير مذكور سنة الطبع ولا الناشر) ص٥٤ ـ ٥٧.

ومن كتبه في علوم الحديث:

١ - جمع الجوامع: وهو كتاب جمع فيه كتب الحديث ونسقها تنسيقاً لم يعهد لأحد قبله في نظمه وشكله.

٢ - الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة (مطبوع).

٣ - ألفية الحديث: مطبوع مع شرح للترسي ومطبوع منفرداً.

٤ - تدريب الراوي شرح تقريب النواوي: مطبوع بتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف.

٥ - البحر الذي زخر في شرح نظم الدرر في علم الأثر (مخطوط).

٦ - التعقبات على الموضوعات (طبع بالهند).

٧ - تنوير الحوالك على موطأ مالك (طبع مرات عديدة).

٨ - كشف المغطّى في شرح الموطأ.

٩ - الجامع الكبير (طبعة مجمع البحوث الإسلامية بمصر).

١٠ - بغية الرائد في الذيل على مجمع الزوائد.

١١ - الأحاديث المنيفة (مخطوط).

١٢ - التوشيح في مشكلات الجامع الصحيح (طبع بالهند).

١٣ - الجامع الصغير (مطبوع).

١٤ - توضيح المدرك في تصحيح المستدرك (لم يتم).

١٥ - الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (مطبوع).

١٦ - الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج (مطبوع).

١٧ - الترشيح على الجامع الصحيح (لم يتم).

١٨ - الذيل الممهد على القول المسدد.

١٩ - رسالة في أسماء المدلّسين.

٢٠ - الروض المكلّل والورد المعلّل في مصطلح الحديث.

٢١ - زهر الربى على المجتبى وهو شرح سنن النسائي الصغرى (مطبوع).

٢٢ ـ شدّ الرحال في ضبط الرجال.

٢٣ ـ شرح الأذكار للنووي.

٢٤ ـ عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد (مخطوط).

٢٥ ـ عمل اليوم والليلة (مطبوع).

٢٦ ـ فضّ الوعاء في أحاديث رفع اليدين في الدعاء (طبع بالهند).

٢٧ ـ اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (مطبوع).

٢٨ ـ اللّمع في أسباب ورود الحديث (مطبوع).

٢٩ ـ ذيل اللآلئ (طبع ضمن مجموعة في الهند سنة ١٣٠٤هـ).

٣٠ ـ الذيل على المغني في الضعفاء للذهبي.

٣١ ـ ذيل طبقات الحفاظ (أي حفاظ الحديث) للذهبي، وقد طبع ملحقاً بتذكرة الحفاظ.

٣٢ ـ زوائد الرجال على تهذيب الكمال.

٣٣ ـ زوائد شعب الإيمان للبيهقي.

٣٤ ـ طبقات الحفاظ (مطبوع بتحقيق علي محمد عمر).

٣٥ ـ كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب (الخصائص الكبرى) (مطبوع).

وله في الفقه والتصوّف والعقائد:

١ ـ مختصر الروضة في الفروع ويسمّى الغُنية.

٢ ـ نظم جمع الجوامع في أصول الفقه للسبكي، نظمه السيوطي ثم شرح المنظومة وسمّاها الكون الساطع.

٣ ـ تشنيف الأسماع بمسائل الإجماع.

٤ ـ المصابيح في صلاة التراويح.

٥ ـ بُلغة المحتاج في مناسك الحاج.

٦ - وله الحاوي في الفتاوي وقد جمع فيه مجموعة من كتبه الصغيرة تبلغ ٧٨ كتاباً، وفيه فتاوى في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول والتصوّف والنحو واللغة، وهو مطبوع في مجلّدين.

٧ - الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع.

٨ - المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة (في التصوّف).

٩ - إتمام النعمة في اختصاص الإسلام بهذه الأمّة.

١٠ - البدور السافرة عن أمور الآخرة.

١١ - نتيجة الفكر في الجهر بالذكر.

١٢ - تزيين الآرائك في إرساله ﷺ إلى الملائك.

١٣ - مسالك الحنفاء في إسلام والديّ المصطفى.

١٤ - نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين.

١٥ - ذمّ القضاء (أي تولي القضاء وخطورته).

١٦ - ذمّ زيارة الأمراء (والتزلّف إليهم)، وقد كان السيوطي عفيفاً يرفض زيارة الأمراء وعطاياهم.

١٧ - طيّ اللّسان عن ذم الطيلسان.

١٨ - عين الإصابة فيما استدركته عائشة على الصحابة.

١٩ - الاحتفال بالأطفال.

٢٠ - ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين.

٢١ - مختصر نهاية ابن الأثير.

٢٢ - حسن المقصد في عمل المولد.

وللإمام السيوطي ست رسائل في نجاة أبويّ المصطفى ﷺ، وأنهما من أهل الجنة في الآخرة. وقد جمع هذه الرسائل مفتي الديار المصرية الأسبق الشيخ حسنين محمد مخلوف وطبع في القاهرة، مطبعة المدني، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، وقال الشيخ مخلوف في تصديرها: (وبعد، فإن من أهم

المباحث العلمية التي استفاض فيها القول، واحتدم الجدال بين أساطين العلماء في علوم الأصول والكلام والفقه، مبحث نجاة أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة إلى الإيمان بالله ورسله لبعد العهد واندراس الشرائع (ومن فروعه مبحث نجاة أبويّ النبيّ ﷺ، اللذين ماتا في الجاهلية قبل البعثة النبوية) وللعلماء فيه مسالك وسبل وأنظار استناداً إلى أحاديث وأخبار. وقد عني بتحقيقه وإماطة اللثام عن مشكلاته، وتذليل ما استعصى من معضلاته، والترجيح أو الجمع بين رواياته، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي، رحمه الله، أعظم عناية فألّف فيه عدّة رسائل جامعة، مؤيّدة بأدلّة ساطعة، مثبتة لنجاتهما وأنهما من أهل الجنّة...).

وهذه الرسائل هي:

١ ـ مسالك الحنفاء في إسلام أبويّ المصطفى.

٢ ـ التعظيم والمنّة في أن أبويّ الرسول في الجنّة.

٣ ـ الدرج المنيفة في الآباء الشريفة.

٤ ـ نشر العلمين المنيفين في إحياء الأبوين الشريفين.

٥ ـ المقامة السندسية في النسبة المصطفوية.

٦ ـ السبل الجلية في الآباء العلية.

وقد طبعت هذه الرسائل لأوّل مرة في الهند مع رسالتين أُخريين سنة ١٣١٦هـ، ثم في سنة ١٣٣٤هـ، ونشرها مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدّكن. ويقول المحقّق الشيخ حسنين مخلوف أن في الطبعتين السابقتين تحريفاً كبيراً وأغلاطاً فاحشة... ولذا قام بتحقيق هذه الرسائل ونشرها استجابة لطلب بعض أصدقائه ومحبّيه.

كتبه في التاريخ:

وللسيوطي في التاريخ كتب «طبقات الشافعية» و «طبقات الحفاظ» و «طبقات النحاة»، وله «ذيل على طبقات الحفاظ للذهبي»، وله في السيرة النبوية «الخصائص الكبرى» و «إسلام والديّ المصطفى» وفي إحيائهما ـ وقد مرّ ذكرهما ـ. وله مختصر «نهاية ابن الأثير»، وله «عين الإصابة في معرفة

الصحابة» (مخطوط)، و «**قطف الثمر في موافقات عمر**» (مطبوع)، وله «لبّ اللباب في تحرير الأنساب» طبع بهولندة سنة ١٨٥١م، ثم أعيد تصويره في بغداد (مكتبة المثنى)، وله «تاريخ أسيوط» و «تاريخ الخلفاء» (مطبوع)، و «در السحابة في من دخل مصر من الصحابة» و «الشماريخ في علم التاريخ».

وله الكتاب البديع «حُسن المحاضرة» الذي طبع سنة ١٢٩٩هـ، وسنة ١٣٢١هـ. وقد كتب عنه الأستاذ إبراهيم الأبياري في سلسلة «تراث الإنسانية» المجلّد الرابع ص٦٣٠ - ٦٤٤، دار الرشاد الحديثة (سنة الطبع غير مذكورة). وقد ترجم السيوطي لنفسه في هذا الكتاب ترجمة وافية على طريقة الأفذاذ في تلك العصور، ولا شكّ أن هذه الترجمة أصدق ترجمة عن المؤلّف وحياته ومؤلّفاته ونشاطه الفكري والديني.

وقد وصف في هذا المرجع التاريخي الهامّ الحياة العامّة في مصر ومدارسها، ومن دخل مصر من الصحابة، ومن كان بها من التابعين، ومن كان بها من رجال الحديث، ورجال الفقه، ورجال التاريخ والأدب واللغة والشعر. ثم وصف جغرافية مصر، ونيلها، وتاريخها الغابر وأهراماتها، وما قام به قدماء المصريّين، وما عرف عنهم من آثار في زمنه.

وذكر حكّام مصر وأمراءها منذ أن فتحت إلى أن ملكها الفاطميون، ثم ذكر هؤلاء الفاطميين واحداً واحداً إلى أن اتّخذها العباسيون داراً للخلافة بعد الغزو المغولي، ثم من أقام بها من العباسيّين.

ثم ذكر وزراء مصر وقضاتها وكُتّاب السّر، ثم ذكر جوامع مصر المشهورة ومدارسها العظيمة ومستشفياتها وأطباءها وطرق الكتابة وتقاليد المصريين ورسائلهم وألبستهم وطرق معيشتهم.

ولا شكّ أن الكتاب موسوعة كاملة حافلة عن مصر، لا يمكن أن يستغني عنه باحث.

وله في **اللغة والنحوّ** وما إليها أربعون كتاباً، منها:

١ - شرح شواهد المغني (مطبوع).

٢ - جمع الجوامع وشرحه همع الهوامع.

٣ ـ البهجة المرضية في شرح الألفية.

٤ ـ السيف الصقيل في نكت شرح الألفية لابن عقيل.

٥ ـ الألفية في النحو واسمها «الفريدة» (مطبوع).

٦ ـ الأشباه والنظائر في العربية (مطبوع).

٧ ـ الأذكار في ما عقده الشعراء من الآثار (مخطوط).

٨ ـ الاقتراح في أصول النحو (مطبوع).

٩ ـ الألفاظ المعربة (مخطوط).

١٠ ـ بديعية وشرحها (مخطوط).

١١ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة (مطبوع).

وله كتب الطبقات، مثل: طبقات الشافعية، وطبقات النحاة، وله شرح الصدور بشرح أحوال القبور، والحجج المبيّنة في التفضيل بين مكّة والمدينة، وغيرها كثير.

كتبه في الطب النبوي والطب:

مؤلّفات الإمام السيوطي في الطب هي إلى علوم الحديث أقرب، وإن كانت تمزج المعلومات الطبية المتوفّرة في زمنه إلى ما يعلمه من الأحاديث الواردة في الباب.

ومن كتبه في هذا الباب ـ وسنستعرضها فيما بعد بشيء من التفصيل ـ:

١ ـ المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي، وقد حقّقه الدكتور حسن محمد المقبولي الأهدل ونشرته مكتبة الجيل الجديد (صنعاء) ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦م، هو رسالة ماجستير في علوم الحديث من الجامعة الإسلامية... وسنتحدث عن هذا الكتاب بشيء من التفصيل فيما بعد.

٢ ـ كتاب الطب النبوي، وقد ذكر الأهدل أنه غير المنهج السويّ والمنهل الرويّ وهو موجود مخطوطاً بتركيا، ويبدو أنّه الكتاب السابق بعد

اختصاره واقتصاره على الأحاديث النبويّة فقط دون ذكر الشروح الطبيّة.

٤ - ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، وهو لا يزال مخطوطاً. وهو يتحدث عن الطاعون وحوادثه وما ورد فيه من أحاديث نبوية.

٥ - مجموعة رسائل نشرت باسم مقامات السيوطي الأدبية والطبية، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم سليم.

٦ - كتاب «نقاية العلوم»، وهو مخطوط وفيه عدة رسائل منها «رسالة في علم التشريح»، و «شرح كليات الطب».

شيوخه:

لقد ذكر السيوطي شيوخه في كتابه «حُسن المحاضرة»، ولا شكّ أن والده الكمال أبا بكر كان أوّل شيوخه، فقد لقّنه القرآن الكريم وحفظ منه إلى سورة الممتحنة، ثم مات والده وهو طفل صغير له خمس سنوات وسبعة أشهر. ثم اعتنى به كمال الدين بن الهمام، فحفظ القرآن الكريم ولمّا يبلغ الثامنة. وفي المدرسة الشيخونية حفظ السيوطي عمدة الأحكام ومنهاج النووي وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوي، وهو دون البلوغ على مشايخه.

وأخذ الإمام السيوطي عن الجلال المحلي الذي أكمل السيوطي فيما بعد تفسيره واشتهر بـ«تفسير الجلالين»، وهو من أكثر التفاسير انتشاراً، واستفاد منه السلف والخلف، وأخذ السيوطي علم الفرائض عن العلاّمة فرضي زمانه **الشيخ شهاب الدين الشارمساحي**، (نسبة إلى شارمساح وهي قرية قريبة من دمياط)، الذي جاوز المائة من عمره المديد وقرأ عليه، كما يقول السيوطي، في شرحه على المجموع... وقرأ أيضاً على **الزين العقبي**، ودرس فقه الإمام الشافعي على يد **علم الدين البلقيني** الذي لا يذكره السيوطي إلاّ بشيخ الإسلام، ولازمه حتى توفي، فلزم بعده ولده، وقرأ عليهما عدداً من كتب الفقه. وقد أجازه شيخه في الإفتاء والتدريس وله من العمر ٢٧ عاماً (سنة ٨٧٦هـ)، فلما توفي سنة ٨٧٨هـ، لزم السيوطي **شرف الدين المناوي**، وقرأ عليه كثيراً من الكتب في الفقه والتفسير.

ولزم في الحديث والعربية **تقي الدين السني الحنفي** لمدة أربع سنوات، وكتب له شيخه تقريظاً على ألفية ابن مالك وجمع الجوامع في العربية والتي

ألفها السيوطي. وكان شيخه كثير الثناء والتشجيع للسيوطي... وقد لزمه السيوطي إلى حين وفاته، ثم لزم **محيي الدين الكافيجي** أربع عشرة سنة، وقد ذكره السيوطي بالتبجيل والتوقير، وقال عنه: (إنه أستاذ الوجود)، وأخذ عنه السيوطي التفسير والأصول والعربية والمعاني وغير ذلك. وكتب للسيوطي إجازة عظيمة، كما يقول السيوطي في «حُسن المحاضرة».

وحضر السيوطي عند الشيخ **سيف الدين محمد الحنفي** دروساً في الكشاف للزمخشري، والتوضيح وحاشية عليه، وتلخيص المفتاح والعضد.

وقرأ السيوطي على الشيخ **محمد بن موسى السيرامي** صحيح مسلم إلاّ قليلاً، والشفاء للقاضي عياض وغيرهما من الكتب.

وأخذ السيوطي عن نسوة من أهل العلم. وأمّا مشايخه في الرواية سماعاً وإجازة، فكثيرون ذكرهم في المعجم الذي جمعهم فيه وعدّتهم نحو مائة وخمسين. ويقول السيوطي: ولم أكثر من سماع الرواية لاشتغالي بما هو أهم وهو قراءة الدراية.

وقرأ السيوطي على **الشمس المرزباني الحنفي** كتاب الكافية وشرحها للمصنف، ومقدمة إساغوجي وشرحها للكاتي، وسمع عليه من المتوسط والشافية وشرحها للجاربردي، ومن ألفية العراقي ولزمه حتى مات سنة ٨٦٧هـ.

وقرأ السيوطي على **العز الكناني**، وفي الميقات على **مجد الدين بن السباع والعز بن محمد الميقاتي**، وقرأ على التقي **الحصكفي والشمس البابي**.

ودرس الطب على يد محمد بن إبراهيم الدواني لما قدم القاهرة من الروم (وهي الأناضول في تركيا اليوم).

تلاميذه:

لا شكّ أن تلاميذ السيوطي يعدون بالمئات. وأمّا الذين استفادوا من كتبه على مرّ العصور والأحقاب، فلا يحصيهم إلاّ خالقهم وباريهم. ومن أشهر تلامذة السيوطي:

١ - محمد بن علي الداودي المتوفى سنة ٩٤٥هـ، وهو مالكي المذهب والسيوطي شافعي. وقد جمع ترجمة لشيخه السيوطي وله دليل على «البّ

الألباب في الأنساب»، وطبقات المفسّرين.

٢ - زين الدين أبو حفص عمر بن أحمد الشماع محدث حلب المتوفى سنة ٩٣٦هـ، وله من المصنّفات: الكواكب النيّرات، والعذب الزلال.

٣ - محمد بن أحمد بن إياس مؤلف «بدائع الزهور» والمتوفى سنة ٩٣٠هـ.

٤ - محمد بن يوسف الشامي الصالحي المصري المتوفى سنة ٩٤٢هـ، محدّث الديار المصرية ومؤلّف كتاب الفوائد المجموعة في بيان الأحاديث الموضوعة.

٥ - شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون (من نسل حاكم مصر أحمد بن طولون) الشامي الدمشقي الحنفي المحدّث المشهور المتوفى سنة ٩٥٣هـ، وله كتاب «المنهل الرويّ في الطب النبوي»، طبع في الهند سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، وسنستعرضه في حينه.

٦ - عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الصوفي المحدّث المشهور، المتوفى سنة ٩٥٣هـ.

مكانة السيوطي وزهده وورعه:

لقد بلغ السيوطي، رحمه الله، مكانة عظيمة وتبوّأ الصدارة في كثير من العلوم أهمها كما ذكر: علوم الحديث والتفسير والفقه والنحوّ واللغة. ومن دونها أصول الفقه والجدل والتصريف، ومن دونها الإنشاء والترسّل والفرائض والقراءات، ومن دونها جميعاً الطبّ.

ولما أقبلت الدنيا على السيوطي أوصد بابه دونها واعتزل الناس وقعد في داره في الروضة (روضة المنيل في القاهرة)، وتفرّغ للعبادة والتأليف تفرّغاً تامّاً واعتذر عن التدريس والفتيا ولقاء الناس، وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه.

وكان الأمراء يرسلون إليه الأموال فيردّها، وقد أرسل له السلطان الغوري مرة خَصِيّاً وألفي دينار، فردَّ الدنانير وأخذ الخصي، ثم أعتقه وجعله خادماً للحجرة النبوية، وقال لرسول السلطان: لا تعد تأتينا قط بهدية، فإن الله أغنانا عن مثل ذلك.

وعاش الرجل عظيماً يعفّ عمّا في يد الأمراء والوزراء والكبراء، فسعى

إليه الأمراء والوزراء والكبراء. وقد وضع السيوطي عدة كتب تذمّ زيارة الأمراء والسلاطين وتولّي القضاء تحت حكمهم الجائر، نذكر منها كتابه «ذمّ القضاء»، و «ذمّ زيارة الأمراء»، و «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين». وهو موقف يشهد للسيوطي بعزّة النفس والزهد والشجاعة وقول الحقّ في وجه الحكّام الظلمة. ومع ذلك، فإن هؤلاء الحكام، على ما فيهم من جور، كانوا يحترمون العلماء ويُجِلُّونَهم ويتودّدون إليهم ويودّون أن يقبل منهم العلماء أعطياتهم وهداياهم.

وشتّان بين ما كان عليه العلماء العاملين والسلاطين في تلك الأيام، وما نحن عليه، حيث يزحف العلماء متملّقين منافقين، والحكّام يحتقرونهم... ومع ذلك فهناك علماء أجلّاء يرفضون الخضوع للحكام ويجهرون بكلمة الحق ولو دفعوا في سبيلها حياتهم.

وقد جمع الله للسيوطي العلوم الوافرة والمكانة الرفيعة مع الزهد والعِفّة والقناعة والترفّع عن الدنيا والدنايا، فاعتزل في داره بعد بلوغه الأربعين، وتفرّغَ للعبادة والتأليف. وظهرت أنواره وأشرقت أعلامه وتواترت بركاته في حياته وبعد مماته، وله كرامات كثيرة كما يقول العيدروس في «النور السافر».

وفاته:

توفي الإمام السيوطي، رحمه الله، سحر ليلة الجمعة، التاسع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة (٩١١هـ)، بعد مرض تورّمت فيه ذراعه اليسرى لمدة سبعة أيام، ومات وله من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً؛ كما يقول الشعراني في ذيل طبقاته. قال الشعراني: (ولما جئت إلى مصر قبيل موته اجتمعت به مرة واحدة تبرّكاً ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعي موته).

وقال الغزي في «الكواكب السائرة»: «وكان له مشهد عظيم وصُلِّيَ عليه غائبةً بدمشق بالجامع الأموي يوم الجمعة ثامن رجب من سنة إحدى عشرة وتسعمائة».

وذكر جمال الدين الشبلي في كتابه «السني الباهر بتكميل النور السافر»: أن السيوطي دفن بجوار والده، وأن الأمير قرقماش صنع له تابوتاً وستراً أسود

مطرّزاً بآية الكرسي وصار ضريحه مقصوداً بالزيارة والتبرّك. ثم قال: ولما مات لم يتعرّض أحد في تركته مع أن الزمن كان زمن جور. وقال الغوري (حاكم مصر): لم يقبل الشيخ منّا شيئاً في حياته، فلا نتعرض لتركته بعد مماته».

وقد حقّق العلاّمة أحمد تيمور، رحمه الله، موضع قبر السيوطي في مقال نشره بمجلة الزهراء سنة ١٣٤٦هـ، وقد انتهى المحقّق إلى أن قبره في الموضع المعروف عند العامة ببوابة السيدة عائشة (التيمورية، تحت القلعة في مدينة القاهرة)، وقبر السيوطي معروف. وقد زار هذا القبر النابلسي في أوائل القرن الثاني عشر الهجري، وذكر ذلك في رحلته المسماة «الحقيقة والمجاز». ثم زاره الفاسي في رحلته إلى الحجاز في القرن الثالث عشر الهجري.

وفي مدينة أسيوط مسجد يعرف بجامع سيدي جلال الدين السيوطي، وبه ضريح تزعم العامة ـ جهلاً ـ أنه ضريح السيوطي، ويقول أحمد تيمور: إن هذا الجامع مكان المدرسة التي أقامها جدّ الإمام السيوطي والتي ذكرها في «حُسن المحاضرة»، وربما كان الضريح لباني المدرسة أو أحد ذويه.

ويقول تيمور: وثمة فئة في أسيوط تزعم أنها من ذريّة السيوطي، ويعرف كل فرد منها بالجلالي. ولكن المحقّقين أجمعوا على أن السيوطي لم يعقّب، فلعل نسبتهم إليه كانت عن علاقة لاتصالهم بالضريح.

بعض الكتب التي ترجمت للسيوطي والتي ذكرت مصنّفاته:

١ ـ **«حُسن المحاضرة»** للإمام السيوطي... وهو أهم مصدر لترجمة حياة السيوطي ونشاطه العلمي. وقد ترجم السيوطي لنفسه كما كان يفعل الأفذاذ في عصره، وفي العصور التي سبقته ولحقته، وقد كان السيوطي دقيقاً كل الدقّة، أميناً كل الأمانة في هذه الترجمة الذاتية. وما ورد فيه من ذكر لاشتهار كتبه وتداولها بين الناس ومقدرته على التأليف، إنما كان من باب التحدّث بنعمة الله. وأن ذلك بفضل الله عليه وأنه لا حول له ولا قوّة، وإنما ذلك من فضل الله وحوله وقوّته... قال السيوطي: (وقد أزفَ الرحيل وبدأ الشيب وذهب أطيب المر، ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلّتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها

وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله، لا بحولي ولا بقوتي، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله، لا قوة إلا بالله). وقد زهد السيوطي في الدنيا واعتزل الناس عندما بلغ الأربعين وردّ الأمراء والسلاطين وأعطياتهم، كما قد مرّ معنا. وقد ترجم لنفسه في الجزء الأول ص٣٣٥ ـ ٣٤٤.

٢ ـ **بدائع الزهور في وقائع الدهور** لمحمد بن محمد بن إياس أحد تلاميذ السيوطي المشهورين ترجم له ترجمة وافية (ج٢/١١٩، ١٢٠، ٢٠٧، ٢٨١).

٣ ـ **الطبقات الصغرى** لعبد الوهاب بن أحمد الشعراني الصوفي المحدّث. ويعتبر أيضاً من تلاميذ السيوطي (ج١/١٧)، وفي ذيل الكبرى (ج٢/١٩ ـ ٢١).

٤ ـ **الضوء اللامع** للسخاوي، وقد كانت بينهما مشاحنات كثيرة، فلا يعتد بقول كل واحد منهما في الآخر (ج٤/ ٦٤ ـ ٦٩).

٥ ـ **شذرات الذهب** لابن العماد (ج٨/ ٥١ ـ ٥٣).

٦ ـ **كشف الظنون** لحاجي خليفة ذكر ٥٧٦ مصنفاً من مصنفات السيوطي ذكرها في مواضع متفرّقة.

٧ ـ **النور السافر** للإمام العيدروس (ص٥٤ ـ ٥٧).

٨ ـ **الكواكب السائرة** (ج١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

٩ ـ **درة الحجال في أسماء الرجال** (ج٣/ ٩٢ ـ ٩٤).

١٠ ـ **هدية العارفين** (ج٦/ ٤).

١١ ـ **عقود الجوهر** (١٩٤ ـ ٢١٦).

١٢ ـ **البدر الطالع** للشوكاني (ج١/ ٢٢٨).

١٣ ـ **الرسالة المستطرفة** للكتاني ص٨٤، ومواضع أخرى متفرقة.

١٤ ـ **فهرس الفهارس** (ج٢/ ٣٥٩).

١٥ ـ **الأعلام للزركلي** (الطبعة الخامس ١٩٨٠م)، (ج٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

١٦ ـ **معجم المؤلفين**، لرضا كحالة.

١٧ ـ **معجم سركيس** للمطبوعات العربية والمعرّبة (ص١٠٧٣ ـ ١٠٨٥).

١٨ ـ **مكتبة الجلال السيوطي** (مجلد صدر بالمغرب لمحمد شرقاوي إقبال عن حياة الجلال السيوطي ومؤلّفاته).

١٩ ـ **جلال الدين السيوطي**، ندوة المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية مع اشتراك الجمعية المصرية للدراسات وفيه خمس محاضرات عن السيوطي.

٢٠ ـ **الموسوعة العربية الميسرة** (ص١٠٥٩).

٢١ ـ **الموسوعة الثقافية** (ص٥٨٤).

٢٢ ـ **المنجد للأعلام** (ص٣٧٨).

٢٣ ـ **فهرس الأزهر** (ج٦/ ٢٨٧).

٢٤ ـ **التفسير والمفسّرون** لمحمد حسين الذهبي (ج١/ ١٤٥).

٢٥ ـ **الإمام جلال الدين السيوطي** للدكتور علي صافي.

٢٦ ـ **تاريخ الأدب العربي** (ج١/ ١٤٥).

٢٧ ـ **المجدّدون** (ص٦٢١).

٢٨ ـ **حسن المحاضرة** لجلال الدين السيوطي: كتب عنه إبراهيم الأبياري، سلسلة تراث الإنسانية (ج٤/ ٦٣٠ ـ ٦٤٤)، دار الرشاد الحديثة.

٢٩ ـ **المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي** للسيوطي تحقيق وتخريج ومقدمة لحسن محمد مقبولي الأهدل (رسالة ماجستير في الحديث من الجامعة الإسلامية)، نشرته مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

٣٠ ـ **الطب النبوي والعلم الحديث** للدكتور ناظم نسيمي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٧م، (الطبعة الثانية) (ج١/ ١٠٠ ـ ١١١)، والترجمة قصيرة جداً ولكنه تحدّث باستفاضة عن كتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي للسيوطي.

٣١ ـ **جلال الدين السيوطي معلمة العلوم الإسلامية** للأستاذ إياد خالد الطباع، إصدار دار القلم بدمشق ١٩٦٦م. وهو أحدث ما صدر عن الإمام السيوطي وأوسع الدراسات عنه. ولكن المؤلف حفظه الله لم يذكر كتب الإمام السيوطي في الطب النبوي والطاعون لتأتي هذه الرسالة تكملة لهذا الجهد المبارك إن شاء الله تعالى.

٣٢ ـ **مقدمة كتاب الحاوي للفتاوي** للإمام السيوطي وفيه تعريف بالسيوطي نقلاً عن «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد. كما أن الكتاب يحوي ٧٨ فتوى ورسالة، وهي معدودة ضمن مؤلّفات السيوطي.

وكل من نشر رسالة أو كتاباً للإمام السيوطي وضع مقدمة موجزة ذكر فيها حياة السيوطي وآثاره العلمية... وقد تكون الترجمة مسهبة.

مَا رَوَاهُ الوَاعُونَ

فِي أَخْبَارِ الطَّاعُونِ

لِلإِمَامِ جَلَالِ الدِّينِ السِّيُوطِيِّ

المتوفّى سَنَة ٩١١ هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله مقدّر الأرزاق والآجال، والصّلاة والسّلام على سيدنا محمد والصحب والآل.

هذا جزءٌ انتخبتُ فيه ما ورد في أخبار الطاعون، اختصرته من [كتاب][1] «بذل الماعون» لشيخ الإسلام ابن حجر [العسقلاني]، فأتيتُ بالمقصود، وحذفتُ الأسانيد وما وقع على سبيل الاطراد[2]، والله أعلم بالمراد[3].

مبدأ الطاعون، والطاعون في الأمم السابقة وبني إسرائيل:

أخرج أحمد والبخاري ومسلم[4] من طريق حبيب بن أبي ثابت، قال: كنتُ بالمدينة، فبلغني أن الطاعون بالكوفة، فلقيت إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص فساءَلته فقال: سمعت أسامة بن زيد يُحدِّث أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب، عُذِّبَ به قوم قبلكم»، وفي لفظ آخر: «رجز أهلك الله به بعض الأمم، وقد بقيَ في الأرض منه شيء يجيء أحياناً ويذهب أحياناً».

وأخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده، ومسلم والنسائي من طريق إبراهيم بن سعد عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عُذِّبَ به قوم قبلكم، فإذا وقع بأرض بها فلا تخرجوا منها فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا

---

(1) ما بين معقوفتين إضافة مني.
(2) في النسخة المخطوطة (ب): الاستطراد.
(3) غير موجودة في (ب)، وبدلاً عنها (والله الموفق).
(4) في المخطوطة ب: أخرجه الشيخان واللفظ لمسلم. وليس فيها من طريق حبيب... فقد اختصره وقال: عن أسامة بن زيد وساق الحديث. وفي آخره: «بقية عذاب عذب الله به قوماً»، وفي لفظ له: «ناساً قبلكم».

تدخلوا عليه»[1].

ما جاء في قوم فرعون والآيات الخمس:

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم[2] في تفاسيرهم عن سعيد بن جبير، قال: «أمر موسى قومه من بني إسرائيل بعد ما جاءَ قومَ فرعونَ الآيات الخمس: الطوفان وما ذكر الله في [كتاب] الله[3]، فلم يؤمنوا، أو لم يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال: ليذبح كل رجل[4] منكم كبشاً ثم ليخضب كفَّه في دمه، ثم ليضرب به على بابه، فقال القبط لبني إسرائيل: لم تجعلون هذا الدم على أبوابكم؟ فقالوا: إن الله مرسل عليكم عذاباً يقتلكم وتهلكون، فأصبحوا وقد طُعِن من قوم فرعون سبعون ألفاً، فأمسوا وهم لا يتدافنون. فقال فرعون عند ذلك لموسى[5]: ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كففت عنَّا الرجز، وهو الطاعون، لنؤمنَّن لك، ولنرسلنَّ معك بني إسرائيل، فدعا ربَّه فكشف عنهم». مرسل الإسناد، ورُوي موصولاً عن ابن عباس [رضي الله عنهما][6].

---

(١) هذه الفقرة بكاملها غير موجودة في المخطوطة ب.

(٢) في المخطوطة ب: وأخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد.

(٣) في المخطوطة ب: (وما ذكر الله في الآية)، وهو الصواب. والآية هي قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدمآيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ [الأعراف: ١٣٣].

(٤) في المخطوطة (ب): ليذبح كلُّ منكم.

(٥) في المخطوطة (ب): عليه السلام.

(٦) وردت هذه القصة في التوراة في سفر الخروج حيث تذكر أن الرب ضرب فرعون وقومه ضربات متتالية، وفي كل مرة يطلب فرعون من موسى ـ (عليه السلام ـ أن يرفع عنهم العذاب ليرسل معه بني إسرائيل، ولكن فرعون ينكث وعده. وتأتي الضربة الأخيرة: - هكذا يقول الرب ـ إني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحا، وكل بكر بهيمة، ويكون صراخ عظيم في أرض مصر، لم يكن مثله ولا يكون مثله أيضاً... ولكن جميع بني إسرائيل لا يسنن كلب إليهم، لا إلى الناس ولا إلى البهائم، لكي تعلموا أن الربُّ يميّز بين المصريين وإسرائيل. (الخروج ١١: ٤ ـ ٧).
والغريب حقاً أن الرب يطلب من بني إسرائيل أن يضعوا علامة الدم على أبواب بيوتهم حتى لا يخطئ ويهلكهم عندما يمر ويهلك المصريين... وهو لا يعرف البيوت فلا بد

قصة بلعام بن باعوراء وزنى بني إسرائيل:

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن حبّان [في][1] التفسير من طريق سليمان التيمي التابعي المشهور عن سيّار، أحد ثقات التابعين أن رجلاً كان يقال له بلعام، كان مجاب الدعوة. وأن موسى أقبل في بني إسرائيل يريد الأرض التي فيها بلعام[2]، فقالوا: ادعُ الله عليهم، قال: حتى أوامر ربّي، فوامر فقيل له: لا تدع عليهم فإنهم عبادي، ونبيّهم معهم. فأعدوا له هديّة فقبلها، ثم راجعوه فقال: حتى أوامر ربّي، فوامر فلم يَرجع إليه شيء، فقالوا: لو كره ربُّك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرّة الأولى، فأخذ يدعو عليهم فيجري على لسانه الدعاء على قومه. وإذا أراد أن يدعو لقومه دعا أن يُفتَح لموسى وجيشه فلاموه، فقال: ما يجري على لساني إلاّ هكذا، ولكن سأد[لكم][3] على أمر عسى أن يكون في هلاكهم، إن الله يبغض الزّنا، وإنّهم إن وقعوا في الزنا هلكوا به، فأخرجوا النساء فلتستقبلهم فإنهم قوم مسافرون، فعسى أن يزنوا فيهلكوا، ففعلوا فوقعوا في الزنا، فأرسل الله على بني إسرائيل الطاعون، فمات منهم سبعون ألفاً[4]. مرسل جيّد الإسناد، وله عند ابن جرير طرق أخرى مرسلة يشدُّ بعضها بعضاً.

= له من علامة!! ولذا تأمرهم التوراة أن يذبحوا غنماً: وخذوا زوفة واغمسوها في الدم الذي في الطست، ومسّوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذي في الطست... فحين يرى الدم على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب، ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب (الخروج ١٢: ٢١ ـ ٢٤). هكذا يزعمون في توراتهم المحرّفة. والقصة هاهنا تختلف كثيراً عما أورده المفسّرون من أمثال ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد.

(١) في المخطوطة (ب): وأخرج ابن جرير من طريق سليمان وليس فيها وأبو الشيخ وابن حبان.

(٢) في (ب): فرعبوا منه رعباً شديداً فأتوا بلعام.

(٣) في (ب): سأدلكم، وهو الصواب. بينما هي هنا: ساد، وهو خطأ من الناسخ.

(٤) وردت قصة بلعام في التوراة وقصة زنا الإسرائيليين بالنساء الموآبيات بصورة مختلفة في التفاصيل عمّا أورده ابن جرير، فقد جاء في سفر العدد من التوراة المحرفة، الإصحاح ٢٢: أن بني إسرائيل في عهد موسى ارتحلوا إلى الأردن ونزلوا في عربات موآب. وخاف ملك موآب ـ بالاق بن صفور ـ من أن ينهزم أمام بني إسرائيل فطلب من بلعام بن باعوراء، وكان رجلاً مجاب الدعوة أن يدعو على بني إسرائيل، فرفض بلعام بعد أن ظهر له الرب حسب زعمهم وقال له: لا تذهب وتلعن الشعب، لأن شعب إسرائيل =

= مبارك. وكرّر الملك الدعوة والهدايا، فطلب بلعام من الملك أن يبني له سبعة مذابح ففعل الملك وقرّبوا القرابين للرب، لأن الرب حسب زعمهم يحبّ اللحم المشوي جداً. ولكن الرب جعل بلعام يدعو لإسرائيل ويمدحهم وكرّر ذلك ثلاثة أيام، فغضب الملك وقال: دعوتك لتشتم أعدائي وها أنت قد باركتهم الآن ثلاث مرات... ولكن بلعام استمرّ في مدح إسرائيل وتنبأ بلعام قائلاً: يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب، ويهلك كل بني الوغى، ويكون أدوم ميراثاً ويكون سعير أعدائه ميراثاً. ويصنع إسرائيل ببأس. ويتسلّط ابن يعقوب ويهلك الشارد من المدينة.

ولا تذكر التوراة أن بلعام نصح ملك موآب بأن يبرز الموآبيات لبني إسرائيل حتى يزنوا بهنّ، بل على العكس من ذلك تصفه بأنه دعا لإسرائيل بالنصر وباركها، ورغم ذلك فإنهم جازوه جزاء سنمار، فما كادت إسرائيل تنتصر على أهل مديان ـ مدين ـ حتى أبادوهم جميعاً بالسيف، وبحثوا عن بلعام فقتلوه بحدّ السيف (سفر العدد ٣١: ٩).

زنى بني إسرائيل مع بنات مؤاب:

وتذكر التوراة قصة زنى بني إسرائيل بالموآبيات في سفر العدد الإصحاح الخامس والعشرين، ولم تكن لبلعام مشورة في ذلك كما جاء في كثير من التفاسير عند المسلمين، وكما أورده ابن حجر والسيوطي هاهنا، بل كان ذلك كلّه بمبادرة من الموآبيين عندما رأوا أنهم سيهزمون. وإليك نصّ ما جاء في سفر العدد (الإصحاح ٢٥: ١ ـ ٩):

«وأقام إسرائيل في شطيم ـ اسم موقع ـ، وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب، فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلق إسرائيل ببعل فغور ـ وهو صنم كان يعبد في تلك المنطقة وفي لبنان واسمه البعل ـ، فحَمِيَ غضب الربُّ على إسرائيل، فقال الربُّ لموسى خذ جميع الشعب وعَلِّقهم للربِّ مقابل الشمس فيرتدَّ حُمُوُّ غضب الربِّ عن إسرائيل، فقال موسى لقضاة إسرائيل: اقتلوا كلُّ واحدٍ قَوْمَهُ المتعلّقين ببعل فغور. وإذ جاء رجل من بني إسرائيل وقدّم إلى إخوته المديانيّة أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع ـ وهي الخيمة التي يزعمون أن موسى يجتمع فيها مع الرب ـ، فلما رأى ذلك فينحاس بن العازار بن هارون الكاهن ـ يسمون النبي هارون عليه السلام كاهناً ـ قام من وسط الجماعة، وأخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبّة ـ وهي نفسها خيمة الاجتماع وتسمى أحياناً قبّة الزمان ـ، وطعن كليهما: الرجل الإسرائيلي والمرأة في بطنها فامتنع الوباء عن بني إسرائيل، وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً».

وهكذا حتى العدد يختلف، ففي التفاسير ـ ابن جرير وابن حبان وأبو الشيخ ـ نجد ضحايا الطاعون سبعون ألفاً، بينما هم في سفر العدد من التوراة المحرّفة ٢٤ ألفاً.

نبيّ الله والطاعون في الأحاديث النبوية:

وأخرج في مسنده عن عليّ بن أبي طالب [رضي الله عنه] «أنّ نبياً من الأنبياء عصاه قومه، فقيل له: نقتلهم بالجوع، قال: لا. قال: نسلّط عليهم عدواً من غيرهم، قال: لا، ولكن موت ذفيف، فسلّط الله عليهم الطاعون، فجعل يقلّ العدد ويحرق القلوب، وهو بقية عذاب عُذِّبَ به من كان قبلكم»، إسناده حسن.

وفي المبتدأ لابن إسحاق: أن الله أوحى إلى داود أن بني إسرائيل قد كثر طغيانهم، فخيّرهم بين ثلاث: إما أن أبتليهم بالقحط سنتين، أو أسلّطَ عليهم العدو شهرين، أو أرسل عليهم الطاعون ثلاثة أيام، فخيَّرهم، فقالوا: أنت نبيّنا فاختر لنا. فقال: فأما الجوع فإنه بلاء فاضح لا صبر عليه، وأمّا العدوّ فلا بقيّة معه، فاختار لهم الطاعون، فمات منهم إلى أن زالت الشمس سبعون ألفاً، فتضرّع داود إلى الله فرفعه عنهم. فقال: إن الله قد رحمكم فأحدثوا له شكراً بقدر ما أبلاكم، فشرع في تأسيس المسجد، بيت المقدس، إلى أن كان إكماله على يد ولده سليمان[1].

---

(1) جاءت هذه القصة في أسفار العهد القديم المحرّفة وبالذات في سفر صموئيل الثاني الإصحاح ٢٤، حيث أمر الربّ داود بأن يحصي إسرائيل ويهوذا. وإحصاء اليهود أمر مستنكر لديهم لأن الإحصاء يتبعه دائماً هلاك وعذاب، فأحصاهم داود فوجد عدد المقاتلين من إسرائيل - وهم جميع الأسباط ما عدا سبط يهوذا ولاوي - ثمانمائة ألف رجل ذي بأس مستلّ السيف... ورجال يهوذا خمسمائة ألف. أما سبط لاوي - قبيلة موسى وهارون - فمنهم الكهنة والأحبار والأنبياء حسب زعمهم، ولذا لا يدخلون في أعداد المقاتلين. وهذه الأعداد مبالغ فيها جداً. وحزن داود بعد أن أحصى الشعب وتضرّع للربّ، ولكن الربُّ كلّم النبيّ جاد - رائي داود - - داود عندهم ملك وليس نبيّاً، وأما سليمان عليه السلام فملك وساحر -، وقال له: خيّر داود بين واحدة من ثلاث: أما جوع في الأرض لمدة سبع سنين، أو تهرب ثلاثة أشهر أمام أعدائك وهم يهزمونك، أو ثلاثة أيام وباء. فاختار داود الوباء فمات من الشعب سبعون ألف رجل. وبسط المَلَكُ يده على أورشليم - بيت المقدس - ليهلكها فندم الربّ عن الشرّ - دائماً يندم الرب حسب زعمهم الكاذب على الشر الذي يريد أن يوقعه بابنه البكر إسرائيل -، وقال الرب للملاك: كفى الآن ردّ يدك عن الشعب. وفرح داود والشعب بذلك وقدّموا للرب محرقات ذبائح لأن الرب حسب زعمهم اشتاق جداً لرائحة اللحم المشوي والذي يحبُّه الربُّ جداً، ومستعد أن يتنازل عن نصف مملكته في سبيل رائحة الشواء اللذيذ!!! ألا لعنة الله على اليهود وعلى ما كتبوه بأيديهم وقالوا هذا من عند الله، وما هو من عند الله.

وأخرج أحمد والنسائي وابن حِبّان بسند صحيح على شرط مسلم عن صهيب، قال[1]: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى همس شيئاً [نكاد][2] نفهمه، ولا يحدّثنا به. فقال رسول الله ﷺ: «فطِنتم لي»، فقالوا: نعم، قال: «فإني ذكرتُ نبياً من الأنبياء أعطي جنوداً من قومه، فقال: من يكافئ هؤلاء، ومن يقوم بهؤلاء أو كلمة تشبه هذه، قال: فأُوحيَ إليه اختر لقومك بين إحدى ثلاث: إما أن أسلّط عليهم عدواً من غيرهم أو الجوع أو الموت، فاستشار قومه في ذلك، فقالوا: أنت نبيّ الله، نكلُ ذلك إليك فخِرْ لنا [أي اختر لنا]، فقام إلى صلاته، وكانوا يفزعون، إذا فزعوا إلى الصلاة، فصلّى. قال: أمّا عدوّ من غيرهم فلا، أو الجوع فلا، ولكن الموت. فسلّط عليهم الموت ثلاثة أيام، فمات منهم سبعون ألفاً. فعسى الذي ترون أن أقول: اللّهمّ بك [][3] وبك أصول ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله».

حقيقة الطاعون وكونه من طعن الجن ودعاء النبيّ لأمته بالشهادة وبالطعن والطاعون:

أخرج عبد الرزاق في مصنّفه[4] وابن أبي شيبة وأحمد بن حنبل في مسنديهما وابن أبي الدنيا في كتاب الطواعين، والبزار وأبو يعلى والطبراني وابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طرق[5] عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «فناء أمتي بالطعن والطاعون»، قيل: يا رسول الله، هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «وخز أعدائكم من الجن، وفي كلٍّ شهادة»[6]. قال ابن الأثير: الطعن: القتل بالرمح. والوخز: طعن بلا نفاذ.

---

(١) هذا الحديث بكامله غير موجود في المخطوطة (ب).

(٢) كلمة غير واضحة في المخطوط(أ).

(٣) كلمة غير واضحة في المخطوط(أ).

(٤) في المخطوطة(ب): أخرج الإمام أحمد في مسنده وعبد الرزاق في مصنّفه... وساق الباقي مثل المخطوطة(أ).

(٥) في المخطوطة(ب): من طرق كثيرة.

(٦) القول بأن سبب الطاعون هو وخز الجن (المخلوقات الناريّة) مبني على فهم خاطئ للفظ الجنّ، حيث إن الجن لغة هو كل مختفي، وبما أن البراغيث تختفي وتخز الإنسان وخزاً، وهي التي تنقل ميكروبات الطاعون، فإنه لا يوجد ما يمنع إطلاق لفظ الجن على هذه البراغيث لغة. وقد أوضحنا ذلك في الفصول التمهيدية بما فيه الكفاية.

وأخرج أحمد وابن أبي عاصم[1] في الجهاد، والطبراني، وابن منده، وأبو نعيم في الصحابة، والحاكم في المستدرك، وصححه البيهقي في الدلائل، عن أبي بردة بن قيس أخي أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ اجعل فناء أمتي طعناً في سبيلك بالطعن والطاعون».

وقد استشكل بعضهم هذا الحديث بأن أكثر الأمة يموتون بغيرهما، وأجاب بعضهم بأن المراد بالأمة في الحديث الصحابة، وفيه بُعد، بل الجواب ما قاله ابن الأثير أنهما الغالب على فناء الأمّة، وهو صحيح بلا شكّ. فإذا استقريَ الأمر وُجِدَ القدر الذي يموت في الطاعون أكثر من القدر الذي مات فيما بينه وبين الطاعون الذي قبله، فكيف إذا انضمّ إلى ذلك القتلِ الحاصل في الجهاد وفي الفتن. فإن قيل: كيف دعى على أمّته بالهلاك؟ أجيب: ليس المقصود منه الدعاء بالهلاك، وإنما المراد منه حصول الشهادة لهم بكلٍّ من الأمرين. والفناء أمر حتم لا بدَّ منه، فكان محطُّ الدعاء على جعل ذلك سبباً للفناء الذي قدَّرَ الله كونه لا محالة، لا على الفناء. قلتُ[2]: وظهر لي حكمة أخرى، وهو أنه ﷺ دعى بذلك ليكون كفّارة لما يقع من أمّته من عداوة بعضهم لبعض، كما ورد أن القتل لا يمرُّ بذنب إلاّ محاه.

وأخرج أحمد عن أبي قلابة أن الطاعون وقع بالشام، فقال عمرو بن العاص: إن هذا الرجز قد وقع ففرّوا[3] منه في الشعاب والأودية، فبلغ ذلك معاذاً فلم يصدّقهُ بالذي قال، فقال: بل هو شهادة ورحمة ودعوة نبيّكم، اللّهمّ أعطِ معاذاً وأهله نصيبهم من رحمتك. قال: فعرفت الشهادة وعرفت الرحمة، ولم أدرِ ما دعوة نبيّكم حتى أُنبئت أن رسول الله ﷺ بينا هو ذات ليلة يصلّي إذ قال في دعائه: بحمّى إذاً[4] أو طاعوناً ثلاث مرات» فلما أصبح قال له إنسان من أهله: يا رسول الله قد سمعتك الليلة تدعو بدعاء، قال:

---

(١) في المخطوطة(ب): وأخرج أحمد وابن منده.. وساق الباقي مثل المخطوطة(أ).

(٢) القائل هنا ابن حجر العسقلاني والكلام كله له... والسيوطي هو مختصر كتابه، ثم مضيف إليه في آخر الكتاب.

(٣) في المخطوطة(أ): ففرّا منه بينما هو في المخطوطة(ب): ففرّوا منه، وهو الصواب.

(٤) في المخطوطة(أ): إذن.

«وسمعته؟» قال: نعم، قال: «إني سألت ربّي أن لا يهلك أمّتي بسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يسلّط عليهم عدوّاً غيرهم فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض فأبى عليّ، فقلت: حمّى إذن أو طاعوناً ثلاث مرات».

فهذا الحديث يدلّ على أن طلبه لذلك ليكفّر ما يقع من بعضهم لبعض.

وأخرج الطبراني في الأوسط والصغير[1] عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «فناء أمتي في الطعن والطاعون»، قلنا: قد عرفنا الطعن، فما الطاعون؟ قال: «وخز أعدائكم من الجنّ، وفي كلٍّ شهادة».

وأخرج أبو يعلى عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ قال في الطاعون: «وخزة تصيب أمتي من أعدائهم من الجنّ، غدّة كغدة الإبل، من أقام عليها كان مرابطاً ومن أصيب بها كان شهيداً، ومن فرَّ منه كالفارّ من الزحف».

عبارة «وخز إخوانكم الجن» لا أصل لها:

قال الحافظ أبو الفضل ابن حجر: ووقع في عبارة جمع من العلماء بلفظ وخز إخوانكم من الجنّ، ولا يُعرف، ولم يوجد في شيء من طرق الحديث بعد التتبّع الطويل البالغ، لا في الكتب المشهورة، ولا في الأجزاء المنثورة، فإن ثبت وروده فالمراد إخوة التقابل كما يقال اللّيل والنهار إخوان، أي متقابلان، وهو المراد في حديث زاد إخوانكم من الجنّ، فإنه زاد للكافر والمؤمن جميعاً.

الحكمة من كون الطاعون من وخز الجن:

قال ابن القيّم: في كون الطاعون وخز أعدائنا الجن حكمة بالغة، فإن أعدائنا منهم شياطينهم، وأما أهل الطاعة منهم فهم إخواننا، والله أمرنا بمعاداة أعدائنا من الجنّ والإنس، وأن نحاربهم طلباً لمرضاته، فأبى أكثر الناس إلا مسالمتهم وموالاتهم، فسلّطهم الله عليهم عقوبة لهم حيث استجابوا لهم حين

(١) في المخطوطة(ب): (في الأوسط) بدون ذكر والصغير.

أغووهم وأمروهم بالمعاصي والفجور والفساد في الأرض فأطاعوهم، فاقتضت الحكمة أن سلّطهم الله عليهم بالطعن فيهم، كما سلّطَ الله عليهم أعداءهم من الإنس حين أفسدوا في الأرض ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، فهذه ملحمة من الإنس، والطاعون ملحمة من الجنّ. وكلٌ منهما بتسليط العزيز الحكيم عقوبةً لمن يستحقُّ العقوبة، وشهادة ورحمة لمن [هو][1] أهلٌ لها، وهذه سنّة الله في العقوبات تقع عامّة، فتكون طُهراً للمؤمنين وانتقاماً من الفاجرين، انتهى كلام ابن القيّم.

فإن قيل: إذا كان من الجن فكيف يقع في رمضان، والشياطين تُصفَّد فيه وتُسلسل؟ فالجواب عنه كالجواب عن وقوع المعاصي فيه. وهو أن المراد تعطيلها عن معظم العمل فلا يصلون من الإنس إلى مثل ما يصلون إليه في غير رمضان... وليس المراد إبطال أعمالها فيه بالكليّة، ذكر ذلك القاضي تاج الدين السبكي في [جزءٍ له أَلَّفه في الطاعون][2]، قال: ويحتمل أن يقال إنهم يطعنون قبل دخول رمضان، ولم يظهر التأثير إلاّ بعد دخوله، قال: وخطر لي أنه يقال أن تصفيد الشياطين إنما هو عمّا يترتّب عليه من ابن آدم أتمّ من تحسينهم الفجور لابن آدم ليقع فيه. وأمّا ما لا يترتّب عليه إثم بل يثاب عليه، كالطاعون مثلاً فلا يمنعون منه، كما يمنعون مما لا يترتب عليه إثم ولا ثواب كالاحتلام. انتهى.

وأجاب غيره بأن الذي في الحديث تصفيد الشياطين، وهم بعض الجن لا كلُهم، فإن قيل: فعلى هذا يختصّ الطعن بالمسلمين، فإن الكافرين ليسوا بأعداء الجنّ؟ فالجواب، ما ظهر لي، وهو أن الكافرين أيضاً أعداء الجن، فإن بني آدم كلّهم عدوّ للجن مؤمنهم وكافرهم، قال تعالىٰ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾، وقــال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، ويحتمل أن يكون طعن كفار الإنس من مؤمني الجنّ. [وبهذا جزم المنبجي الحنبلي في تأليف له في الطاعون وتبعه الشيخ بدر الدين الزركشي في جزءٍ له جمعه في الطاعون،

---

(١) غير موجودة في المخطوطة(ب).
(٢) غير موجودة في المخطوطة(ب).

واستحسنه ابن حجر][1].

وأخرج أبو يعلى عن أبي بكر الصدّيق قال: كنت مع النبيّ ﷺ في الغار، فقال: «اللّهمّ طعناً وطاعوناً» قلت: يا رسول الله إني أعلم أنك قد سألت منايا أمّتك، فهذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «ذرب كالدمل إن طالت بك حياة ستراه»[2].

وأخرج أحمد عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستهاجرون إلى الشام فيفتح لكم ويكون فيكم داء كالدمّل أو كالحزّة يأخذ بمراق الرجل يستشهد الله به أنفسهم ويزكّي به أعمالهم». اللّهمّ إن كنت تعلم أن معاذ بن جبل سمعه من رسول الله ﷺ فأعطِه هو وأهل بيته الحظَّ الأوفر منه، فأصابهم الطاعون فلم يبق منهم أحد، فطُعن في أصبعه السبّابة، فكان يقول: ما يسرّني أن لي بها حُمر النّعم.

وأخرج الطبراني عن معاذ، قال: قال رسول الله ﷺ: «تنزلون منزلاً يقال له الجابية يصيبكم فيه داء مثل غدة الجمل، يستشهد الله به أنفسكم وذراريكم ويزكّي به أعمالكم».

وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني في الأوسط عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تفنى أمتي إلاّ بالطعن والطاعون»، قلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «غدّة كغدّة البعير، المقيم بها كالشهيد، والفارُّ منها كالفارّ من الزحف».

وأخرج البزار عن عائشة[3]، قالت: قلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: «يشبه الدُمَّل يخرج في الآباط والمراق، وفيه تزكية أعمالهم، وهو لكل مسلم شهادة».

---

(١) هذه الفقرة ساقطة في المخطوطة(ب)، وقد أضافها في الهامش أحد المهمشين، ولكنها غير مقروءة إلاّ بصعوبة بالغة، وبدلاً عنها في المخطوطة(ب): وبهذا جزم ابن حجر.

(٢) هذا الكلام كلّه مبني على أن الطاعون سببه الجن (المخلوقات النارية)، وقد أوضحنا في الفصول التمهيدية خطأ هذا القول، وأن سبب الطاعون ميكروبات من فصيلة يرسينيا (عصوية عنقودية)، ينقلها برغوث الفئران إلى الإنسان... وبما أن البراغيث مختفية وتخز الإنسان وخزاً، وكل مختفي يطلق عليه لغة جن، فإن الجن المقصودين هاهنا هي البراغيث المختفية.

(٣) في المخطوطة(ب): (عنها) بدلاً من عائشة.

بطلان قول الأطباء أن الطاعون سببه فساد الهواء

فصل:

قد ثبت بهذه الأحاديث بطلان قول الأطباء أن الطاعون مادة سُميَّة تحدث ورماً قتّالاً، وأن سببه جوهر الهواء. وقد أبطل ابن القيّم في «الهدي»[1] قول الأطباء هذا بوجوه، منها: وقوعه في أعدل الفصول وفي أصحِّ البلاد هواءً وأطيبها ماءً. ومنها: أنه لو كان من الهواء لعمَّ الناس والحيوان [ونحن نرى الكثير من الناس والحيوان][2] يصيبه الطاعون وبجانبه من جنسه ومن يشابهه مزاجه من لم يصبه، وقد يأخذ أهل البيت من بلد بأجمعهم ولا يدخل بيتاً يجاورهم أصلاً، أو يدخل بيتاً فلا يصاب منه إلاّ البعض. وربما كان عند فساد الهواء يقتضي تغيّر الأخلاط وكثرة الأمراض والأسقام، وهذا يقتل بلا مرض أو بمرض يسير. ومنها: أنه لو كان من فساد الهواء لعمّ جميع البدن بمداومة الاستنشاق، والطاعون إنما يحدث في جزءٍ خاص من البدن لا يتعدّاه لغيره، ولدام في الأرض لأن الهواء يصحُّ تارة ويفسد تارة، والطاعون يأتي على غير قياس ولا تجربة ولا انتظام، فربّما جاء سنة على سنة وربما أبطأ عدة سنين. ومنها: أن كل دواء بسبب من الأسباب الطبيعية له دواء من الأدوية الطبيعية، وهذا الطاعون قد أعيا الأطباء دَواؤه حتى سلَّم حذّاقهم أنه لا دواء له، ولا دافع إلاّ الذي خلقه وقدَّرَهُ.

قال ابن حجر في شرح البخاري: والذي أوجب للأطباء أن يقولوا ما

---

(١) هو كتاب «زاد المعاد في هدي خير العباد»، وقد أُستخرج منه كتاب «الطبّ النبويّ»، وطبع عشرات المرات بتعليق وبغير تعليق. وهو أكثر كتب الطب النبوي رواجاً وانتشاراً في هذا العصر.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

قالوه أن معرفة كونه من وخز الجنّ إنما يدرك بالتوقيف، وليس للعقل[1] فيه مجال. ولما لم يكن عندهم في ذلك توقيف رأوا أن يقرب ما يقال فيه: أنه من فساد جوهر الهواء، فلما وَرَد الشرع وجاء نهر الله، بطل نهر [العقل][2].

وقد ورد عليّ سؤال صورته:

أظن الناس بالآثام باؤوا — فكان جزاؤهمُ هذا الوباءُ
أسيّدٌ من له قانونُ طبٍّ — بحيلة برئه يرجى الشفاءُ
آجال الورى متقاربات — بهذا الفصل أم فسد الهواءُ
أم الأفلاك أوجبت اتصالاً — به في الناس قد عاث الفناءُ[3]
أم استعداد أمزجة جفاها — جميل الطب واختلف الغِذاءُ[4]
أم اقتربت على ما تقتضيه — عقايدنا فللزمن انقضاءُ
أفدنا حقيقة ما نراهُ — فما الأذهانُ أحرُفها سواءُ
وقل ما صحّ عندك عن يقين — بحقٍّ لا يعارضه رياءُ
فإني غير مفشٍ سِرَّ حبر — من المتشرّعين به حياءُ
ولا تُخلي الأحبّة من دعاءٍ — فمنك اليوم يُلتمسُ الدعاءُ

فأجبتُ:

بحمد الله يحسُن الابتداء — وللمختار ينعطف الثناءُ
سألتَ فخُذْ جوابك عن يقين — فما أوردته عنهُم هباءُ[5]
فما الطاعون أفلاك ولا ذا — مزاج ساءَ أو فسدَ الهواءُ
رسولُ الله أخبر أن هذا — بوخز الجنّ يطعننا العداءُ
يسلّطهم إله الخلق لما — بهم تفشوا المعاصي والزناءُ
يكون شهادة في أهل خير — ورجساً للأُولى بالشرّ باؤوا[6]

---

(١) في المخطوطة(أ): وليس للفعل.
(٢) في كلا المخطوطتين(أ) و(ب): معقل، ولا تستقيم به العبارة.
(٣) هذا البيت ساقط من المخطوطة(ب).
(٤) هذا البيت متأخر في المخطوطة(ب)، ويأتي بعد البيت الذي يليه.
(٥) في المخطوطة(ب): عِندهُمُ بدلاً من عنهُمُ.
(٦) في المخطوطة(أ):
(أتأكل هذا في حديث — صحيح ما ضعف وداء)

أنانا كل هذا في حديث | صحيح ما به ضعف وداءُ
ومن يترك حديثاً عن نبي | لما قال الفلاسفة الجُفاءُ
فذلك ما له في العقل حظٌ | ومن دين النبيّ هو البَرَاءُ
وناظمه ابن الأسيوطي يدعو | بكشف الكرب إن قُبِلَ الدعاءُ

الفرق بين الطاعون والوباء:

قال ابن حجرٍ وغيره: الطاعون أخصُّ من الوباء، فإن الوباء هو المرض العام، فقد يكون بطاعون، وقد لا يكون. فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعوناً. وقد ثبت في الحديث أن المدينة لا يدخلها الطاعون، كما سيأتي، وقد دخلها الوباء. ففي الصحيحين عن عائشة [رضي الله عنها]: قدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله»، وفيهما من حديث العُرنيين أنهم قالوا: أن هذه أرض وبِئة. وقد وقع بها الوباء والموت الكثير في زمن عمر [لكن بغير الطاعون، ففي صحيح البخاري عن أبي الأسود الدؤلي، قال: أتيتُ المدينة وقد وقع مرض، والناس يموتون موتاً ذريعاً، فجلست إلى عمر فذكر حديثان»][1].

الزنا وظهور الفاحشة سبب لوقوع الطاعون:

أخرج ابن حجر والبيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون»[2]، [وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: إذا بخس المكيال حُبِسَ القطر، وإذا كَثُرَ الزنا كثر القتل ووقع الطاعون، وإذا كَثُر الكذب كثر الهرج][3].

وأخرج مالك في الموطأ عن ابن عباس مرفوعاً، والطبراني عنه مرفوعاً: «ما فشا الزنا في قوم قطّ إلاّ كثر فيهم الموت».

---

(١) ما بين المعقوفتين [] ساقط من المخطوط(ب).

(٢) يطلق الطاعون مجازاً على كل وباء، وقد أدّى انتشار الفاحشة في العصر الحديث إلى ظهور العديد من الأمراض الجنسية وأخطرها الأيدز، الذي تقدّر منظمة الصحة العالمية أن عدد المصابين به سيبلغ خمسين مليوناً سنة ألفين (٤٠ مليونا من البالغين وعشرة ملايين من الأطفال).

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

وأخرج الطبراني عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلاّ أُخذوا بالفناء».

وأخرج أبو يعلى والحاكم وصححه البيهقي عن بريدة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ظهرت الفاحشة في قوم قط إلاّ سلَّطَ الله عليهم الموت».

[وأخرج][1] ابن حجر والحكمة في ذلك أن الزنا إزهاق الروح في المحصن، فإذا لم يُقم فيهم الحدّ سلّطَ الله عليهم [الجنّ][2] يقتلونهم. قلتُ: وتتمة ذلك أن الزّنا لما كان غالباً يقع في السّر سلّط الله عليهم عدوّاً يقتلهم سرّاً من حيث لا يرونه، وقاعدة العذاب أنّه إذا نزل يعمُّ المستحق وغيره، ثم يبعثون على نياتهم.

وأخرج [أحمد في الزهد][3] وابن أبي الدنيا في «ذكر الموت»، عن الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾، قال: الموت الذريع.

وأخرج [أبو داود][4] في البعث عن قتادة نحوه، ولفظه: «الموت من ذلك».

فضيلة الطاعون والاستشهاد فيه:

وأخرج [أحمد][5] والشيخان عن أنس رفعه: «الطاعون شهادة لكل مسلم». وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «المطعون شهيد»، وفي لفظ لمسلم عنه: «من مات في الطاعون فهو شهيد»، وفي لفظ لأحمد عنه: «الطاعون شهادة». وقد ورد ذلك في حديث عائشة أخرجه الطيالسي، وسعد أخرجه ابن أبي شيبة، وجابر بن عتيك أخرجه مالك في الموطأ وأبو داود [والحاكم][6]، وعبادة بن الصامت أخرجه مالك وأحمد

---

(١) في المخطوطة(ب): (قال)، وهو الصواب.
(٢) ما بين المعقوفتين (الجن) ساقط من المخطوطة(أ).
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).
(٤) في المخطوط(ب): وأخرج ابن أبي داود.
(٥) في المخطوطة(ب): أخرج الشيخان، وليس فيها وأخرج أحمد.
(٦) في المخطوطة(ب): وأبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم.

والبزار، وعبد الله بن رواحة أخرجه الطبراني، وراشد بن حبيش أخرجه أحمد، وربيع الأنصاري أخرجه الطبراني، وعقبة بن عامر أخرجه النسائي، [وصفوان بن أمية رُوِيْناه في جزء يأتي][١]. وأخرج ابن سعد[٢] عن حفصة بنت سيرين قالت: سألني أنس بن مالك بأيّ شيء تحبّين تموتين؟ قلت: بالطاعون، قال: «فإنه شهادة لكل مسلم».

وأخرج أحمد والنسائي [والبيهقي في شعب الإيمان][٣] بسند صحيح عن العرباض بن سارية أن رسول الله ﷺ قال: «يختصم الشهداء والمتوفّون على فرشهم إلى ربّنا جلّ جلاله في الموتى يتوفون في الطاعون، فيقول الشهداء: إخواننا قُتلوا كما قُتلنا. ويقول المتوفون على فرشهم: إخواننا ماتوا على فرشهم كما متنا، فيقول الله: انظروا إلى جراحهم فإن أشبهت جراح المقتولين فإنهم منهم، فإذا جراحاتهم أشبهت جراحاتهم فيلحقون بهم]»[٤].

وأخرج أحمد بسند حسن عن عقبة[٥] بن عبد السلمي عن النبيّ ﷺ قال: «يأتي الشهداء والمتوفون بالطاعون، فيقول أصحاب الطاعون: نحن شهداء، فيقال: انظروا فإن كانت جراحاتهم كجراح الشهداء تسيل دماً وريحهم كريح المسك، فهم شهداء فيجدونهم كذلك».

قال الحافظ ابن حجر: هذا المتن لا أعلم من رواه عن النبيّ ﷺ غير هذين الصحابيين.

[وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن عمر بن الخطاب أنه قال: ما ترون في نفر ثلاثة أسلموا جميعاً، ولم يحدثوا في الإسلام حدثاً، قُتِلَ أحدهم بالطاعون، وقُتِل الآخر بالبطن، وقتل الآخر شهيداً؟ قالوا: الشهيد أفضلهم. فقال عمر: والذي نفسي بيده إنهم لرفقاء][٦].

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٢) في المخطوطة(ب): ابن سعيد.

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٤) في المخطوطة(ب): وأخرجه الكلاباذي في معاين الأخبار، وزاد في آخره: فيلحقون بهم.

(٥) في المخطوطة(ب): عن عتبة.

(٦) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

أجر الشهادة لمن صبر ولم يفرّ من الطاعون:

وأخرج [أحمد][1] والبخاري والنسائي عن عائشة، قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون أنه كان عذاباً يبعثه الله على من يشاء وجعله رحمة للمؤمنين، فليس رجلٌ يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه ما يصيبه إلاّ ما كتب الله له إلاّ كان له مثل أجر الشهيد».

قال ابن حجر: مقتضى هذا الحديث أن أجر الشهيد إنما يكتب لمن لم يخرج من البلد الذي يقع به الطاعون، وأن يكون في حال إقامته قاصداً بذلك ثواب الله راجياً صدق موعوده، وأن يكون عارفاً أنه إن وقع له فهو بتقدير الله، وإن صُرِف عنه فهو بتقدير الله، وأن يكون [غير][2] متضجّر به لو وقع، وأن يعتمد على ربّه في [حال][3] صحته وعافيته، فمن اتّصف بهذه الصفات فمات بغير الطاعون فإن ظاهر الحديث أن يحصل له أجر الشهيد، ويكون كمن خرج من بيته على نيّة الجهاد في سبيل الله بشرطه، فمات بسبب آخر غير القتل فإن له أجر الشهيد، كما ورد في الحديث. ويؤيّده هنا رواية من مات في الطاعون فهو شهيد، ولم يقل بالطاعون. قال: وكذا لو وجدت هذه الصفات، ثم مات بعد انقضاء زمن الطاعون، فإن ظاهر الحديث أيضاً أنه شهيد، و«نيّة المؤمن أبلغ من عمله». قال: وأمّا من لم يتّصف بهذه الصّفات المذكورة فإن مفهوم الحديث أنه لا يكون شهيداً وإن مات بالطاعون. قال: ومما يستفاد من هذا الحديث أيضاً أن الصابر في الطاعون المتّصف بالصفات المذكورة يأمن من فتّاني القبر؛ لأنه نظير المرابط في سبيل الله. وقد صحَّ ذلك في المرابط كما في صحيح مسلم وغيره.

قلتُ [والكلام للإمام السيوطي]: هذا تصريح من شيخ الإسلام ابن حجر بأن الصابر في الطاعون إذا مات بغير الطاعون يُوقَّى فتنة القبر كالمرابط، فيكون الميّت بالطاعون أولى بذلك، وإنما سكت عنه للعلم به، فإن كونه شهيداً يقتضي ذلك، كما صرَّح الحديث بذلك في شهيد المعركة.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوط(أ)، ولا يستقيم الكلام إلاّ بها.

(٣) في المخطوط(أ): «في حالتي»، وفي المخطوط(ب): «في حال»، وهو الصواب.

وصرّح القرطبي بأن الشهادة من حيث [هي][(١)] مقتضية لذلك، وقد توقف جماعة من أهل العصر في كون المطعون يأمن فتنة القبر، ولا عبرة بتوقفهم، وأعجب من ذلك من ظنّ أن شهيد المعركة يفتن في قبره، وهو مخالف للنصوص [والإجماع][(٢)].

عمرو بن العاص وفراره من الطاعون:

وأخرج أحمد وابن خزيمة والحاكم [والبيهقي في دلائل النبوّة][(٣)] عن شرحبيل بن حسنة[(٤)]، قال: [وقع الطاعون بالشام فقال عمرو بن العاص: إنه رجس فتفرّقوا عنه، فقال شرحبيل بن حسنة: إني قد صحبت رسول الله ﷺ وعمرو بن العاص أضلّ من بعير أهله، وإنه رحمة ربكم ودعوة نبيّكم، وقبض الصالحين قبلكم فاجتمعوا له ولا تفرّقوا عنه، فبلغ ذلك عمرو[(٥)] بن العاص، فقال: صدق]. وأخرجه الطحاوي، وقال فيه: سمعتُ نبيّكم ﷺ: إنها رحمة ربكم... إلى آخره.

[وأخرج أحمد والطبراني عن أبي منيب أن عمرو بن العاص قال في الطاعون في آخر خطبة خطب الناس: إنّ هذا رجز مثل السيل من تنكّبَهُ أخطأه، ومثل النار من تنكّبها أخطأها، ومن أقام أحرقته فآذته». فقال شرحبيل: إن هذا رحمة ربّكم، ودعوة نبيّكم، وقبض الصالحين قبلكم][(٦)].

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٤) في المخطوطة(أ): ابن شفعة، وهو خطأ. والصواب ابن حسنة، كما في المخطوطة(ب).

(٥) في المخطوطة(أ): عمر، وهو سهو من الناسخ.

(٦) في المخطوطة(ب): عن شرحبيل بن حسنة، قال: إن هذا الطاعون رحمة ربكم ودعوة نبيّكم وقبض الصالحين قبلكم. وليس فيه ذكر لعمرو بن العاص... والمعروف أن عمرو بن العاص أمر جنده في الشام بأن يتفرّقوا عنه ولا يمكثوا في الطاعون، وانتقل هو إلى الجبال والبراري البعيدة حتى توقف الطاعون. ولم يعرف أنه وافق معاذ بن جبل أو شرحبيل بن حسنة فيما قالوه عن الطاعون وطلبهم الشهادة فيه، بل فرّ منه وأمر جنده بالفرار منه.

كبار الصحابة ينكرون على عمرو بن العاص موقفه:

[وأخرج ابن شيبة والبزار والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن الحارث بن عميرة أنه قدم مع معاذ من اليمن، فمكث معه في داره وفي منزله فأصابهم الطاعون، فطُعِن معاذ وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وابن مالك في يوم واحد، وكان عمرو بن العاص حين خُبِّرَ بالطاعون فَرَقَ فَرقاً شديداً، فقال: يا أيها الناس تفرّقوا في هذه الشعاب، فقد نزل بكم الأمر لا أراه إلاّ رجزاً وطاعوناً. فقال شرحبيل بن حسنة: كذبت قد صحبنا رسول الله ﷺ وأنتَ أضلُّ من حمار أهلك. فقال عمرو: صدقت. وقال معاذ: كذبتَ، ليس بالطاعون ولا الرجز ولكنها رحمة ربكم ودعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم، اللّهمّ فآتِ آل معاذ النصيب الأوفر من هذه الرحمة. فما أمسى حتى طُعِن ابنه عبد الرحمٰن وأحبُّ الناس إليه، الذي كان يُكنى به، فرجع معاذ من المسجد فوجده مكروباً، فقال: يا عبد الرحمٰن كيف أنت؟ فقال: يا أبتِ الحق من ربِّك فلا تكوننَّ من الممترين. فقال معاذ: وأنا ستجدني إن شاء الله من الصابرين][(1)]، فمات من ليلته.

معاذ بن جبل يدعو لنفسه وآل بيته بالشهادة بالطاعون:

[وقال أبو نصر التمّار في كتاب الزهد له: حدثنا حمّاد بن مسعدة، حدثنا أبو محصن عن حصين عن سالم بن أبي الجعد، قال: وقع الطاعون بحمص، فقالوا: هذا هو الطوفان فبلغ ذلك معاذاً، فقال: اجتمعوا إلى دار معاذ، فقال: إنه ليس بالطوفان الذي عُذِّبَ به قوم نوح، بل هو شهادة وميتة حسنة][(2)].

[وأخرج ابن سعد: أخبرنا إسماعيل بن عبد الله بن أُويس المدني عن إبراهيم بن أبي حبيبة عن داود بن الحصين أنه بلغه لما وقع الوجع عام عمواس، فقال أصحاب معاذ: هذا رجز وقع، فقال معاذ: تجعلون رحمةً رحِمَ الله بها عباده كعذاب عَذَّبَ به قوماً سخط الله عليهم، إنما هي رحمة

---

(1) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوط(ب).
(2) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب)، وبدله: (وأخرج البزار والطبراني وابن أبي شيبة مثله عن معاذ بن جبل).

رحمكم الله بها، وشهادة خصّكم الله بها. اللّهمّ أدخل على معاذ وأهل بيته من هذه الرّحمة][1].

[وأخرج البيهقي في دلائل النبوّة عن عبد الله بن حيّان أنه سمع سليمان بن موسى يذكر أنّ الطاعون وقع بالناس يوم جسر مومسة، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أيّها الناس إنما هذا الوجع رجس فتنحّوا عنه، فقام شرحبيل فقال: يا أيها الناس إني قد سمعت قول صاحبكم، وإني والله لقد أسلمتُ وصلّيتُ وإن عمراً لأضل من بعير أهله، وإنما هو بلاء أنزله الله فاصبروا. فقام معاذ بن جبل فقال: يا أيها الناس إني قد سمعت قول صاحبيكم هذين، وإن هذا الطاعون رحمة ربِّكم ودعوة نبيّكم، وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنكم ستقدمون الشام فتنزلون أرضاً يقال له جسر مومسة، فخرج بها حُرجان لها ذُباب كذباب الدُمَّل يستشهد الله أنفسكم وذراريكم، ويزكّي به أعمالكم» اللّهمّ إن كنت تعلم أني قد سمعت هذا من رسول الله ﷺ فارزق معاذ وآل معاذ من ذلك الحظّ الأوفر ولا تعافه منه، قال: فطعن في السّبابة فجعل ينظر إليها ويقول: اللّهمّ بارك فيها، فإنك إذا باركت في الصغير كان كبيراً. ثم طُعِن ابنه فدخل عليه، فقال: الحقُّ من ربك فلا تكوننّ من الممترين. قال: ستجدني إن شاء الله من الصابرين][2].

[وأخرج أحمد من طريق شهر بن حوشب عن رابه، رجل من قومه كان خلف على أمِّهِ بعد أبيه، كان شهد طاعون عمواس، قال: لما اشتعل الوجع قام أبو عبيدة خطيباً، فقال: يا أيها الناس! إن هذا الوجع رحمة ربِّكم ودعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله أن يقسم له منه حظَّهُ، قال: فطُعِن ومات، واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيباً بعده فقال: يا أيها الناس! إن هذا رحمة ربِّكم ودعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم، وأن معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ منه حظَّه. قال: فطُعِنَ ابنه عبد الرحمٰن فمات، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته، فلقد رأيته ينظر إليها ثم يقبّل ظهر كفِّه، ثم يقول: ما أحبُّ أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا،

(1) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).
(2) هذا أيضاً ساقط من المخطوطة(ب).

فلما مات استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فينا خطيباً، فقال: يا أيها الناس! إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتحيّلوا منه في الجبال، فقال له أبو وائلة الهذلي: كذبتَ، والله لقد صحبتُ رسول الله ﷺ وأنت شرٌ من حماري هذا. قال: والله ما أردد عليك ما تقول، وأيم الله لا نقيم عليه. ثم خرج وخرج الناس، وتفرّقوا عنه، ورفعه الله عنهم. قال: فبلغ ذلك عمر بن الخطاب من رأي عمرو، فوالله ما كرهه][1].

[وأخرج ابنُ سعد عن العرباض بن سارية، قال: دخلتُ على أبي عبيدة بن الجراح وهو يموت فقال: غفر الله لعمر بن الخطاب رجوعه من سرغ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المطعون شهيد، والمبطون شهيد، والغريق شهيد، والحريق شهيد، والهدم شهيد، والمرأة تموت بجمع[2] شهيدة، وذات الجنب شهيد»][3].

[وأخرج الكلاباذي في «معاني الأخبار» عن أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي أنه كان يقول: بلغني من قول [أبي][4] عبيدة، وقول معاذ أن هذا الوجع رحمة ربّكم ودعوة نبيّكم، فكنتُ أقول: كيف دعا به رسول الله ﷺ لأمّته حتى حدّثني بعض من لا أتّهم، عن رسول الله ﷺ أنه سمعه يقول: «وجاءه جبريل فقال: إن فناء أمّتك يكون بطعن أو طاعون، قال: فجعل رسول الله ﷺ يقول: اللهمّ فبالطاعون مرتين». قال: فعرفتُ أنها الدعوة التي قال أبو عبيدة ومعاذ][5].

قال ابن حجر: قد وقع في تفسير دعوة نبيّكم، ولم يقع تفسير موت الصالحين قبلكم، وقد تكلم عليه الكلاباذي، فقال: يجوز أن يكون المراد بالصالحين بني إسرائيل، وإن كان وقع عذاباً لهم لأنه جعله لهم كفّارة وطُهرة، كما كان قَتْلُ بعضهم بعضاً كفّارة لمن كان عبد منهم العجل، فهم صالحون

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب)، وفيه بدلاً عنه: وأخرج أحمد مثله عن أبي عبيدة بن الجراح.
(٢) أي نتيجة تعسر الولادة فتموت هي ووليدها في بطنها مجموع عليها.
(٣) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).
(٤) سقط من الناسخ كلمة (أبي)، فأثبتناها هاهنا.
(٥) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

لأنهم تائبون مستسلمون[(١)].

[وأخرج ابن سعد وأحمد والحارث بن أبي أسامة والطبراني وابن مندة في «المعرفة» عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل بالحمّى فأمسكتُ الحمّى بالمدينة، وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمّتي ورحمة لهم ورجز على الكافر»][(٢)].

قال ابن حجر: وقع لي تردّد في الفاسق ما حكمه، وهو مرتكب الكبيرة إذا هجم عليه ذلك وهو مُصِرٌّ، فإنه يحتمل أن يقال: بل يحصل له لإطلاق الأخبار خصوصاً قوله: [لكل مسلم]، وبالقياس على شهيد المعركة، فإنه يحكم له بالشهادة، ولو كانت عليه ذنوب كثيرة لم يتب منها إلاّ تبعات الآدميين، لحديث أن الشهيد يغفر له كل ذنب إلاّ الدَين، وسائر التبعات في معناه. انتهى.

قلتُ[(٣)]: حديث ابن أبي عسيب هذا يدُلُّ للتعميم فهو الصواب.

فائدة: أخرج ابن عديّ والديلمي من حديث ابن عمر مرفوعاً: أوّل رحمة ترفع من الأرض الطاعون.

[وأخرج أبو يعقوب البغدادي في كتاب: «رواية الكبار عن الصغار»، وابن السّنوي[(٤)] في «الطب النبوي»، وابن عدي عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «أوشك النايح أن يفشوا في الناس حتى يتمنون الطاعون مكانه»][(٥)].

---

(١) هذا الكلام فيه نظر، فالزناة من بني إسرائيل الذين وقع عليهم الطاعون لم يتوبوا وإنما وقع رجز وعذاب لهم كما صحّ في الحديث. ويمكن أن يقال أنه أصاب أيضاً الصالح من بني إسرائيل لأن العذاب عندما ينزل يعمُّ الصالح والطالح.

(٢) في المخطوطة(ب): (وأخرج أحمد والطبراني وابن منده في المعرفة عن ابن عسيب).

(٣) والكلام هنا للسيوطي.

(٤) لعل الصواب هو ابن السُني، وهو صاحب كتاب الطب النبوي.

(٥) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

اختصاص المدينة الشريفة
بأن الطاعون لا يدخلها

أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجّال».

وأخرج البخاري عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة يأتيها الدجّال فيجد الملائكة، فلا يدخلها الدجّال ولا الطاعون إن شاء الله تعالى»، قال بعضهم: هذه معجزة له ﷺ لأن الأطباء من أوّلهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد من البلاد، بل قرية من القرى. وقد امتنع الطاعون من المدينة بدعائه ﷺ وخبره هذه المدّة المتطاولة، فإن كان قيل: إذا كان الطاعون شهادة ورحمة، فكيف رفعه عن المدينة، وهي جديرة بكل خير؟ أُجيب بأوجه منها: إن ذلك ناشيء عن كونه من طعن الجنّ، فناسب تطهير المدينة منه وتنزيهها عن دخول كُفّار الجنّ وشياطينهم إليها.

ومنها: أن سبب الشهادة والرحمة لم ينحصر في الطاعون، وقد قال رسول الله ﷺ: «ولكن عافيتك أوسع لي».

ومنها: إنها صغيرة فلو وقع بها الطاعون لفنيَ أهلها.

[قال ابن أبي حجلة مشيراً إلى ذلك:

مدينة شاعت أحاديث فضلها ... وسارت بها الركبان في كل بلدةِ
فما روَّعَ الدجَّالُ ساكن أرضها ... ولا مات في الطاعون منها بكيّةِ][1]

القول في أن مكّة المشرّفة هل تشاركها في ذلك؟

أخرج ابن قتيبة في «المعارف» بأنها مشاركة لها في ذلك، فلم يدخلها

---

(1) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

الطاعون، ونقله عنه جماعة من العلماء وأقرّوه آخرهم النووي في «الأذكار»، لكنه دخلها في الطاعون العام (أي الذي عمّ البلاد) سنة تسع وأربعين وسبعمائة. قال ابن حجر: فلعلّه لما أنتهك من حُرمتها بسكنى الكفّار فيها[1].

قلتُ: ويدلُّ للمشاركة ما أخرجه أحمد بسند جيّد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة، على كل نقب منها مَلك لا يدخلها الدّجّال ولا الطاعون».

---

(١) هذا أمر غريب جداً، حيث إن النصوص ظاهرة من القرآن والسنة بعدم دخول الكفار مكة فضلاً عن سكناهم فيها. قال تعالىٰ: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء، إن الله عليم حكيم﴾ [التوبة: ٢٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ [التوبة: ١٧].

النهي عن الفرار منه [والقدوم عليه][1]

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ...﴾ الآية[2].

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن[3] قال: «فرّوا من الطاعون». وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال: «مقتهم الله على فرارهم من الموت، فأماتهم الله عقوبة لهم، ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ليستوفوها».

وأخرج الفريابي[4] [وابن راهويه في مسنده وابن المنذر][5] وابن جرير عن ابن عباس، قال: «كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون».

وأخرج الشيخان عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام [حتى][6] إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجرّاح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام. قال ابن عباس: فقال عمر بن الخطاب: ادعُ لي المهاجرين الأوّلين فدعوتهم فاستشارهم، فاختلفوا عليه، فقال عمر: ارتفعوا عنّي. ثم قال: ادعُ لي الأنصار فدعوتهم فاختلفوا، فقال: ارتفعوا عنّي. ثم

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

(٢) الآية ٢٤٣ من سورة البقرة، وهي: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. إن الله لذو فضل على الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾.

(٣) أي البصري.

(٤) في المخطوطة(ب) الفرياني، وغير واضحة في المخطوطة(أ). والصواب الفريابي نسبة إلى فرياب مدينة في التركستان تقع في أوزبكستان اليوم.

(٥) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٦) ساقط من المخطوطة(أ).

قال: ادعُ لي من كان ها هنا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم فلم يختلف عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عُمر في الناس: إني مصبح على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة[1]، نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كانت لك إبل كثيرة فهبطت وادياً له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، ألستَ إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، [وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله][2]. قال: فجاء عبد الرحمٰن بن عوف، وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي من هذا لَعِلماً، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، فحمد الله عمر ثم انصرف.

[وأخرج الطحاوي في «معاني الآثار» بسند صحيح عن أنس أن عمر أتى (من)[3] الشام فاستقبله أبو طلحة وأبو عبيدة بن الجرّاح، فقال: يا أمير المؤمنين إن معك وجوه أصحاب رسول الله ﷺ وخيارهم، وإنا تركنا من بعدنا مثل حريق النار، يعني الطاعون، فارجع العام». فلما كان العام المقبل فدخل][4].

وقد ورد مثل حديث عبد الرحمٰن بن عوف من حديث أسامة بن زيد أخرجه الشيخان، وسعد[5] بن أبي وقّاص وخزيمة بن ثابت [أخرجه مسلم][6]،

---

(١) في المخطوطة(أ): (لو غيرك قالها أبو عبيدة)، وهو خطأ والصواب ما أثبتناه، وهو في المخطوطة(ب).

(٢) مابين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

(٣) الصواب (إلى). ويمكن حذفها فتستقيم العبارة.

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب)، وهو كلام مناقض للحديث الصحيح الذي أخرجه الشيخان المتقدم... ولا شك أن أبا عبيدة لم يطلب من عمر أن يرجع ولا يدخل الشام، بل على النقيض من ذلك، قال له: أتفر من قدر الله؟ وردّ عليه عمر رضي الله عنه رداً مفحماً مُقنعاً.

(٥) في المخطوطة(أ): (وسعيد بن أبي وقاص)، وهو خطأ والصواب سعد كما في المخطوطة(ب).

(٦) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

[وحديث عكرمة بن خالد أخرجه أحمد والطبراني][1].

[وأخرج أحمد والطحاوي وابن السكن والطبراني عن عكرمة بن خالد عن أبيه عن جدّه أن رسول الله ﷺ قال في غزوة تبوك: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا كنتم بغيرها فلا تقدموا عليها»][2].

وأخرج سيف في «الفتوح» بسند منقطع عن شرحبيل بن حسنة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقع الطاعون بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فإن الموت في أعناقكم، وإذا كان بأرض فلا تدخلوها فإنه يحرق القلوب».

وأخرج[3] عبد بن حميد عن أم أيمن أنها سمعت رسول الله ﷺ يوصي بعض أهله، فقال: «وإن أصاب الناس موتان وأنت فيهم، فاثبت».

قال القاضي تاج الدين السبكي: مذهبنا، وهو الذي عليه الأكثر (أي من العلماء) أن النهي عن الفرار منه للتحريم، وقال بعض العلماء: هو للتنزيه. قالوا: والاتّفاق على جواز الخروج لشغل عرض غير الفرار. ويدلُّ للتحريم حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «الفار من الطاعون كالفارّ من الزحف»، أخرجه [ابن سعد في الطبقات][4]، والطبراني في الأوسط، [وأبو يعلى][5]، وابن عدي في «الكامل»، [وابن أبي الدنيا في «الطواعين»][6]، وابن عبد البرّ في «التمهيد».

وأخرج أحمد وعبد بن حميد وابن خزيمة في صحيحه [عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «الفارُّ من الطاعون كالفارِّ من الزحف، والصابر فيه كالصابر في الزحف»][7]. وقد صرَّح ابن خزيمة في صحيحه بأن

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ). وأما المخطوطة(أ) ففيها: (وقد وجد عكرمة بن خالد) وهو كلام مضطرب وخطأ واضح من الناسخ.
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).
(٣) في المخطوطة(أ) عبيد، والصواب عبد كما في المخطوطة(ب).
(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).
(٥) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).
(٦) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).
(٧) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

الفرار من الطاعون من الكبائر، وأن الله يعاقب عليه ما لم يعفُ. وقد اختلف العلماء في حكمة ذلك، فقيل: هو أمر تعبّدي لا يعقل معناه؛ لأن الفرار من المهالك مأمور به، وقد نهى عن هذا فهو لسرٍّ فيه لا نعلم حقيقته[1]، وقيل: هو معلّل بأن الطاعون إذا وقع في البلد عمَّ جميع من فيه بمداخلة سببه، فلا يفيد الفرار منه، بل إن كان أجله حضر فهو ميّت سواء أقام أم رحل، وكذا العكس. ومن ثمَّ كان الأصح في مذهبنا أن تصرّفات الصحيح في البلد الذي وقع فيه الطاعون كتصرفات المريض مرض الموت، فلما كانت المفسدة قد تعيّنت، ولا انفكاك عنها، تعيّنت الإقامة، لما في الخروج من العبث الذي لا يليق بالعقلاء. وأيضاً لو توارد الناس على الخروج لبقي من وقع به عاجز عن الخروج، فضاعت مصالح المرضى لفقد من يتعهّدهم، والموتى لفقد من يجهّزهم. ولا في خروج الأقوياء على السفر من كسر قلوب من لا قوّة له على ذلك. وقد نقل أبو الحسن المدايني: قلَّ أن سافر أحدٌ من الطاعون فسلم.

قال القاضي تاج الدين السبكي: وهذا الذي حكاه مجرّب، وليس بعيداً أن يجعل [الله][2] الفرار منه سبباً لقصر العمر، وقد جاء في الكتاب العزيز ما يؤخذ منه أن الفرار من الجهاد سبب في قصر العمر، قال تعالىٰ: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]. وحكى أن والده استنبط ذلك من هذه الآية.

وقال ابن عبد البرّ: لم يبلغني أن أحداً من أهل العلم فرَّ من الطاعون إلاّ ما ذَكر المدايني أن عليَّ بن زيد بن جدعان هرب من الطاعون إلى السَّيالة خارج البصرة، فطُعِن بها فمات، وذُكر أيضاً أن الطاعون وقع بمصر فخرج عبد العزيز بن مروان، والد الخليفة عمر، وهو أمير مصر حينئذ إلى قرية يقال

(١) أوضح الطب الحديث حقيقة ذلك، وهو أن الشخص الفارّ من مكان الوباء قد يكون حاملاً للميكروب ولم يظهر عليه المرض بعد، فإذا سافر وانتقل إلى مكان آخر نشر المرض إلى الأماكن التي يذهب إليها.

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

(٣) سورة الأحزاب، آية ١٦.

لها حلوان، فقدم عليه بها رسولٌ من أخيه عبد الملك فقال له: ما اسمك؟ قال له: طالب بن مدرك، فقال عبد العزيز: أوّه ما أراني راجعاً إلى الفسطاط، فمات بحلوان.

[وأخرج ابن سعد في الطبقات عن هند، قالت: خرجنا من الطاعون فراراً إلى العراق، فكان جابر بن زيد يأتينا فيقول: ما أقربكم ممن أرادكم. وأخرج ابن سعد عن أبي بردة بن قيس قال: قلت لأبي موسى الأشعري في طاعون وقع: اخرج بنا إلى دابق ( )[1] بها، فقال أبو موسى: إلى الله أبق لا إلى دابق. وأخرج أبو نعيم في الحلية عن شريح أنه كتب إلى أخٍ له قد فرَّ من الطاعون: أما بعد، فإنك والمكان الذي أنت فيه بعين من لا يعجِزه من طلب ولا يفوته من هرب، والمكان الذي خلّيته لا يعجل لامرءٍ حمامه، ولا يظلمه أيامه. وإنك وأنا لعلى بساط واحد وأن المنتجع من ذي قدرة لقريب، والسلام][2].

وقال ابن قتيبة في «مختلف الحديث»: حدّثني سهل، حدّثني الأصمعي عن بعض البصريّين أنه هرب من الطاعون، فركب حماراً ومضى بأهله نحو سفوان، فسمع حادياً يحدو خلفه، وهو يقول:

لن تسبق اللّه على حمارِ ولا على ذي مَيْعَةٍ طيّارِ
أو يأتي الحَتْفُ على مقدارِ قد يصبح اللّه أمام الساري

وأخرج الطحاوي بسند صحيح عن زيد بن أسلم عن أبيه، قال: قال عمر: «اللّهمّ إن الناس زعموا أني فررتُ من الطاعون، وأنا أبرأ إليك من ذلك».

وأخرج ابن أبي شيبة وإسحاق في مسنده بسند حسن عن ابن عمر، قال: جئت عمر حين قدم من الشام فوجدته قائلاً[3] في خبائه، فانتظرته، فسمعته يقول حين تضوّر من نومه: «اللّهمّ اغفر لي رجوعي من سرغ»[4].

(١) كلمة غير مقروءة.
(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).
(٣) أي من القيلولة وهو النوم بعد الظهر.
(٤) الواقع أن رجوعه من سرغ كان بناء على الحديث الذي رواه عبد الرحمن بن عوف المتقدّم، وفيه النهي عن الدخول إلى البلد التي فيها الطاعون، كما أن غالبية الصحابة الذين كانوا معه أشاروا عليه بالعودة، وعدم القدوم على الطاعون. ولم يخطئ عمر في عودته، بل أصاب السنّة.

قال ابن عبد البرّ: النهي عن الخروج للإيمان بالقدر، والنهي عن القدوم لدفع ملامة النفس. وقال ابن قتيبة: نهى عن الخروج لئلاّ يظنوا أن الفرار ينجّيهم من قدر الله، وعن القدوم ليكون أسكن لأنفسهم، وأطيب لعيشهم.

وقال ابن العربي في شرح الترمذي: حكمة النهي عن القدوم أن الله أمر أن لا يتعرّض للحتف والبلاء، وإن كان لا نجاة من قدر الله إلاّ أنه من باب الحذر الذي شرّعه الله، ولئلاّ يقول القائل لو لم أدخل لم أمرض، ولو لم يدخل فلان لم يمت.

وقال ابن دقيق العيد: الذي يترجّح عندي في الجمع بين النهي عن الفرار والنهي عن القدوم، أن الإقدام تعرّض للبلاء، ولعلّه لا يصبر عليه، وربما كان فيه ضرب من الدعوى لمقام الصبر والتوكّل، فمنع ذلك لاغترار النفس ودعواها، ما لا يثبت عليه عند التحقيق. وأمّا الفرار فقد يكون داخلاً في باب التغوّل في الأسباب[1]، متصوّراً بصورة من يحاول النجاة مما قُدِّرَ عليه، فيقع التكلّف في القدوم، كما يقع التكلّف في الفرار، فأمر بترك التكلّف فيهما. ونظير ذلك قوله ﷺ: «[لا] تتمنّوا لقاء العدو، وإذا لقيتم فاصبروا»، فأمرهم بترك التمنّي، لما فيه من التعرّض للبلاء، وخوف الاغترار بالنفس إذا لم يُؤمن غدرها، ثم أمرهم بالصبر عند الوقوع تسليماً لأمر الله تعالىٰ، انتهى.

وأخرج سعيد بن منصور في مسنده، والهيثم بن كليب في مسنده، والطحاوي عن طارق بن شهاب قال: كنّا نتحدث إلى أبي موسى الأشعري، فقال لنا، وقد وقع الطاعون: إن هذا الوجع قد وقع في أهلي فمن شاء منكم أن يتنزّه فليتنزّه، واحذروا اثنتين: أن يقول قائل: خرج خارج فسلم، أو جلس جالس فأصيب، فلو كنتُ سَلِمْتُ كما سَلِمَ فلان، أو يقول قائل: لو كنت جلستُ أصبتُ كما أصيب فلان. وإنّي سأحدّثكم بما ينبغي للناس في الطاعون: إنّا كنّا مع أبي عبيدة بن الجراح، وإن الطاعون قد وقع بالشام، فكتب إليه عمر أن الأردن أرض عميقة، وإن الجابية أرض نزهة، فأظهر بالمسلمين بالجابية. قال أبو عبيدة: انطلق فبوّئ للناس منزلاً، فقلتُ: لا أستطيع، فذهب يركب، فطُعِن فمات، فانكشف الطاعون.

---

(١) أي الاعتماد على الأسباب الظاهرة وترك الاعتماد على الله والتوكّل عليه.

القول هل يشرع الدعاء برفعه؟ وعن الاجتماع له؟

وقع السؤال كثيراً في هذه الأيام عن ذلك، [واجتمع له بالجامع الأزهر قضاة القضاة، وجمع من العلماء وطلبة العلم][1]. والجواب: أن ذلك بدعة لا أصل لها وبيانه من وجوه:

أحدها: أنه لم يثبت في ذلك عن النبيّ ﷺ شيء، بل ثبت أنه دعا به وطلبه لأمّته، كما تقدّم.

الثاني: أن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه دعا به أيضاً. وأخرج عبد الرزاق في المصنّف: أخبرنا معمر عن قتادة أن أبا بكر كان إذا بعث جيوشاً إلى الشام، قال: اللّهمّ ارزقهم الشهادة، طعناً وطاعوناً.

الثالث: أنه وقع في زمن إمام الهدى عمر بن الخطاب، والصحابة يومئذ متوافرون وأكابرهم موجودون، فلم ينقل عن أحدٍ منهم أنه فعل شيئاً من ذلك، ولا أمر به كما ورد أنهم دعوا برفع القحط.

الرابع: أن القرن الأول وقع فيه مرّات متعدّدة، وفيه من الصحابة والتابعين ما لا يحصى وهم خيار الأمّة، فلم يفعل أحدٌ منهم ذلك ولا أمر به، وكذا في القرن الثاني وفيه خيار التابعين وأتباعهم. وكذا في القرن الثالث والرابع، وإنما حدث الدعاء برفعه في الزمن الأخير [الذي هو كزماننا هذا، لا يحتجُ بفعل أهله ولا بقولهم إذ لم يصل إلى رتبة الإجماع والقياس][2].

وذلك في سنة تسع وأربعين وسبعمائة كما نقله ابن حجر.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ).

وقد أخرج ابن سعد في الطبقات وابن وهب في جامعه والطبراني في الكبير عن عبد الله بن رافع، قال: لما أُصيبَ أبو عبيدة بن الجراح في طاعون عمواس استخلف معاذ بن جبل واشتدَّ الأمر، فقال الناس لمعاذ: ادعُ الله يرفع عنّا هذا الرجز، فقال: إنه ليس برجز ولكنه دعوة نبيّكم وموت الصالحين قبلكم، وشهادة يختصُّ الله بها من يشاء منكم. اللّهمّ آت معاذاً نصيبه الأوفر من هذه الرحمة، فطُعِن [ابناه، فقال: كيف تجدانكما؟ قالا: يا أبانا الحقُّ من ربك فلا تكوننّ من الممترين، [قال]: وأنا ستجداني إن شاء الله من الصابرين. ثم طُعِنَت امرأتاه، فهلكتا، وطعن هو في إبهامه فجعل يمصّها بفيه، ويقول: اللهمّ إنها صغيرة فبارك فيها، فإنك تبارك في الصغير... حتى هلك][1]. فهذا من معاذ صريح في أن الدعاء برفعه لا يشرع. وقد صحَّ أن معاذ بن جبل أعلم الأمة بالحلال والحرام وإنه إمام الفقهاء يوم القيامة، ورجَّح الأصوليون بموافقة قوله في الأحكام، وهذه مسألة حكمية فقهية، فأحقُّ ما اقتديَ به فيها. وقد تمسَّك قوم بقول الرافعي والثوري أن القنوت يشرع في سائر الصلوات لنازلة كالوباء، ولا يصلح مُتمسّكاً لأن الوباء غير الطاعون كما تقدم. والطاعون اختصَّ بكونه شهادة ورحمة ودعوة النبيّ ﷺ بخلاف الوباء، فلهذا شرع الدعاء برفع الوباء دونه، ويؤيّد ذلك اختصاصه بتحريم الفرار منه، وهو من الوباء بغيره كالحمّى ومن سائر أسباب الهلاك جائز بإجماع. وقد صرّحَ بالمسألة الحنابلة، فقال صاحب «الفروع» منهم: لا يقنت لأنه لم يثبت القنوت في طاعون عمواس ولا غيره، وقال المنبجي [في تأليفه في الطاعون][2]: يكره الدعاء برفعه، لأن معاذاً امتنع عن ذلك، واعتلَّ بكونه شهادة ورحمة، ودعوة نبيّنا ﷺ لأمّتِه. قال: فلو كان مشروعاً لما أحوجهم أن [يسألوه][3]، بل كان يفعله من تلقاء نفسه، بل لو كان مباحاً لما دروا بفعله عند سؤال الرعيّة له ما ظنّوا أنه مصلحة لهم انتهى.

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٢) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(٣) في المخطوطة(أ): أن يفعلوه، وما أثبتناه من المخطوطة(ب) هو الصواب، لأنهم سألوا معاذاً أن يدعو الله برفعه.

واختار الشيخ ولي الدين الملوّي أنه يُدعى برفعه، وألّف في ذلك كتاباً سمّاه «حلُّ الحبَاء في الدعاء برفع الوباء»[1].

ومال ابن حجر إلى مشروعية الدعاء فرادى ومنع الاجتماع له، فقال: الاجتماع له كما في الاستسقاء بدعة حدثت سنة تسع وأربعين وسبعمائة، ولم يفد ذلك شيئاً، بل زاد الأمر شِدّة، قال: ولو كان مشروعاً لم يخفَ على السلف ولا على فقهاء الأمصار وأتباعهم في الأعصار الماضية ا.هـ. فلم يبلغنا في ذلك خبر ولا أثر عن المحدّثين، ولا فرع مسطور عن أحد من الفقهاء.

[وقال الرافعي في «تاريخ قزوين»: حكى والدي عن الإمام ملكداد بن علي عن أبي القاسم هبة الله بن عبد الله الكموني من كبار أهل العلم والفقه، للوباء [أي دعاء للوباء]: يا حيّ يا قيّوم!! ربّنا اكشف عنا العذاب إنّا مؤمنون. بسم الله ذي الشأن العظيم البرهان، الشديد السلطان، ما أعظم الشأن، ما شاء الله كان. اللّهمّ إني أعوذ بك من الطعن والطاعون والوباء. اللّهمّ إنّي أعوذ بك من موت الفجأة ومن مهزة الحمّى. اللّهمّ إني أعوذ بك من سوء القضاء، وجهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء][2].

فائدة: ذكر ابن أبي حجلة[3] في «جزء له عن الطاعون» أن بعض الصالحين ذكر له أن من أعظم الأسباب الرافعة للطاعون وغيره من البلايا العظام كثرة الصلاة على النبيّ ﷺ، وأنه ذكر ذلك الشيخ شمس الدين [ابن][4] خطيب بيرود فاستصوبه، واستَدَلَّ له بحديث أُبي [أبي بن كعب]: «إذن تُكفى همّك ويُغفر ذنبك».

---

(1) في المخطوطة(أ): «الحباء في الدعاء برفع الوباء»، وما أثبتناه من المخطوطة(ب)، وهو الصواب.

(2) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب)، ولكنه مضاف إليها بعد الانتهاء من المخطوطة. قال عبد المجيد الحريثي أنه وجد نسخة أخرى من كتاب السيوطي وفيها ما ذكره الرافعي.

(3) في المخطوطة(ب): (ابن حجلة).

(4) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

ووقع في بعض نسخ من الحلية[1] عن الشافعي: أحسن ما يُداوى به الطاعون التسبيح، ووجه[2] [ذلك] بأن الذكر يرفع العقوبة والعذاب، قال تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾[3]. وعن كعب قال: سبحان الله تمنع العذاب، وعن عمر أنه أمر بجلد رجل فجلد أوّل جلدة، فقال: سبحان الله، فعفى عنه عمر.

قال ابن حجر: والمعروف عن الشافعي ما ذكره ابن أبي حاتم وغيره: لم أرَ للوباء أنفع من البنفسج يُدهن به، ويُشرب.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «ذكر الموت» عن الحسن أنه قال: أيّام الوباء ما كان أحسنها من أيام: سخوا فيها بالأنفس، ولا يُخطا فيها بأحد.

[فائدة أيضاً عنه][4]: قال لما وقع الوباء بالبصرة كان الحسن يخرج إلى المقابر كل يوم فيصلّي على الجنائز، فيقول: سخَت الأنفس هذه الأيام، ولم يُخْترم[5] أحد دون أجله، الموت في وقته، والكتاب إلى أجله، ومن فاته اليوم لم يفته غداً.

[فوائد: أخرج ابن سعد عن غيلان بن جرير قال: كان مُطرِّف إذا وقع الطاعون يتنحّى. وأخرج ابن سعد عن أنس بن سيرين قال: بلغنا بالكوفة أن مسروقاً كان يفرُّ من الطاعون، فأنكر ذلك محمد، وقال: انطلق بنا إلى امرأته [ ][6]، فدخلنا عليها فسألناها، [فقالت]: كلاّ والله، ما كان يفرّ، ولكنه كان يقول: أيّام تشاغل فأحبُّ أن أخلو للعبادة، فكان يتنحّى فيخلو للعبادة. قالت: وسمعته يقول: الطعن والبطن والنفساء والغرق: من مات فيهن مسلماً فهي له شهادة.

---

(١) المقصود حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.

(٢) الصواب: ووجهه.

(٣) الآية: ﴿فلولا أنه كان من المسبِّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾، سورة الصافات، آية ١٤٣.

(٤) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب)، وبدلاً عنها: (وأخرج أيضاً).

(٥) الصواب ما أثبتناه هاهنا بينما في المخطوطتين: (ولم يحترم) بالحاء المهملة، وسياق الكلام يدلّ على أنها بالخاء المعجمة.

(٦) كلمة غير واضحة في المخطوط.

وأخرج أحمد والطبراني في «الأوسط»، وابن شاهين في «الصحابة» عن عليم الكندي قال: كنت مع أبي عيسى الغفاري فرأى قوماً يتحمّلون من الطاعون، فقال: يا طاعون خذني إليك، ثلاثاً، فقلت له: لِمَ تقول هذا؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: «لا يتمنّى أحدكم الموت، فإنه عند ذلك انقطاع عمله، ولا يُرَدُّ فيستعتب». فقال أبو عيسى: أنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «بادروا بالموت سِتّاً: إمرة السفهاء، وكثرة الشُّرَط، وبيع الحكم، واستخفاف بالدم، وقطيعة الرحم، ونشوءاً يتخذون القرآن مزامير، يقدمون الرجل ليفتيهم بالقرآن، وإن كان أقلّهم فقهاً».

وأخرج الحاكم في «المستدرك» عن الحسن، قال: قال الحكم بن عمرو: يا طاعون خذني إليك، فقيل له: لم تقول هذا؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يتمنينّ أحدكم الموت»، قال: قد سمعتُ ما سمعتم ولكني أبادر سِتّاً: بيع الحكم، وكثرة الشُّرَط، وإمارة الصّبيان، وسفك الدماء، وقطيعة الرّحم، ونشوءاً يكونون في آخر الزمان يتّخذون القرآن مزامير][1].

[وأخرج أحمد عن عوف بن مالك أنّه قال: يا طاعون خذني، فقالوا: أليس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما عُمِّرَ المسلم كان خيراً»، قال: بلى، ولكن أخاف سِتّاً: إمارة السفهاء... الحديث.

وأخرج ابن سعد عن هشام بن عروة أن الزبير بُعِثَ إلى مصر، فقيل له: إن بمصر الطاعون، فقال: إنما جئنا للطعن والطاعون[2].

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي حبيبة، مولى الزبير، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمّا وجّهَ الزبير إلى مصر مدداً لعمرو بن العاص قيل

---

(1) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).

(2) هذه الرواية ضعيفة متناً وسنداً، فهشام لم يشهد الزبير... والطاعون لم يكن بمصر أيام فتحها. وكذلك الرواية الثانية في كتاب الزهد لأحمد، فلم يكن بمصر الطاعون عندما بعث عمر رضي الله عنه الزبير (رضي الله عنه) مدداً لعمرو بن العاص. ولم يصب بالتالي الزبير بالطاعون وهذه رواية غير صحيحة، فالزبير رضي الله عنه قتله ابن جرموز عندما أقرّ للإمام علي بخطئه وتصالى ولم يقاتله في موقعة الجمل، بل انصرف عنها، ثم نام تحت شجرة فلحقه ابن جرموز فقتله، فقال له الإمام علي: «بشر قاتل ابن صفية بالنار»، فقتل نفسه وانتحر.

له: إنك تقدم مصر، وهي أرض طاعون، فقال الزبير: اللّهمّ طعناً وطاعوناً، فقدمها طُعِن فيها فأفرق.

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الطواعين» عن كردوس الثعلبي، قال: لما وقع الطاعون بالكوفة، وقال المغيرة بن شعبة: إن هذا العذاب قد وقع فاخرجوا عنه، قال: فذكرته لأبي موسى، فقال: لكن العبد الصالح (أبو بكر)[1] الصدّيق [قال][2]: «اللّهمّ طعناً وطاعوناً في مرضاتك».

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب «الكفارات والمرض» عن أبي مجلز، أنه كان يقول: لا تحدّثوا المريض إلاّ بما يعجبه، قال عمران بن [جرير][3]: وكان يأتيني وأنا مطعون فيقول: عَدّوا اليوم في الحي، كذا وكذا ممن أفرق، وعَدّوك فيهم، قال: فأفرح بذلك[4].

وأخرج الحاكم وصحّحَهُ عن سعيد بن الحارث أنه سمع ابن عمر سأله رجل: يا أبا عبد الرحمٰن، إن ابني كان بأرض فارس، وأنه وقع بالبصرة طاعون شديد، فلما بلغ نذرت إن الله جاءَ بابني أن أمشي إلى الكعبة، فجاء مريضاً فما ترى؟ فقال ابن عمر: أوَ لم تنهوا عن النذر، إن رسول الله ﷺ قال: «إن النذر لا يقدم شيئاً ولا يؤخره، وإنما يستخرج به من البخيل».

وأخرج: لم أعوّل على شيء مما ذكره الأطباء فيما يستعمل أيام الطاعون لأنه شيء لا فائدة فيه. وهم إنما بنوا ما ذكروه على ما قرّروه من أنه ناشئ عن فساد الهواء، وقد تبيّن فساد ما قالوه لمجيء الأحاديث النبويّة بخلافه، فالأولى طرح ذلك، والتوكّل على الله سبحانه[5].

---

(١) الصواب: (أبا بكر).

(٢) ساقط من الأصل.

(٣) كلمة غير واضحة في المخطوطة(أ)، وهي (ابن جرير) في زيادات المخطوطة(ب).

(٤) يقصد التخفيف عنه، ويقول إنك ممن برئت من الطاعون.

(٥) لا شك أن الطاعون ليس ناشئاً عن فساد الهواء كما زعم الأطباء القدامى، وإنما سبب الطاعون بكتريا من فصيلة يرسينيا تحملها البراغيث التي تقوم بوخز ضحاياها وهي مختفية، وكل ما اختفى يمكن أن يطلق عليه جنّ. ومنه الجنّة لاختفائها بالأشجار الكثيفة. والمجنّ: الترس، والجن: الخلق المختفي عن الأنظار، والجنين في بطن أمه.

وأعجب من ذلك ما ذكره التيفاشي في كتاب «الأحجار» وابن البيطار أن من يختم [أي يتختم ويجعل الياقوت خاتماً] بالياقوت، أو علّقه عليه أمن من شر الطاعون!! قيل: إن جُرِّب من ذلك شيء مما ذكر في الخواص [أي خواص المعادن] فصحَّ، فالأولى الإعراض عن ذلك كلّه[1]. وما أحسن قول من قال:

لكل داء دواء يستطب به ... إلاّ الحماقة والطاعون والهرما

أورده جعفر بن شمس الخلافة في «الآداب».

فائدة أخرى: ذكر جماعة، آخرهم شيخ الإسلام أبو الفضل ابن حجر أن عادة في مصر أنه يقع في فصل الربيع، قال: إلاّ طاعون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، فإنه خالف العادة، فوقع في الشتاء، وارتفع في أوّل الصّيف. قال: وخالف أيضاً في أشياء، فإن قيل: إذا كان من طعن الجنّ فمقتضاه أنه لا يختصُّ بوقت، فالجواب: أن الله أجرى العادة بذلك، ولو شاء لم يخصُّه بوقت، كما أنه سبحانه أجرى العادة بزيادة النيل في الصّيف، وبوقوع المطر في الشتاء، ولو شاء لم يخصّ ذلك بوقت.

ونقل صاحب «المرآة» أن الطاعون الذي وقع بمصر سنة خمس وخمسين وأربعمائة ابتدأ في فصل الربيع ودام إلى الخريف، وأقام عشرة أشهر، وكان شديداً جداً بحيث كان يموت في كل يوم ألف نفس مدة العشرة أشهر][2].

فائدة: اشتهر عند الناس أن من طُعِن في فصل بعد ذلك، واستقريء ذلك كثيراً، فصحَّ[3] فرأيتُ من الأطباء من يعلّله بأن البدن [][4] ذلك فلم يضرّه. عندي في تعليله من حيث الشرع إن صحَّ تمام ذلك الاستقراء، أن

حيث يختفي فيه وهكذا. ولذا فإن الأدوية والعقاقير التي كان القدماء يستخدمونها لمحاربة الطاعون كانت لا فائدة فيها.

(1) ليس صحيحاً أن التختّم أو تعليق الياقوت يقي من الطاعون، وإنما هو من الخزعبلات.

(2) كل ما بين المعقوفتين مما سماه فوائد ساقط من المخطوطة(ب).

(3) يقصد أن من أصيب بالطاعون وشفي منه، فإنه لو أصابه مرة أخرى لم يضرّه، وهذا صحيح لتكوّن المناعة لديه.

(4) كلمة ساقطة من الأصل.

يقال: الظاهر أن الله سبحانه إنما يسلّط الجني على الإنسي مَرّةً واحدة، فإن مات في طعنته لم يسلّطه عليه مرة ثانية، والعلم عند الله تعالىٰ، لكن في هذه السنة [أصيب][1] جماعة بالطاعون ذكر لي أهلهم أنهم طعنوا فيما تقدّم، وهذا يخدش ذلك الاستقراء. ثم رأيتُ ما يدلّ على صحة هذا الاستقراء، فأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق هشام بن عمارة قال: حدّثنا الهيثم بن عمر أنه قال: سمعت جدّي يقول: لمّا وليَ عمر بن الخطاب زار أهل الشام فنزل بالجابية، وكانت دمشق تشتعل طاعوناً فهمّ أن يدخلها، فقال له صاحبه: أما علمت أن النبيّ ﷺ قال: «إذا حلّ بكم الطاعون فلا تهربوا منه، ولا تأتوه حيث هو». وقد علمت أن أصحاب النبيّ ﷺ [ ][2] لم يصبهم طاعون قط، فرجع عند ذلك.

فائدة أخرى: أخرج ابن سعد وابن جرير في تاريخه عن ابن عباس، قال: نزل بنو سالم المجدل، سُرّة الأرض، ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور، ورُفِعَ عنهم الطاعون، ونزل بنو يافث الصفوة، مجرى الشمال، وابتلوا بالطاعون.

فائدة: قال ابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا علي بن محمد عن يزيد بن عياض بن [ ][3] عن حرام بن عثمان الأنصاري، قال: قدم علينا أسعد بن زرارة [الأنصاري] من الشام [ ][4] في أربعين رجلاً من قومه، فرأى رؤيا أن آتياً أتاه، فقال: إن نبيّنا يخرج بمكة يا أبا أمامة فاتّبعه، وآية ذلك أنكم تنزلون منزلاً فيصاب أصحابك وتنجو أنت، وفلان يُطعن في عينه.

وأخرج البيهقي في دلائل النبوّة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، قال: مكث رسول الله ﷺ يدعو على عامر بن الطفيل ثلاثين صباحاً: اللّهمّ اكفني عامر بن الطفيل بما شئت، وابعث عليه داءً يقتله، فبعث الله عليه طاعوناً فقتله.

---

(١) هذه الكلمة يقتضيها السياق فأضفتها.
(٢) كلمة غير واضحة في المخطوطة.
(٣) كلمة غير واضحة في المخطوطة.
(٤) كلمة غير واضحة في المخطوطة.

فائدة أخرى: قال البدر بن الصاحب في تذكرته، ومن خطِّهِ نقلتُ: استفتاني بعض الأطباء في فضل الطاعون في الفصد فمنعت منه، مع أن المرض دموي، لأن الأبدان قد تخلّلها الهواء الوبائي فغيَّر دماها كلها، فلا يفيد تنقيصها شيئاً لأنها كلها فاسدة، ومتى استفرغها بجملتها هلك، فلم يبق إلاّ التدبير الآلي بقلب المراد. قال: ولهذا يمنع من الزائد على الثلث إذا ظهر الطاعون في البلد، لتعلّقه بجميع الأجساد، فالصحيح فيه له حكم السقيم انتهى.

فائدة أخرى: قال الزمخشري في «الفائق المعرب»: تنزل الطاعون رماح الجن. قال ابن حجر: لعل قائل هذا من أهل الإسلام الذين علموا ذلك من الحديث. وقال الزمخشري في «الكلم النوابغ»: إذا كثر [الطاغوت][1] أرسل الله الطاعون.

فائدة أخرى: أخرج محمد بن الربيع الخيري في مسنده، والبيهقي في «الدلائل» عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ رأى سبيعة الأسلمية تأكل بشمالها، فقال: «ما لها تأكل بشمالها، أخذها داء غُدَّة»؟ فقالت: يا نبيّ [الله][2]، إن في عيني قرحة[3]. قالوا: أن قال يزيد: بلغنا أن سبيعة لما مرّت بغزّة أصابها الطاعون فقتلها. قال ابن أبي حجلة: الظاهر أن أصل الطاعون وانتشاره في الأرض من غزة[4]، واستدلَّ بهذا الحديث.

فائدة أخرى: أخرج أبو نعيم في الحلية عن يونس بن عبيد قال: كان طاعون قِبَلَ بلاد ميمون بن مهران، فكتبتُ إليه أسأله عن أهله، فكتب إليّ: بلغني كتابك تسألني عن أهلي، وأنه مات من أهلي وحامتي سبعة عشر إنساناً، وإني أكره البلاء إذا أقبل، فإذا أدبر لم يَسرُّني أنه لم يكن.

فائدة: قال ابن أبي حجلة، يذكر من خصائص الأمراض: طواعين

---

(١) في الأصل: (الطاعون)، والمعنى لا يستقيم فلعل الصواب: «الطاغوت».
(٢) ساقط من الأصل.
(٣) كلام غريب فهل إذا أصيبت عينها بقرحة تأكل بشمالها... ما لعينها وللأكل بشمالها!!؟
(٤) هذا الكلام كله لا أصل له ولا قيمة له وهو من التخرّصات.

الشام، ووباء مصر، وحمّى خيبر، وعِرق اليمن[١]، ودمامل الجزيرة[٢]، وطحال البحرين[٣]، وبرسام العراق[٤]، والنار الفارسية[٥]، وقروح

(١) **عرق اليمن**: ويسمّى أيضاً دودة المدينة ودودة غينيا، وهو داء سببه دودة مثل الخيط أو الحبل تسمى خيطيات المدينة Dracunculus Medinensis. وهذا المرض منتشر في الأماكن شبه الجافة حيث يتم الاعتماد على مياه الآبار، ولذا فهي تنتشر في الجزيرة العربية (واليمن بخاصة)، وأفريقيا في أماكن عدة منها شمال أفريقيا وغانا وغينيا وفي آسيا في الهند وإيران والتركستان، وفي الأميركيتين وبالذات في البرازيل. تنتقل إلى الإنسان بواسطة حشرات قشرية مائية دقيقة تدعى (البلاليط) Cyclops، فإذا ابتلع الإنسان شيئاً منها خرجت أجنة الديدان من الحشرات التي يهضمها الحامض المعدي... ثم تنتقل الأجنة إلى الأمعاء وتخترقها لتصل عبر الأوعية اللمفاوية إلى تحت الجلد وخاصة في الأقدام والسيقان، وذلك خلال أربعين يوماً. ثم تنمو تحت الجلد، وتحتاج إلى سنة كاملة ليكتمل نموّها ويتمايز الذكر من الأنثى، ويتم تلقيح الأنثى، ويبلغ طولها قرابة المتر، ثم تخرج برأسها ويتبعه رحمها المليء بالأجنة فإذا أحست قرب الماء خرجت الأجنة. وتنمو الأجنة في الماء والطين لمدة أسبوعين أو ثلاثة، وتبتلعها حشرة قشرية تدعى (البلاليط) Cyclops فتخترق أمعاء الحشرة وتتغذّى الأجنة على الغدة التناسلية لهذه الحشرة ويبلغ طولها مليمتراً واحداً. فإذا شرب الإنسان الماء، وفيه هذه الحشرات أعادت دورة حياتها مسبّبة حكة وآلاماً في الساق والقدم.

(٢) **دمامل الجزيرة**: والمقصود بالجزيرة هنا جزيرة ابن عمر وهي بين دجلة والفرات في العراق، وتدعى أيضاً قرحة حلب، وقرحة بغداد وسببها طفيلي اللشمانيا المنتشر في الجزيرة العربية وأماكن أخرى.

(٣) **طحال البحرين**: (يطلق اسم البحرين قديماً على منطقة الإحساء، المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية)، وسببه الملاريا والبلهارسيا واللشمانيا، وكلها منتشرة في هذه المنطقة.

(٤) **البرسام**: ذات الجنب الجاف مع وجع ناخس في الصدر وسعال وصداع وحمّى. وفي القاموس المحيط البرسام: علّة تسبب الهذيان.

(٥) **النار الفارسية**: هي مرض الهربس زوستر (القوباء المنطقية) وسببه أحد فيروسات الهربس التي تسبّب في الأطفال الجديري (العنقز، الجديعة، الحميقاء)، وفي كبار السن تسبّب ألماً شديداً، ويصيب الفيروس العقد العصبية وينتشر على مجرى العصب الطرفي ويظهر على شكل بثور، ويصحب ذلك إحساس بالألم واحتراق الجلد مثل حرق النار أو أشد. وقد يصحب ذلك حمّى خفيفة. وكلما تقدمت السن بالشخص كانت الإصابة أشد وأعتى، وقد تصيب عصب العين Opthalmic، فيؤدي ذلك إلى إصابة الجفن والعين، وقد يؤدي ذلك إلى عمى تلك العين (وهو أمر نادر الحدوث).

بلغ[1].

فائدة: قال ابن سعد: أخبرنا أبو عاصم النبيل، حدثنا سفيان بن إسماعيل بن أميّة عن عبد الله بن عروة، عن عروة، عن عائشة قالت: «تزوّجني رسول الله ﷺ في شوّال، ودخلتُ عليه في شوال، فأيّ إنسان كان أحظى عنده منّي». وكانت تستحب أن تدخل نساؤها في شوّال.

قال أبو عاصم: إنما كره الناس أن يدخلوا في شوال لطاعون وقع في شوال في الزمن الأوّل][2].

وفي إضافات المخطوطة ب جمعها عبد الحميد الحريثي الشافعي من مخطوطة أخرى للسيوطي في الطاعون:

وأنشد المعمار:

يا من تمنى الموت قم واغتنم ... هــذا أوان الــمــوت مــا فــاتــا
قد رَخُصَ الموت على أهله ... ومــات فــي لا عــمــره مــاتــا

وقال آخر:

رعى الرحمٰن دهراً قد توالى ... يجازي بالسلامة كل شرط
وكان الناس في غفلات أمن ... فجاء طاعونهم من تحت إبط

شهاب الدين بن فضل الله:

قُبِّحَ الطاعون داء ... فنيت فيه الأحبّة
أرخص الأنفس بيعاً ... كل إنسان بحَبَّه

ابن أبي حجلة:

أرى الطاعون يفتك في البرايا ... ويطعن طعن أرباب الحراب
وينشد عند هدم العمر منّا ... لِدوا للموت، وابنوا للخراب

---

* وللهربس زوستر علاج هو اسيكلوفير يخفّف كثيراً من شدّته، ولا علاقة لهذا النوع من الهربس بمرض الهربس التناسلي Genital Herpes، الذي يصيب الأعضاء التناسلية، وينتشر عن طريق الاتّصال الجنسي.

(1) **قروح بلغ**: لعلها أيضاً من اللشمانيا وهي تشبه قروح اللشمانيا المعروفة بقرحة حلب وقرحة بغداد... وهي منتشرة في هذه المناطق حيث تنتقل بواسطة ذبابة الرمل Sandfly.

(2) ما بين المعقوفتين بأكمله ساقط من المخطوطة(ب).

سـرد الطواعين
الواقعـة في الإسـلام

سرد الطواعين الواقعة في الإسلام

قال ابن أبي حجلة في تأليفه في «الطاعون»: **أول طاعون وقع في الإسلام على عهد النبيّ ﷺ** سنة ستّ من الهجرة بالمدائن، ويعرف بطاعون شيرويه، فيما حكاه المدائني. ولم أعلم **كم مات فيه فأحكيه**. قلت: ولم يمت فيه أحد من المسلمين. وقد أخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» من طريق حمّاد بن زيد عن أيوب، قال: قال محمّد: «لم يكن طاعون أشدّ من ثلاثة طواعين: طاعون ازدجرد، وطاعون عمواس، وطاعون الجارف»[1]. وقال المدائني: **كانت الطواعين العظام المشهورة في عهد رسول الله ﷺ، ثمّ طاعون عمواس، ثمّ طاعون الجارف، ثمّ طاعون الفتيات، ثمّ طاعون الأشراف** انتهى.

الثاني: طاعون عمواس، بفتح العين المهملة والميم وقد تسكن وتخفيف الواو وآخره سين مهملة، **اسم موضع بالشام وكان في خلافة عمر بن الخطّاب سنة سبع عشرة وقيل ثمان عشرة، ومات فيه من جيش المسلمين خمسة وعشرون ألفاً**[2]. [وقيل: سمّي طاعون عمواس لأنّه عمّ الناس وتواسوا فيه،

---

(١) في المخطوطة(أ): فيه حذف وتداخل بحيث أسقط (وقال المدائني: كانت الطواعين العظام في الإسلام خمسة)، وأدخل كلام ابن عساكر في كلام المدائني. وأما المخطوطة(ب) فقد أسقط الكلام كله من بدايته. وابتدأ من طاعون عمواس حيث قال: أول طاعون وقع في الإسلام طاعون عمواس. وعمواس تقع في فلسطين، وهي كما يقول الحافظ ابن كثير: بليدة صغيرة بين القدس والرّملة، كان الطاعون أول ما نجم بها ثم انتشر في الشام فنُسِبَ إليها. وذكر ياقوت في معجم البلدان أن عمواس بلدة تقع على بعد ستة أميال من الرّملة في الطريق إلى بيت المقدس، منها ابتدأ الطاعون سنة ١٨هـ وانتشر. وفي نفس العام حدثت المجاعة في المدينة، وهو عام الرمادة.

(٢) في المخطوطة(أ) والمخطوطة(ب): ومات فيه خمسة وعشرون ألفاً، وقيل ثلاثون ألفاً.

حكاه الحافظ عبد الغني المقدسي][1]. وذكر سيف بن عمر[2] عن شيوخه، قالوا: لمّا كان طاعون عمواس وقع مرّتين لم يُرَ مثلهما، وطال مكثه. وذلك أنّه وقع بالشام في المحرّم وصفر ثمّ ارتفع، ثمّ عاد وفنى فيه خلق كثير من الناس حتى طمع العدوّ، وتخوّفت قلوب المسلمين لذلك. قال سيف: واجتاح[3] أهل البصرة تلك السنة أيضاً طاعون فمات بشر كثير وجم غفير. وفي «مرآة الزمان»: لمّا كان سنة ثمان عشرة أصاب جماعة من المسلمين[4] بالشام الشراب فجلدهم أبو عبيدة بأمر عمر. وقال عمر عند ذلك: ليحدثن في هذا العام حادث، فوقع الطاعون. قال هشام: إنما حدث الطاعون بالشام لأجل هؤلاء الذين شربوا الخمر.

من مات في طاعون عمواس من الصحابة:

وممّن مات في طاعون عمواس من مشاهير الصحابة: أبو عبيدة بن الجرّاح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العبّاس، وهو ابن عمّ رسول الله ﷺ، وأبو مالك الأشعري، ويزيد بن أبي سفيان أخو معاوية، والحارث بن هشام أخو أبي جهل، وأبو جندل الذي جاء يوم الحديبية يرسف[5] في قيوده، وسهيل بن عمرو الذي قام بمكّة يوم مات النبيّ ﷺ فثبت الناس [وعد][6]، وهو والد أبي جندل.

وممّا قيل في طاعون عمواس من الشعر قول امرئ القيس حشيش الكنديّ، أورده أبو حذيفة البخاري في «كتاب المبتدأ»، وابن عساكر في «تاريخه»:

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(ب).
(٢) في المخطوطة(أ): (وذكر ابن عمر)، والجملة بكاملها ساقط من المخطوطة(ب).
(٣) في المخطوطة(أ): (وأصاب)، والفقرة بكاملها ساقطة من المخطوطة(ب).
(٤) في المخطوطة(أ): (من الشام).
(٥) في المخطوطة(أ): (يرفس) وهو خطأ، وما أثبته كريمر هو الصواب.
(٦) هذه الكلمة ساقطة من المخطوطة(أ)، قال كريمر وفي نسخة أخرى لديه «ووعد»، وهو الأقرب للصواب.

[بْنُ جِزْبٍ[1] مِثْلِ الهِلَالِ وَبَيْضا   حَصَانٍ[2] بِالجِزْعِ مِنْ عَمَوَاسِ
قَدْ لَقُوا اللّٰهَ غَيْرَ بَاغٍ عَلَيْهِمْ   ثُمَّ أَضْحَوْا فِي غَيْرِ أَهْلِ ٱبْتِيَاسِ
فَصَبَرْنَا لَهُمْ كَمَا عَلِمَ اللّٰـ   ـهُ وَكُنَّا فِي المَوْتِ أَهْلَ تَآسٍ][3]

قال سيف عن شيوخه: خرج الحارث بن هشام في سبعين من أهله إلى مرتع الشام، فلم يرجع منهم إلاّ أربعة، فقال المهاجر بن خالد في ذلك:

مَنْ يَسْكُنِ الشَّأمَ يُعَرِّسْ بِهِ   وَالشَّامُ إنْ لَمْ نَأْبَهَا طَارِبْ
أَفْنَى بِهِمْ رِبْضَةُ[4] فُرْسَانِهِمْ   عِشْرُونَ لَمْ يُقَصَّصْ لَهُمْ شَارِبُ
وَمِنْ بَنِي أَعْمَامِهِمْ مِثْلُهُمْ   لِمِثْلِ هٰذَا يَعْجِبُ العَاجِبُ
طَعْناً وَطَاعُوناً مَنَايَاهُمُ   ذٰلِكَ مَا خَطَّ لَنَا الكَاتِبُ

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: عمواس بليدة صغيرة بين القدس والرملة، كان الطاعون أوّل ما نجم بها، ثمّ انتشر في الشام منها فنسب إليها[5]. وقال البيهقي في «دلائل النبوّة» باب ما جاء في إخبار النبيّ ﷺ بالطاعون الذي وقع بالشام في أصحابه في عهد عمر بن الخطاب، ثم أخرج عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: أتيت رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وهو في خباء من أدم، فقال: «يا عوف احفظ خلالاً ستّاً بين يدي الساعة، إحداهنّ: موتي، ثمّ فتح بيت المقدس، ثمّ موتان يظهر فيكم يستشهد الله[6] ذراريكم وأنفسكم ويزكّي به أعمالكم، ثمّ استفاضة المال بينكم» الحديث. وأخرج الحاكم عن عوف بن مالك أنه قال في طاعون عمواس: أن

---

(1) في المخطوطة(أ): (رب حرف).
(2) في المخطوطة(أ): خصوان.
(3) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ)، وكل ما تقدم عن طاعون عمواس ما عدا ذكر الأعداد ساقط من المخطوطة(ب).
(4) في المخطوطة(أ) وفي مخطوطة أخرى عند كريمر: (ربطه).
(5) هاهنا إضافة في المخطوطة(أ): (وقال ابن سعد في الطبقات عمواس من الرملة على أربعة أميال مما يلي بيت المقدس، وبها قبر أبي عبيدة بن الجراح)، الواقع أن أبا عبيدة ومعاذ بن جبل وابنه ضرار بن الأزور كلهم مقبورون في غور الأردن، شمال البحر الميت.
(6) في المخطوطة(أ): (يستشهد الله به).

رسول الله ﷺ قال: «أعدد ستاً بين يدي الساعة»، قال: فقد وقع منهن ثلاث، يعني موته ﷺ، وفتح بيت المقدس، والطاعون. قال: وبقي ثلاث، فقال له معاذ: إن لها أمداً.

طاعون الكوفة، وإصابة زياد بن سمية:

ثم وقع الطاعون بالكوفة[1] سنة تسع وأربعين، فخرج المغيرة بن شعبة منها فاراً، فلمّا ارتفع الطاعون رجع إليها فأصابه الطاعون فمات في سنة خمسين، ذكره ابن كثير[2]، ثم وقع بها في سنة ثلاث وخمسين، ومات فيه زياد[3]، ذكره في «مرآة الزمان». وقال ابن كثير: في سنة ثلاث وخمسين في رمضان توفي زياد بن أبي سفيان، ويقال له: زياد بن أبيه وزياد ابن سمية وهي أمه، مطعوناً. وكان سبب ذلك: أنه كتب إلى معاوية يقول: إني قد ضبطت لك العراق بشمالي ويميني فارغة وهو يعرض له أن يستنيبه على بلاد الحجاز أيضاً، فلمّا بلغ أهل الحجاز جاؤوا إلى عبد الله بن عمر فشكوا إليه ذلك، وخافوا أن يلي عليهم زياد، فيعسفهم كما عسف أهل العراق، فقال ابن عمر[4]: فاستقبل القبلة فدعا على زياد والناس مؤمّنون[5]، فطعن زياد بالعراق في يده فضاق ذرعاً بذلك، واستشار شريحاً القاضي في قطع يده، فقال له شريح: إني لا أرى لك ذلك، فإنه إن لم يكن في الأجل فسحة لقيت الله أجذم قد قطعت يدك خوفاً من لقائه، وإن كان لك أجل بقيت في الناس أجذم

---

(١) في المخطوطة(ب): (ثم وقع الطاعون بالكوفة في حياة ابن مسعود، ثم وقع بها في حياة أبي موسى الأشعري، ثم وقع بها في إمارة المغيرة بن شعبة سنة خمسين).

(٢) في المخطوطة(أ): (ذكره ابن كثير في تاريخه).

(٣) هو زياد بن أبيه، وكان من زنى الجاهلية حيث زنى أبو سفيان بن حرب بأم زياد وهي أمة في الطائف تدعى سُميّة، وقد استقذرها أبو سفيان لكنه اشتهى النساء، ولم يجد غيرها يومها. وكان زياد من دهاة العرب. وفي أول أمره كان مع الإمام علي كرّم الله وجهه، فلما قتل الإمام بعث له معاوية... وناداه بأخيه، وولاّه العراقين، فانقلب إلى صفّه. وأعلن معاوية أخوّته وأصبح ينادي: زياد بن أبي سفيان، مخالفاً لتعاليم الإسلام الواضحة ومتحدياً من بقي من الصحابة الذين أنكروا عليه فعلته الشنعاء.

(٤) في المخطوطة(أ): (فقام)، وهوالصواب.

(٥) في المخطوطة(أ): (يؤمنون).

بعير ولدك بذلك، فصرفه ذلك. ويقال: إن زياداً جعل يقول: أأنام أنا والطاعون في فراش واحد.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمٰن بن السائب الأنصاري، قال: جمع زياد أهل الكوفة فملأ منهم المسجد والرحبة والقصر ليعرضهم على البراءة من عليّ بن أبي طالب، قال عبد الرحمٰن: فإني مع نفر من أصحابي والناس في أمر عظيم، فهوّمت تهويمة[1]، فرأيت شيئاً أقبل طويل العنق مثل عنق البعير أهدب أهدل، فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا النقّاد ذو الرقبة بُعثت إلى صاحب هذا القصر، فاستيقظت فزعاً، فقلت لأصحابي: هل رأيتم مثل ما رأيت[2] فأخبرتهم. وخرج علينا خارج من القصر فقال: إنّ الأمير[3] يقول لكم: انصرفوا عني، فإنّي عنكم مشغول. وإذا الطاعون قد أصابه.

طاعون الجارف بالبصرة:

ثمّ وقع بالبصرة طاعون الجارف، وسمّي بذلك لأنه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض فيأخذ معظمها، واختلف في سنته، فقيل: وقع في سنة أربع وستّين، وبه جزم ابن الجوزي في «المنتظم»، وقيل: كان في شوّال سنة تسع وستّين، قاله ابن كثير، وهذا هو المشهور الذي ذكره شيخنا الذهبيّ وغيره. وقيل: سنة سبعين، وقيل: سنة ستّ وسبعين، وقيل: سنة ثمانين. قال ابن كثير: حكاه ابن جرير عن الواقديّ، ومات فيه لأنس بن مالك ثلاثة وثمانون ولداً، ولأبي بكرة أربعون ولداً. قال ابن كثير: كان ثلاثة أيام مات في أوّل يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفاً، وفي اليوم الثاني منه واحد وسبعون ألفاً، وفي اليوم الثالث منه ثلاثة وسبعون ألفاً، وأصبح الناس في اليوم الرابع موتى إلاّ القليل من آحاد الناس، حتى ذُكر أن أمّ الأمير بها ماتت، فلم يوجد لها من يحملها.

قصة الغلام التي أرضعته كلبة في الطاعون:

وقال صاحب «المرآة»: مات فيه أهل الشام إلاّ اليسير. وقال الحافظ أبو

---

(١) أي نعس، ونام نومة خفيفة رأى فيها هذا الحلم الذي قصّه.

(٢) في المخطوطة(أ) زيادة: (قالوا: لا).

(٣) في المخطوطة(أ): (إن أمير المؤمنين)، وهو خطأ، والصواب ما أثبته كريمر: (إن الأمير).

نعيم الأصبهاني: [ثنا][1] عبيد الله [ثنا] أحمد بن عصام حدّثني معدي عن رجل يكنّى أبا الفضل، وكان قد أدرك زمن الطاعون، قال: كنّا نطوف في القبائل وندفن الموتى، فلما كثروا لم نقوَ على الدفن، فكنّا ندخل الدار، وقد مات أهلها فنسدّ بابها. قال: فدخلنا داراً ففتّشناها فلم نجد فيها أحداً حيّاً فسددناها فلمّا مضت الطواعين كنّا نطوف، فننزع تلك السدد عن الأبواب، ففتحنا سدّة الباب التي كنّا قد فتّشناها فإذا نحن بغلام في وسط الدار طريّ دهين كأنّما أخذ ساعتئذ من حجر أمّه، قال: فنحن وقوف على الغلام نتعجّب منه فدخلت كلبة من شقّ الحائط فجعلت تلوذ بالغلام والغلام يحبو إليها حتى مصّ من لبنها. قال معدي: وأنا ريت ذلك الغلام في مسجد البصرة وقد قبض على لحيته.

دخول السباع والذئاب على الموتى:

قال ابن أبي الدنيا في كتاب «الاعتبار»: حدثني يحيى بن عبد الله الخثعميّ عن محمد بن سلام الجمحيّ قال: زعم يحيى أنه قال: لمّا وقع الطاعون الجارف بالبصرة وذهب الناس فيه وعجزوا عن موتاهم، وكانت السباع تدخل البيوت فتصيب من الموتى، وذلك سنة سبعين أيام مصعب، وكان يموت في اليوم سبعون ألفاً، فبقيت جارية من بني عجل ومات أهلها جميعاً، فسمعت عواء الذئب، فقالت:

أَلاَ أَيُّهَا الذِّئْبُ المُنَادِي بِسُحْرَةٍ ... هَلُمَّ أُنَبِّئْكَ الَّذي قَدْ بَدَا لِيَا

بَدَا لِي أَنِّي قَدْ يُتِّمْتُ وَأَنَّنِي ... بَقِيَّةُ قَوْمٍ أَوْرَثُونِي المَبَاكِيَا

وَلاَ ضَيْرَ[2] أَنِّي سَوْفَ أَتْبَعُ مَنْ مَضَى ... وَيَتْبَعُنِي مِنْ بَعْدُ مَنْ كَانَ تَالِيَا

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني الفضل بن جعفر ثنا أحمد بن محمد البجليّ، حدثني محمد بن إبراهيم التيميّ قال: نزل بنا حيّ من العرب فأصابهم الطاعون فماتوا، وبقيت منهم جويرية مريضة، فلما أفاقت جعلت تسأل عن أبيها وأمّها وأختها، فيقال ماتت ماتت ماتت، فرفعت يدها وقالت:

ولولا الأسى ما عشت في الناس ساعة ... ولكن متى ناديتُ جاوبني مثلي

---

(١) (ثنا) هي من اصطلاح المحدثين وهي اختصار لكلمة حدثنا. وفي المخطوطة(أ): حدثنا.

(٢) في المخطوطة(أ) والمخطوطة(ب): ولا صبر، وما ذكره كريمر أقرب إلى السياق.

طاعون بمصر ووفاة عبد العزيز بن مروان:

قال الحافظ ابن حجر: وكان بمصر سنة ستّ وستّين طاعون، ثم في سنة وفاة عبد العزيز بن مروان سنة خمس وثمانين، وقيل: سنة اثنتين، وقيل: سنة أربع، وقيل: سنة ستّ.

طاعون الفتيات بالبصرة:

وكان بالشام طاعون سنة تسع وسبعين، ذكره ابن جرير وغيره، ثمّ وقع بالبصرة طاعون الفتيات سنة سبع وثمانين، وسمّى بذلك لكثرة من مات فيه من النساء الشوابّ والعذارى. [قال ابن أبي الدنيا في «الاعتبار»: حدثني محمد بن علي بن عثام الكلابي][1]، قال: سمعت حامد بن عمر بن حفص البكراوي قال: حدّثني أبو بحر البكراوي عن أمّه قالت: خرجنا هاربين من طاعون الفتيات فنزلنا قريباً من [سنام][2]، قالت: وجاء رجل من العرب معه بنون له عشرة، فنزل قريباً منّا فلم يمضِ إلاّ أيّام حتى مات بنوه أجمعون، وكان يجلس بين قبورهم فيقول:

بِنَفْسِي فِتْيَةٌ هَلَكُوا جَمِيعاً ... بِـرَابِـيَـةٍ مُـجَـاوِرَةٍ سَـنَـامَـا
أَقُولُ إِذَا ذَكَرْتُ الـعَـهْـدَ مِـنْـهُـمْ ... بِـنَـفْـسِـي تِـلْـكَ أَصْدَاءٌ وَهَـامَـا
فَلَمْ أَرَ مِثْلَهُمْ هَلَكُوا جَمِيعاً ... وَلَـمْ أَرَ مِـثْـلَ هَـذَا الـعَـامِ عَـامَـا

قالت: وكان يُبكي من سمعه.

طاعون الأشراف:

ثم طاعون الأشراف، وقع والحجّاج بواسط، حتّى قيل فيه لا يكون الطاعون والحجّاج في بلد واحد، وسمّي بذلك لكثرة من مات فيه من أشراف الناس.

طاعون بالشام، ووفاة ولي العهد أيوب بن سليمان بن عبد الملك:

ثمّ وقع بالشام طاعون مات فيه وليّ العهد أيّوب ابن الخليفة سليمان بن عبد الملك.

---

(1) في المخطوطة(أ): (قال ابن غنّام الكلابي)، وقد سقط منه (قال ابن أبي الدنيا...).
(2) اسم موضع.

وأخرج ابن أبي الدنيا في «الاعتبار» من طريق عبد الله بن المبارك عن أبي كنانة قال: [أخبرني][1] يزيد، ليزيد بن المهلّب، قال: حملت حِمْلَي مسك من خراسان إلى سليمان بن عبد الملك، فانتهيت إلى باب ابنه أيوب، وهو وليّ العهد فدخلت عليه، فإذا دار مجصّصة حيطانها وسقوفها، وإذا فيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر، وحليّ الذهب، ثم أُدخلت داراً أخرى فإذا حيطانها وسقوفها خضر، وإذا وصفاء ووصائف عليهم ثياب خضر، وحليّ الزمرد، فوضعت الحملين بين يدي أيّوب وهو قاعد على سرير، فانتُهب المسك من بين يديه. ثمّ عدت بعد أحد عشر يوماً، فإذا أيّوب وجميع من كان معه في داره قد ماتوا، أصابهم الطاعون.

وأخرج ابن أبي الدنيا عن حاتم بن عطارد، قال: حدّثني أبو الأبطال، قال: بعثت إلى سليمان بن عبد الملك ومعي ستّة أحمال مسك، فمررت بدار أيّوب بن سليمان فأدخلت عليه فمررت[2] ما فيها من الثياب [والبجد][3] بياض، ثم أدخلت منها إلى دار أخرى صفراء وما فيها كذلك، ثم أدخلت منها إلى دار حمراء وما فيها كذلك، ثم أدخلت منها إلى دار خضراء وما فيها كذلك، فإذا أنا بأيوب على سرير، ولحقني من كان في تلك الدور، فانتهبوا ما معي من المسك. ثم مرّرت بدار أيّوب بعد سبعة عشر يوماً فإذا الدار بلاقع، فقلت: ما هذا؟ قالوا: طاعون أصابهم.

قال ابن أبي الدُّنيا: كان أيوب وليّ عهد أبيه من بعده قد رشّحه للخلافة فأصابه الطاعون، **فمات في حياة أبيه، وكانت وفاته سنة ثمان وتسعين.**

طاعون عدي بن أرطأة بالشام، وطواعين الشام:

وقال الحافظ ابن حجر: **وقع بالشام طاعون عديّ بن أرطاة سنة مائة**، قلتُ: وذلك **في خلافة عمر بن عبد العزيز**. وأخرج ابن سعد عن أرطاة بن المنذر قال: كان عند عمر بن عبد العزيز نفر يسألونه أن يتحفّظ في طعامه، ويسألونه أن يكون له حرس إذا صلّى لئلاّ يثور ثائر فيقتله، ويسألونه أن يتنحى

---

(١) ما بين المعقوفتين ساقط من المخطوطة(أ)، ويستقيم الكلام بدونها.
(٢) ها هنا سقط: (بدار بيضاء ولون).
(٣) في المخطوطة(أ): النُجدُ، (وهو الصواب).

من الطاعون، ويخبرونه أن الخلفاء قبله كانوا يفعلون ذلك. قال لهم عمر: وأين هم؟ فلمّا أكثروا، قال: اللّهمّ إن كنت تعلم أني أخاف يوماً دون يوم القيامة فلا تؤمّن خوفي[1].

قال ابن حجر: ثم وقع أيضاً بالشام في سبع ومائة، ثم في سنة خمس عشرة. وكذا في تاريخ ابن كثير، وفي «المرآة» وقع سنة ستّ عشرة طاعون شديد بالشام والعراق، وكان عِظَمَ ذلك في واسط، وذكره ابن كثير أيضاً.

طاعون غراب بالبصرة:

ثم وقع بالبصرة طاعون «غراب»، وهو رجل مات فيه سنة سبع وعشرين ومائة، ثم وقع بالبصرة طاعون سلم بن قتيبة في رجب وشعبان ورمضان، سنة إحدى وثلاثين ومائة، ثم خفّ في شوّال، وبلغ في كلّ يوم ألف جنازة. قال ابن سعد: وتوفّي فيه إسحاق بن سويد العدوي، وفرقد بن يعقوب [السبخي][2]، وأيّوب السختياني. قال ابن سعد: وأخبرنا علي بن عبد الله ثنا سفيان، قال: سمعت داود بن أبي هند، يقول: أصابني الطاعون فأُغميَ عليّ، فكأن آتيان أتياني فغمز أحدهما عكوة لساني، وغمز الآخر أخمص قدمي، فقال: أي شيء تجد؟ فقال: تسبيحاً وتكبيراً وشيئاً من خطو إلى المسجد وشيئاً من قراءة القرآن. قال: ولم أكن أخذت القرآن يومئذ، قال: فكنت أذهب في الحاجة، فأقول: لو ذكرت الله حتى آتي حاجاتي، قال: فعوفيت فأقبلت على القرآن فتعلّمته.

الطواعين في الدولة الأموية:

هذا كلّه في الدولة الأموية، بل نقل بعض المؤرّخين أن الطواعين في زمن بني أميّة كانت لا تنقطع بالشام، حتى كان خلفاء بني أميّة إذا جاء زمن

---

(1) في المخطوطة(أ) إضافة: وأخرج محمد بن خلف المعروف بوكيع في كتاب «الغرر من الأخبار»، عن أبي الزّناد، قال: قال عبد الله بن حسن: كنتُ عند عمر بن عبد العزيز فوقع طاعون بالشام، قال رجل: «فإنك لم تُغنم أهلك مثل نفسك». فقضى حوائجي، وأتبعني إياها.

(2) في المخطوطة(أ): السنحي.

الطاعون يخرجون إلى الصحراء، ومن ثم اتخذ هشام بن عبد الملك الرّصافة منزلاً، ثم خفّ ذلك في الدولة العباسية، فيقال: إن بعض أمرائهم خطب بالشام، فقال: احمدوا الله الذي رفع عنكم الطاعون منذ ولّينا. فقام بعض من له جرأة، فقال: الله أعدل من أن يجمعكم علينا والطاعون. فقتله، أخرج ذلك ابن عساكر في تاريخه. وسمّي الذي قام جعونة بن الحارث. وأخرج ابن عساكر عن الأصمعي، قال: لقي المنصور أعرابياً بالشام، فقال: احمدوا الله يا أعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا أهل البيت، قال: إنّ الله لم يجمع علينا حشفاً وسوء كيل ولا ولايتكم والطاعون.

طاعون بالري وبغداد:

ثمّ كان في سنة أربع وثلاثين[1] بالري، ثمّ في سنة ستّ وأربعين ببغداد، ثم في سنة إحدى وعشرين ومايتين بالبصرة.

٧٥ سنة بدون طواعين:

قلت: كذا ذكر الحافظ ابن حجر والمؤرّخون قبله، فكان بين هذين الطاعونين خمس وسبعون سنة. وفي هذه المدّة كان مولد الإمام الشافعي رضي الله عنه ووفاته، فلم يقع في حياته طاعون. وبذلك يعرف أن قوله السابق: «لم أرَ للوباء أنفع من البنفسج»، لم يرد به الطاعون لأنّ الوباء غير الطاعون، كما تقدّم الفرق بينهما. ويحتمل أنّه أراد الطاعون. . . والمراد الذي [نصل][2] صاحبه، وقام، واحتاج إلى علاجه فيدهن به، كما يستعمل الناس الآن في علاجه الدهان بزبد اللبن البقري ودهن اللّوز. وظنّ طائفة من الناس أن مراد الإمام أن الادّهان بدهن البنفسج يمنع الطاعون من أصله، وليس كما ظنّوه، والله أعلم.

طاعون بالعراق وأذربيجان وفارس:

ثمّ في سنة تسع وأربعين ومائتين بالعراق، ثم في سنة ثمان وثمانين

---

(١) المقصود: أربع وثلاثين ومائة، وهكذا ما بعده لأنه يذكر طواعين المائة الثانية من الهجرة.

(٢) في المخطوطة(أ): فصل.

ومايتين بأذربيجان وبردعة، فمات لمحمد بن أبي الساج[1] ثمانون ولداً، ذكره صاحب «المرآة». ثم في سنة تسع وتسعين ومايتين بأرض فارس ثم في سنة إحدى وثلاثماية ببغداد، ثم في سنة أربع وعشرين وثلاثماية بأصبهان، ثم في سنة ستّ وأربعين وثلاثماية بالعراق، وكثر فيه موت الفجأة، حتّى أن القاضي لبس ثيابه ليخرج إلى الحكم فمات وهو يلبس إحدى خفّيه.

كثرة موت الفجأة في طاعون سنة ٣٤٦هـ:

[تذنيب][2]: رأيت في كتاب نشوان الحاضرة للتنوخي أن موت الفجأة وقع للناس في كلّ حال، منهم من مات وهو يصلّي، ومنهم من مات وهو يأكل، ومن مات وهو يمشي، ومن مات وهو يجامع، ومن مات في الحمام، وفي جميع الأحوال إلاّ حالة واحدة وهي الخطبة، فلم ينقل قطّ أن خطيباً مات فجأة على منبر.

طاعون هائل من الهند إلى بغداد والبصرة، ويبيد سكان البصرة:

ثمّ وقع في سنة ستّ وأربعماية بالبصرة، ثمّ وقع في سنة ثلاث وعشرين وأربعماية طاعون عظيم ببلاد الهند، والعجم، وبلاد الجبل، وامتدّ إلى بغداد، وفنى الناس ولم يشاهدوا مثله. ومات بالموصل في هذه السنة أربعة آلاف صبيّ بالجدري. ثم وقع بشيراز سنة خمس وعشرين[3]، ووصل إلى البصرة وبغداد بحيث صلّى الجمعة بالبصرة أربعماية نفس، وكانوا أكثر من أربعماية ألف[4].

---

[1] محمد بن أبي الساج حاكم أذربيجان وبرذعة: وهي الآن جمهورية أذربيجان التي استقلّت عن الاتحاد السوفيتي السابق، وعاصمتها باكو، وكانت تتبعها أرمينية وجورجيا (بلاد الكرج).

[2] لعل الصواب: تذييل.

[3] أي خمس وعشرين وأربعمائة.

[4] كانت المدن الإسلامية آهلة بالسكّان، وكان سكّان العراق أيام الرشيد كما قيل ثلاثون مليوناً. وهو ضعف عدد سكان العراق اليوم. كما أن قرطبة بلغ سكانها أكثر من مليون. وفي ذلك الزمان كانت مدن أوربا صغيرة لا تتجاوز المائة ألف بحال، وأغلبها في حدود عشرات الألوف.

طاعون يبيد سكان دمشق:

ثم وقع سنة ثمان وأربعين بمصر والشام وبغداد، ثم وقع بالعجم سنة تسع وأربعين، ثم وقع بمصر سنة خمس وخمسين وأربعماية، ودام بها عشرة أشهر، ثم بدمشق سنة تسع وستّين، وكان أهلها نحو خمسماية ألف، فلم يبق منهم سوى ثلاثة آلاف وخمسماية، ثمّ وقع في سنة ثمان وسبعين وأربعماية بالعراق، ثم في سنة ثنتين وخمسين بالحجاز واليمن، ثم في سنة خمس وسبعين ببغداد، ثمّ في سنة ثلاث وثلاثين وستّماية بمصر، وكان عظيماً جداً.

الطاعون العام الذي طبق الأرض سنة ٧٤٩:

ثمّ كان الطاعون العامّ في سنة تسع وأربعين وسبعماية، ولم يعهد نظيره، فإنّه طبّق الأرض شرقاً وغرباً، ودخل حتى مكّة المشرّفة، ووقع في الحيوانات أيضاً وعمل فيه ابن الوردي مقامة مشهورة؛ قال ابن أبي حجلة: مات فيه على جهة التقريب نصف العالم أو أكثر، وبلغ الموت في القاهرة كل يوم زيادة على عشرين ألفاً.

ثمّ وقع في سنة أربع وستّين وسبعماية بالقاهرة ودمشق، ثم في سنة إحدى وسبعين بدمشق، ثم في سنة إحدى وثمانين بالقاهرة، ثم في سنة إحدى وتسعين، ثم في سنة ثلاث عشرة وثمانماية، ثم في سنة تسع عشرة وثمانماية، ثمّ في سنة إحدى وعشرين ثم في التي تليها، ثم في سنة ثلاث وثلاثين وثمانماية، وهو أوسع هذه الطواعين كلّها. ولم يقع بمصر بعد الطاعون العامّ الذي كان في سنة تسع وأربعين وسبعماية نظير هذا. ثمّ وقع في سنة إحدى وأربعين بمصر، وكان خفيفاً وأكثر ما بلغ في اليوم ألف نفس[1]. ثمّ وقع في سنة تسع وأربعين في ذي الحجّة ودام إلى ربيع الأول سنة خمسين، ثم في سنة ثلاث وخمسين، وبلغ في كل يوم خمسة آلاف، ثم في سنة أربع وستّين بمصر والشام، ثمّ في سنة ثلاث وسبعين بهما ثم في إحدى وثمانين وثمانماية، ثم بالرّوم سنة ستّ وتسعين وثمانماية، ودخل حلب في افتتاح سنة سبع وتسعين؛ ثم وصل إلى مصر في شهر ربيع الآخر منها، أحسن الله خاتمتها.

---

(١) اعتبره خفيفاً رغم أن الوفيات بلغت ألف نفس في اليوم، وذلك مقارنة بما قبله حيث بلغ عشرين ألف في اليوم، وإلاّ فهو ليس بالخفيف، بل بلاء ماحق وموت ساحق.

المقامة الوردية
النبأ عن الوباء

المقامة الوردية
(النبأ عن الوباء)

في طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة:
للشيخ زين الدين عمر بن مظفر الوردي.

وهي من كتاب «بذل الماعون في فضل الطاعون» لابن حجر العسقلاني، الذي حقّقه أحمد عصام الكاتب، مقارنة بالمخطوطتين (دار الكتب المصرية ١٦٥ حديث تيمور، وليدن برقم Oriental MS 455) من كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون» للسيوطي، وهو الذي اختصره من كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني، وأضاف إليه فيه من معلوماته ومن الحوادث التي حدثت بعد وفاة ابن حجر، رحمهما الله تعالىٰ. وقد قمتُ بشرح ألفاظها ومعانيها.

ويعتبر طاعون ٧٤٩هـ، من أعظم الطواعين وأشدّها انتشاراً وفتكاً، فإنه كما قال السيوطي: طبّق الأرض شرقاً وغرباً، ودخل حتى مكة المكرّمة ـ ولم يكن دخلها من قبل ـ، ووقع في الحيوانات أيضاً ا.هـ. وقال فيه ابن أبي حجلة في كتابه عن الطاعون: مات فيه على جهة التقريب نصف العالم أو أكثر، وبلغ الموت في القاهرة كل يوم زيادة على عشرين ألفاً.

وهو الطاعون الذي ظهر في القرن الرابع عشر الميلادي، وبلغ عدد ضحاياه في أوربا وحدها ٢٥ مليوناً، وهم ربع سكان أوربا آنذاك. وقد أطلق عليه اسم «الموت الأسود»، لأنه قلّما ينجو منه أحد، ولأن القروح التي كانت تظهر على الجلد وفي الآباط والمراق وفي الرقبة كانت سوداء (مرجع سيسل لوب الطبي، طبعة ١٩٧١).

المقامة الوردية (النبا عن الوبا)

الله لي عدّة، في كل شدّة، حسبي الله وحده، أليس الله بكاف عبده. اللّهمّ صلّ على سيّدنا محمد وسلّم، ونجّنا بجاهه من طغيان[1] الطاعون وسلّم. طاعون روّع وأمات، وابتدأ خبره من الظلمات. يا له من زائر، من سنةِ خمس عَشْرَةَ دائر[2]. ما صِيْنَ عنه الصِّيْن[3]، ولا مَنَعَ منه حِصْنٌ حصين. سَلَّ هندياً[4] في الهند، وأَسْنَد[5] عن السِّنْد. وقبض بكفّه وشَبَّك، على بلاد أُزْبَك[6]. وكم قَصَمَ من ظَهْر، فيما وراء النهر[7]. ثم ارتفع ونَجَم، وهجم على العجم[8]. وأوسع الخُطا، إلى أرض الخَطَا[9]. وقَرَ

---

(١) في المخطوطتين(أ) و(ب): (طعنات)، وهو الصواب.

(٢) المقصود أنه ظهر سنة خمس عشر وسبعمائة هجرية، واستمرّ حتى سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

(٣) أي لم تُصن عنه وتُحجب الصين، بل أصابها.

(٤) اشتهرت السيوف الهندية في ذلك الزمان، وكانت سيوفاً ماضية.

(٥) في المخطوطتين: (واستند على السند): وهو الصواب. والسند في باكستان اليوم... أي أن الطاعون أصابها واستند عليها وأهلكها.

(٦) بلاد أزبك هي جمهورية أوزبكستان التي استقلّت عن الاتحاد السوفيتي... ويسكنها الأوزبك، وهم قوم من الترك، ومن مدنها الهامّة في التاريخ الإسلامي بخارى وسمرقند وطقشند التي كانت تدعى الشاش، وبيرون وزمخشر وخوارزم، والتي أخرجت مئات العلماء الأفذاذ.

(٧) المقصود بالنهر هاهنا نهر جيحون الذي يدعى الآن أموداريا، ومنبعه من جبال البامير في أفغانستان، ثم يجري في أوزبكستان.

(٨) العجم: هم كل قوم غير العرب، قال تعالى: ﴿ءأعجمي وعربي﴾؟، ويطلق لفظ العجم خاصة على الفرس.

(٩) أرض الخطا: تقوم اليوم في شرق قازاقستان (إحدى جمهوريات التركستان)، وكـ... الخطا كفاراً وحاربوا المسلمين، ثم أسلموا بعد ذلك.

القرم[1]، ورمى الرُّومَ بِجَمْرٍ مُضْطَرِم. وجرّ الجرائر، إلى قُبْرُصَ والجزائر. ثم قهر [خلقاً][2] بالقاهرة، وتَنَبَّهتْ عَيْنُهُ بمصر ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾[3].

وسكَّن حركة الإسكندرية[4]، فعمل شغل الفقراء الحريرية. وأخذ من دار الطراز طرازَ الدار، وصنع بصناعها ما جرت به الأقدار:

إسـكـنـدريـةُ ذا الـوَبَـا سَبْعٌ يَمُدُّ إليكِ ضَبْعَهْ[5]
صَبْراً لِقِسْمَتِهِ الـتـي تركتْ من السبعين سبعهْ

ثم تيمّم الصعيد الطيّب[6]، وأبرق على بُرْقَةَ[7] منه صَيِّب[8]. ثم غزا غزة، وهزَّ عَسْقَلَانَ[9] هَزَّة. وعكَّ[10] إلى عَكّا، واستشهد بالقُدْس وزكّى. فلَحِقَ من الهاربين للأقصى بقلبٍ كالصخرة، ولولا فتحُ بابِ الرحمةِ لقامتِ القيامةُ في كَرَّة.

ثم طوى المراحل، ونَزَل الساحل. فصادَ صَيْداً[11]، وبَغَتَ[12] بَيروتَ

---

(١) قَرَم الشيء قَرماً: قشره، وقَرِمَ إلى اللّحم اشتدت شهوته إليه. والقرم شبه جزيرة تقع في شمال البحر الأسود، وهي تتبع اليوم أوكرانيا... وكانت أرضاً للمسلمين وحكمتها الدولة العثمانية والتتار المسلمين، ثم طُرد منها المسلمون في عهد ستالين ولم يعودوا إلى اليوم، ومن مدنها يالطا التي انعقد فيها مؤتمر يالطا الشهير بين أقطاب الحرب العالمية الثانية، وهم: روزقلت (أمريكا) وتشرشل (بريطانيا) وستالين (الاتحاد السوفيتي)، واتفقوا فيها على نهب ثروات العالم واقتسامها بينهم.

(٢) في المخطوطتين(أ) و(ب): (ثم قهر القاهرة).

(٣) الساهرة: الأرض. والآية من سورة النازعات، آية رقم ١٤.

(٤) في المخطوطة(أ): (فسكّن حرّة الإسكندرية). وفي المخطوطة(ب): وسكنه حركة الإسكندرية، ويبدو أنّ الصواب ما هو في المطبوع أعلاه.

(٥) الضبع هو العضد.

(٦) أي أصاب صعيد مصر.

(٧) بُرقة: مدينة في ليبيا اليوم.

(٨) الصيّب: المطر الغزير.

(٩) غزّة وعسقلان: مدن في فلسطين مشهورة.

(١٠) عكّ: أي هجم وعطف، وعكّا من مدن فلسطين الشهيرة.

(١١) صيدا: هي مدينة صيدون عاصمة الدولة الفينيقية الغابرة، وهي في جنوب لبنان.

(١٢) في المخطوطتين: (بعث).

كَيْداً. ثم سَدَّدَ الرَّشْق[1]، إلى مدينة دِمَشْق. فتَرَبَّعَ وتمدَّد، وفَتَكَ في كل يوم بألفٍ أو أزيد. وأقَلَّ الكثرة، وقتل خَلْقاً ببَثْرة[2]. فالله تعالىٰ يُجْري دمشقَ علىٰ سُنَنِها، ويُطْفِئُ لَفَحاتِ نارِهِ عن نَفَحات جَنَّتِها:

أضـنـح الـلـهُ دِمَـشْـقـاً وحـمـاهـا عـن مَـسَـبَّـة
نَـفْـسُـهـا خَـشَـتْ إلـى أنْ تَـقـتـلَ الـنـاسَ بِـحَـبَّـة[3]

ثم أمَزَّ[4] المِزّة، وبَرَزَ إلى بَرْزَة[5]. ورُكِّبَ تركيبَ مَزْجٍ بعلبك[6]، وأنشد في قارة قفا نبك[7]. وغسل الغَسُولة[8]، وبَلَغَ من كُسُوف شمس شَمْسين[9] سُؤْلَه. وطرح على الجُبَّةِ بُرْشة[10]، وأزبد على الزبداني نعشه[11].

---

(١) الرشق: الرمي. ويقال: رشقهم بالسهم والنّبل، أي رماهم.

(٢) البثرة: هي انتفاخ جلدي عادة ما يكون مليئاً بالصديد. يقال: بثرة الجدري وبثرة الطاعون Pustule.

(٣) الطاعون الغددي هو ورم يظهر في الآباط والمراق وخلف الأُذن، وهو مثل الحبّة، ثم تكبر فتصبح مثل غدة البعير كما وصفه المصطفى ﷺ. وفي المخطوط: (باعت) بدلاً من (تقتل).

(٤) أمزّ: جعله مزيزاً حامضاً، والمزّة: المصّة. وهي أيضاً إحدى ضواحي دمشق، ينسب إليها الحافظ المزّي. ويورّي الكاتب فيقول: أن الطاعون قد مصّ أهل المزّة، وجعل حياتهم حامضية بغيضة مكروهة.

(٥) برزة: إحدى ضواحي الشام.

(٦) بعلبك: مدينة في لبنان، وبعل: صنم مشهور في تلك الناحية عَبَده الكنعانيون وغيرهم، كما عبده بنو إسرائيل حتى وبّخهم على عبادته النبي إيليا، وهو إلياس عليه السّلام. قال تعالىٰ: ﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾ [الصافات: ١٢٦]. وبك: مدينة أي مدينة البعل، وهي لفظة أعجمية مزجيّة.

(٧) قارة والنبك: بلدتان صغيرة تقعان بين حمص ودمشق. والكاتب يورّي بمطلع قصيدة امرئ القيس.

(٨) اسم موضع.

(٩) اسم موضع.

(١٠) الجبّة: اسم موضع بالشام. والجبّة أيضاً مثل العباية تلبس فوق القميص. والبرشة: لون أحمر مع نقط سوداء، وهو ما يشير إليه الكاتب.

(١١) الزبداني مصيف أهل دمشق، ويقول الكاتب أن الطاعون قد رغا وأزبد وأحضر النعش والهلاك للزبداني.

ورمىٰ حِمْصَ بخلل، وصرفها مع علمه أن فيها ثلاث علل[١]. ثم طلّق
الكنّة في حَمَاة، فبردت أطراف عاصيها من حِماة[٢]:

با أيها الطاعون إن حماة من ... خير البلاد ومن أعزّ حصونها
لا كنت حين شممتها فسممتها ... ولثمت فاها آخذاً بقرونها[٣]

ثم دخل مَعَرَّةَ النُّعْمان[٤]، فقال لها: أنت مني في أمان. حماة تكفي في
تعذيبك، فلا حاجة لي بك:

رأىٰ المَعَرَّة عيناً زانها حَوَرٌ ... لكنَّ حاجِبَها بالجَوْر مَقْرُونُ
ماذا الذي يصنعُ الطاعون في بلدٍ ... في كلِّ يومٍ له بالظُّلمِ طاعونُ

ثمّ سرىٰ إلى سَرْمِيْنَ والفُوْعَة[٥]، وشَغَبَ على السُّنة والشيعة. وسَنَّ
للسُّنَّةِ أَسِنَّتَهُ مِشْرعاً، وشَيَّع في بلادِ الشِّيعة مَصْرَعاً. ثم أَنْطَىٰ[٦] أنطاكيَّةَ بعضَ
نصيب، ورحَل عنها حياءً من نسيانه ذكرىٰ حبيب[٧].

---

(١) حمص: مدينة من أمّهات مدن الشام (سوريا)، وفيها مات سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه في أحد الأقوال، وهي ممنوعة من الصرف، والعلل التي منعتها من ذلك هي: العلمية والعجمة والتأنيث، كما اشتهرت حمص بكثرة إصابتها بالطاعون على مدى العصور وكثرة عللها، فأشار المصنف إلى ذلك كلّه.

(٢) حماة: مدينة من أمّهات مدن سوريا، وقعت بها في العصر الحديث المذبحة المشهورة، ويمرّ بها نهر العاصي، وعليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها، افتتحها أبو عبيدة بن الجراح بعد أن افتتح حمص.

(٣) يدعو الشاعر على الطاعون بالهلاك، حيث شبّهه برجل يشمّ امرأة ويقبلها ولكنها قبلة الموت، وكذلك فعل بحماه حين أخذ بقرونها أي برأسها ليلثم فاها ويقبّله.

(٤) معرّة النعمان من مدن الشام المشهورة، يُنسب إليها الشاعر الحكيم الفيلسوف أبو العلاء المعرّي. وقد كَثُرَ فيها الظلم في زمن المصنّف، ولذا لم يدخلها الطاعون، فقد اكتفى الطاعون بما حلّ بأهلها من الظلم الذي يشبه في اجتياحه الطاعون.

(٥) سرمين: مدينة للسُّنّة، والفوعة: مدينة للشيعة، كلاهما في سوريا. وقد أبدع الكاتب في تضمين ما يريد حيث هجم الطاعون على الشيعة والسنة وشَغَبَ عليهما، وأهاج عليهما الشرّ ونشر في ربوعهما الهلاك.

(٦) أنطى: لغة في أعطى... ولا يزال البدو في حضرموت يستخدمونها إلى اليوم.

(٧) يقول المصنف: أن الطاعون دخل أنطاكية ولكنه رحل عنها سريعاً وضمّن ذلك كلمات من مطلع معلقة امرئ القيس: «قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل».

ثم قال: لشَيْزَر ولحارِم[١]: لا تخافا مني، فأنتما من قبلُ ومن بعدُ في غنىً عنّي. فالأمكنة الرَدِيئة، تَصِحُّ في الأزمنة الوَبِيّة[٢]. وأخذ من أهل الباب[٣]، أهلَ الألباب. وباشر تَلْ باشِرَ وذَلَّل ذَلُولَ[٤]، وقَصَدَ الوِهَادَ والتِلاع، وقَلَعَ خلقاً من القِلاع.

ثم طلب حَلَبَ، ولكنه ما غَلَب. فهو - ولله الحمد - أخفُّ وَطْأة، ولم أقل: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾[٥]:

إنَّ الـــــوَبَــــــا قـــد غَـــلَـــبـــا
وَقَـــــدْ بَـــــدَا فــي حَــلَــبــا
قـــالـــوا لـــه عـــلـــى الـــورىٰ
كـــــاف ورا قـــلـــت: وبـــا[٦]

ومن الأقدار، أنه يتتبع أهل الدار. فمتىٰ بَصَق واحدٌ منهم دَما، تَحَقَّقَ كُلُّ منهم عَدَما. ثم يسكُنُ الباصِقُ الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث[٧]:

---

(١) شيزر من مدن الشام وقلاعها... كان لها دور في المعارك ضد الصّليبيّين، وهي تقع قرب المعرّة في سوريا. وحارم كذلك من مدن سوريا. ويقول المصنّف: أن الطاعون لم يدخلهما لأنهما في الأصل وبيتتان.

(٢) في المخطوطتين إضافة: (ثم أذل عزار وكلزة وأصبح في بيعتها الحارث، وما أعني بن حلزة).

(٣) مدينة الباب: مدينة في الداغستان كانت تسمّى باب الأبواب وهي دربند. والداغستان لا تزال تتبع روسيا إلى اليوم. وقد خرج منها كثير من العلماء، ومنها الإمام شامل صاحب الملحمة الثورية ضد الروس القياصرة. وقد ذكر أحمد عصام الكاتب المحقّق لكتاب ابن حجر «بذل الماعون» أن الباب موضع قريب من حلب. وقال ياقوت: أنها من أعمال حلب وتبعد عنها عشرة أميال، وتعرف بباب بُزاعة.

(٤) تل باشر وذلول: أسماء مواضع. قال ياقوت في معجم البلدان: تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب، وأهلها أرمن، ولها ربض وأسواق.

(٥) أشار إلى الآية الكريمة وهي من سورة الفتح آية رقم ٢٩. ويقصد أن الطاعون لم يشتد عوده ويفرّخ فيها، بل كان أخفّ وطأة، ولم يُطل المكث بها. وفي المخطوطة (أ) و(ب): (وتأذيت فلم أقل).

(٦) كاف وراء أي كَرّ: فقد هجم الطاعون. يقول الشاعر قلت: وباءٌ، أي باء بالخسران ورجع. وهي تورية وتلاعب بالألفاظ ليبدي مقدرته اللغوية.

(٧) هذا وصف جيّد للطاعون الرئوي، حيث إن المصاب ينفث ويبصق الدم، فإذا فعل

سألت بـارئَ النَّسَمْ   في دفعِ طاعونٍ صَدَمْ

فمن أحَسّ بَلْعَ دَمْ   فقد أحَسّ بالعَدَمْ

اللّهمّ إنه فاعل بأمرك فارفع عنّا الفاعل، وحاصل عند من شئت فاصرف عنّا الحاصل. فمن لِدَفْع هذا الهَوْل، غَيْرُكَ يا ذا الحَوْل[١]:

الله أكبر من وباءٍ قد سَبَا[٢]   ويصولُ في العُقلاء كالمجنونِ

شُرِعَتْ أسِنَّتُهُ لكل مدينة[٣]   فعجبتُ للمكروهِ في المسنونِ

كم دخل إلى مكان، فحلف ألاّ يخرج إلاّ بالسكان. فَفَتَّشَ عليهم بِسِراج، وهذا الذي جلب لأهل حَلَبَ الانزِعاج. استرسل بِعِنانه[٤] وانساب، وسُمّي طاعونَ الأنساب. وهو أعظم[٥] طاعون وقع في الإسلام، وعندي أنه الموت[٦] الذي أنذر

= ذلك، فإنه يموت بعد يومين أو ثلاث، ويسكن الأجداث، وهي القبور، وتكون العدوى في الطاعون الرئوي من البصاق. ولا يحتاج الأمر إلى البراغيث التي تنقل الطاعون الغددي. بل يكفي أن يستنشق الإنسان الهواء الذي فيه بكتريا الطاعون (يرسينيا) لتسبّب الطاعون الرئوي، وهو أخطر بكثير من الطاعون الغددي... ويقتل خلال خمسة أيام... وإذا لم يتم علاجه بسرعة بالمضادات الحيوية قتل المصاب، بينما الطاعون الغددي أقلّ خطورة بعد اكتشاف المضادات الحيوية. وعندما حدث وباء الطاعون في الهند، عام ١٩٩٤، كان عدد القتلى ضئيلاً ولم يتجاوز العشرات، ولم يصل إلى المئات قط. بينما كان في السابق يحصد الملايين ويقتل في كل يوم في البلدة الواحدة عند اشتداده عشرين ألف شخص أو أكثر.

(١) الحول: القوّة، وهو المقصود هاهنا، والله سبحانه هو ذو الحول والطول والقوّة. والحول أيضاً السنة. والحول: التحوّل. وحال عن العهد: انقلب، وحال لونه: تغيّر. وحال الشيء بيني وبينك، أي حجز. والحول أيضاً جمع حائل من النوق.

(٢) سَبَا: جعلهم سَبياً وعبيداً، شبّهه بالعدو حين يغزو ويسبي الأعداء.

(٣) شرعت رماحه وأسنّته وقتل بها المدن، وتعجّب الشاعر لهذا المكروه البغيض مع أنه قد وردت فيه الأحاديث التي تدلّ على أن المطعون شهيد... والشهادة مطلوبة.

(٤) في المخطوطتين(أ) و (ب): (ثعبانه)، وهو الصواب حيث وصفه بالانسياب.

(٥) في المخطوطتين: (سادس)، بدلاً من أعظم المذكورة هاهنا.

(٦) في المخطوطتين: (الموتان) بدلاً من الموت، وهو بمعناه وهو إشارة إلى حديث أم أيمن رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وإن أصاب الناس موتان، وأنت فيهم فاثبت»، أخرجه عبد بن حميد. وقال ابن حجر: فيه انقطاع بين مكحول وأم أيمن، فالحديث منقطع.
والموتان هو كثرة الموت، وأكثر ما يكون في الأزمنة السابقة في الطاعون.

به نبيُّنا عليه أفضل الصّلاة والسّلام[1]. فلو رأيت الأعيانَ وهم يطالعون من كتب الطبّ الغوامض، ويُكثرون في العلاج من أكلِ النواشف والحوامض. قد تنغّص عيشُهُمُ الهنيّ، بملاطخة[2] مسلم الطينةِ الطين الأرمنيّ[3]. وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدّل، وبَخّروا بيوتهم بالعَنْبَرِ والكافور والسُّعْد[4] والصَّنْدَل. وتَختَّموا بالياقوت، وجعلوا البَقْل والخَلَّ والطحينة[5] من جملة الأُدْم والقوت. وأقلّوا من الأمراق والفاكهة، وقرّبوا إليهمُ الأُتْرُجَّ[6] وما شابهه:

خَلَبٌ واللّهِ يكفي شرُّها أرضٌ مَشَقَّهْ
أصبحت حَيّةَ سَوْءٍ تقتل النّاسَ بِبَزْقَهْ

---

(١) في المخطوطتين زيادة، هي: (حلب، والله يكفي شرُّها، أرض مشقّة، أصبحت حيّة سوء، تقتل الناس ببزقة). ويقصد المصنف أن الطاعون انتشر بحلب، ولذا أصبحت مثل الحيّة وأنها مثلها تقتل الناس ببزقة. ومعلوم أن أخبث الحيات ما يقتل بنفث سُمّه... والبزقة هي البصقة، وهذا يدلّ على انتشار الطاعون الرئوي، بحيث أن المصاب يبصق دماً، ويحمل بصاقه ميكروبات الطاعون، فتنتقل في الهواء ويستنشقها السليم فيمرض سريعاً، وتقتله في أيّام.

(٢) في المخطوطة(أ): (بملاحظة)، وفي المخطوطة(ب): (بما أخطته).

(٣) الطين الأرمني: نوع من الطين من أرمينيا ذكر داود الأنطاكي في تذكرته أنه ينفع من الطاعون، وإذا شُرِب بالخل يصلح لضيق النفس.

ويقصد المصنف أن المسلم من آباء مسلمين (مسلم الطينة) ومن أرض المسلمين يبحث عن الطين الأرمني لمداواة الطاعون... ورغم زعم الأطباء في تلك الأزمنة أنه يفيد في علاج الطاعون، إلاّ أن الواقع أنه لا يفيد.

(٤) السُّعد: نوع من النبات له رائحة طيّبة، قال عنه ابن سينا وغيره أنه ينفع للقروح التي يعسر اندمالها. وينفع من عفن الفم والأنف والقلاع، واسمه العلمي (Cyperus Rotundus)، ويتبع فصيلة السُّعديات (Cyperacea)، واسمه باللغة الانجليزية (Gallingale).

(٥) الطحينة تصنع من السمسم وزيته مضافاً إليها الطحين وهو دقيق القمح. وفي المخطوطتين(أ) و(ب): الصحفة بدلاً من الطحينة.

(٦) الأترج: يسمّيه العامة الترنج، وهو الليمون الحلو مدحه الرسول ﷺ، وقال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيّب، وريحها طيب»، أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه، وكان القدماء يعتبرونه من أدوية الصفراء. ورائحته تصلح الوباء وفساد الهواء، ولذا يكثر استخدامه أثناء الأوبئة والطواعين، وهو غني بفيتامين(ج).

فلو شاهدتَ كثرة النُّعُوشِ وحَمَلَةَ الموتىٰ، وسمعت بكل قُطْر من حَلَبَ نحيباً وصوتاً. لَوَلَّيْتَ منهم فراراً، وأَبَيْتَ فيهم قراراً. ولقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية فلا رُزِقوا، وعاشوا بهذا الموسم وعرقوا فلا عاشوا ولا عرقوا. فهم يلهون ويلعبون، ويتقاعدون على الزَّبُون:

اسودّت الشهباء[1] في عيني من وهم وغشٌ
كادوا بنو نعشٍ بها أن يلحقوا ببناتِ نَعْشِ[2]

فنستغفر الله من هوىٰ النفوس فهذا بعض عقابه، ونعوذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقابه:

قالوا: فسادُ الهوا يُرْدي فقلتُ: يُرْدي هوىٰ الفسادِ[3]
كم سيآتٍ وكم خطايا نادىٰ علينا بها المُنادي

ومما أغضب الإسلام، وأوجب الآلام. أن أهل سيس[4] الملاعين، مسرورون لبلائنا بالطواعين. حتىٰ كأنهم في أمان، أو عليه أن لا يقربهم ضمان. أو كأنهم إذاً ظفروا، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[5].

سُكّانُ سِيْسَ يَسُرُّهم ما سانا وكذا العوائدُ من عدوِّ الدين
اللهُ يُنْفِذُهُ إليهم عاجلاً لِيُمَزِّقَ الطاغونَ بالطاعونِ

هذا، وهو للمسلمين شهادة وأجر، وعلى الكافرين رجز وزجر. إذا صبر المسلم على مصيبته فالصبر عبادة، وقد ثبت عن نبيّنا عليه أفضل الصّلاة

---

(1) الشهباء من أسماء حلب.

(2) بنات نعش: مجموعة من النجوم مشهورة عند العرب، ووصف بنو نعش الذين يحملون النعوش وهم من أهل حلب، بأنهم أثرياء ومكانتهم سامقة كأنهم (بنات نعش).

(3) يشير الناظم إلى النظرية السائدة في عصره، وهي أن الطاعون ناتج عن فساد الهواء، فردّ عليهم بقوله: أن الهوى هو الذي يردي ويؤدي إلى الفساد.

(4) أهل سيس: هم من الأرمن، وتقع سيس بين أنطاكية وطرسوس ويقال لها سيسيّه. (انظر معجم البلدان لياقوت ج٣/ ٢٧٩). وقد أظهر أهل سيس السرور بوقوع الطاعون وانتشاره بين المسلمين، فذكّرهم المصنف بأنهم سيصابون به، فليس لهم منه أمان وضمان. ثم دعا عليهم بأن يصيبهم الطاعون.

(5) الآية من سورة الممتحنة، رقم ٥.

والسّلام أن «المطعون شهيد»، فهذا الثبوت حكم بالشهادة. وهذه الخَفيَة تعجب الحنفيّة[١].

فإن قال قائل: هو يعدي ويبيد، قل: بل الله يبدئ ويعيد. فإن جادل الكاذب في دعوىٰ العدوىٰ وتأوّل، قلت: قد قال الصادق المصدوق: «فمن أعدىٰ الأوّل؟»[٢]. ولو سلمنا فتكه بأهل الدار، فهو بإرادة الفاعل المختار.

أعوذ بالله ربّي من شر طاعون النسب. باروده المستعلي[٣] قد طار في الأقطار، فتاش دَهْا شانه[٤]، ساعي لصارخ ما رثىٰ[٥]، ولا فدي بذخيرة، دولابه الطيار، يدخل إلى الدار يخطف[٦]، ما يخرج إلاّ بأهلها: معي[٧] كتاب القاضي بكل من في الدار.

ومن فوائده تقصير الآمال، وتحسين الأعمال. واليقظة من الغفلة، والتزوّد للرحلة.

---

(١) قد تقدّم ذكر الأحاديث الكثيرة في أن «المطعون شهيد»، وأن «الطاعون شهادة» لكل مسلم صابر محتسب، لم يفرّ منه ولا خرج عند وقوعه في بلده ومحلّته. والخفية هي الإصابة بالطاعون لأنه من وخز الحن (البراغيث) المختفية. والحنفية هو دين الإسلام المائل عن كل ضلال وزيغ.

(٢) هذا الحديث رواه أبو هريرة وأخرجه البخاري في كتاب الطبّ، من صحيحه. قال ﷺ «لا عدوى ولا صفر ولا هامة»، فقال أعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيجيء البعير الأجرب فيدخل فيها، فيجربها كلها، قال: «فمن أعدى الأول» والمقصود منه أن العدوى وحدها ليست هي السبب في حدوث المرض، كما كانت العرب تعتقده في جاهليّتها، وأن الله وحده هو مسبّب الأسباب، فالله وحده هو المتصرف في كونه وعباده بما شاء كما يشاء... بالصحة والمرض، وبالعدوى ومقاومة المرض.

(٣) في المخطوطتين(أ) و(ب): (بارود المستعمل)، والمسلمون قد عرفوا البارود في ذلك الزمان، وقد تعلّموا صناعته من الصين ثم نقله عنهم الأوروبيون، ثم طوّروه وتأخر المسلمون.

(٤) كلام عامي أو لعله بالفارسي.

(٥) في المخطوطتين(أ) و(ب): (ساعي بصارخ: نارنا).

(٦) في المخطوطتين: (يدخل الدار ويحلف) وهو الصواب.

(٧) في المخطوطتين: معو (أي معه)، وهي كلمة عامية.

فهذا يُوَصّي بأولادِهِ، وهذا يودّعُ إخوانَهُ، وهذا يهيّئ أشغالَهُ، وهذا يجهّز أكفانَهُ، وهذا يصالح أعداءَهُ، وهذا يلاطف جيرانَهُ، وهذا يوسّع إنفاقَهُ، وهذا يحالل من خانَهُ، وهذا يحبّس أملاكَهُ، وهذا يحرّر غلمانَهُ، وهذا يغيّر أخلاقَهُ، وهذا يُغيّر ميزانَهُ.

إن [كان] هـذا الـوبـا قـد سـبـا[1] وقـد كـان يـرسـل طـوفـانَـهُ
فلا عـاصِـمَ الـيـومَ مـن أمـرِهِ سـوىٰ رحـمـةِ الـلّـهِ سـبـحـانَـهُ

وما منعنا الفرار منه إلاّ التمسّك بالحديث، فقم بنا نستغيث، إلى الله تعالىٰ في رفعه فهو خير مغيث: اللّهمّ إنّا ندعوك بأفضل ما دعاك به الدّاعون، أن ترفع عنا الوباء والطاعون. لا نلتجئ في رفعه إلاّ إليك، ولا نعوّل في العافية منهما إلاّ عليك. نعوذ بك يا ربّ الفلق من الضرب بهذه العصا، ونسألك رحمتك التي وسعت كل شيء فهي أوسع من ذنوبنا ولو كانت عدد الرمل والحصىٰ. ونتشفع إليك، بأكرم الشفعاء لديك، محمد نبيّ الرّحمة، أن تكشف عنّا هذه الغمّة، وأن تجيرنا من الوبال والتنكيل، وأن تعصمنا فأنت حسبنا ونعم الوكيل[2].

---

(١) في المخطوطتين(أ) و(ب): (إلاّ إن هذا الوبا قد سبا).

(٢) في المخطوطة (ب) تكملة: (والحمد لله وحده، وصلّى الله على من لا نبيّ بعده محمد وآله وصحبه وسلّم). ومن المخطوطة(أ) تكملة: ومن نظم ابن الوردي:

يا ربّ بالهادي النبيّ المجتبا اغمد عن الإسلام أسياف الوبا
يا ربّ لا نشكوا أليم عذابه إلاّ إليك فقد أخاف وأرعبا
كم حلّ في دار فبدّد شمل من فيها فلا يجدون منها مهربا
يا ربُ لطفاً بالعباد فما لهم ربٌ سواك يقيهم المستصعبا
إنا اعترفنا بالذنوب فكلنا عاصي مسيء للعذاب استوجبا
لكن إذا قرنت عظيم ذنوبنا بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك إلاّ محسن في العالمين فمن يجير المذنبا
يا ربْ إنا نستقيلك حادثٍ أدهىٰ من المرض الثقيل وأصعبا
فمتى رأى الإنسان في فمه دماً أيس الحياة وفرّ منه الأقربا
وتجنبته الأصدقاء وأشفقوا من قربه، وجفته خلّان الصّبا
عجبي لهم، والله يعفو عنهم تركوا الحديث، وصدقوا من طبّبا
وغدا مريضاً لا يعاد ومن دنا منه يكاد يرى الهلاك الأقربا =

وصف ابن حجلة للطاعون العام (طاعون عام ٧٤٩هـ)

نقلاً عن كتاب الإمام ابن حجر العسقلاني (بذل الماعون في فضل الطاعون)، ولم يورده السيوطي. وإن كان قد استشهد في كتابه ببعض ما قاله ابن أبي حجلة، وأورد السيوطي بعض الأبيات التي نظمها ابن حجلة في طاعون سنة ٧٦٤.

وقرأت في كتاب الشيخ شهاب الدين **أحمد بن يحيىٰ بن أبي حجلة**، في **وصف الطاعون الكبير**:

عمّ البلاد، وأباد العباد. وقطع كل درب، وساوىٰ بين أهل الشرق والغرب. فكثرت به الأوجاع، وانتقل بمصر من الأصبع إلى الذّراع. ثم تيمّم بها الصعيد، وترك الناس كالزرع ما بين قائم وحصيد. واتّفقت فيه عجائب وغرائب.

منها: أن الطّاعون الذي وقع في سنة تسع وأربعين وأربع مائة عمّ الأرض، فساواه هذا في ذلك، ولم يتّفق ذلك في غيرهما.

ومنها: أن مكّة لم يدخلها الطاعون قطّ، إلاّ هذه المرة، فمات بها خلق كثير من أهلها والمجاورين بالطاعون، وتواتر النقل بذلك.

= فهو الفريد وأهله في كثرة ... هذا الذي بهر العقول وشيّبا
إنا تشفعنا إليك بأحمدٍ ... أعلى الورى قدراً وأرفع منصبا
أن ترفع الطاعون عنا عاجلاً ... وتجيرنا من هوله وتنجّنا
وتعيد ملء عودتنا من نعمة ... عوّدتنا منك الكثير الطيّبا
ثم الصلاة على النبيّ وآله ... وصحابه والغُرُّ من أهل العبا

ومنها: أنه مات فيه[1] الطيور والوحوش والغزلان والكلاب والقِطاط، بالخراج تحت الإبط، وبغير ذلك من أنواع الطاعون، قال: ولم يسلم منه في هذا العام من مدن الأرض كلّها، غير مدينة النبيّ ﷺ.

ومنها: أن من مات فيه ـ على سبيل التقريب ـ نصف الموجودين من العالم الحيواني. وبلغ الموت بالقاهرة في كل يوم عشرين ألفاً، وقيل: خمسة وعشرين ألفاً، وقيل: سبعة وعشرين ألفاً.

قلت[2]: ذكرْ ابن كثير في «تاريخه»، أن من الناس في أمر القاهرة المقلل والمكثر؛ فالمقلل يقول: أحد عشر ألفاً، والمكثر يقول: ثلاثون ألفاً، انتهىٰ.

قال ابن أبي حجلة: ذكر لي مجد الدين الأسعردي، تاجر الخواص السلطانية، أنه وكل بأبواب القاهرة، من حفظ له عدّة الأموات، في شهري شعبان ورمضان، **فبلغوا تسع مائة ألف نفس وزيادة**. قال: وهذا خارج عمّن لم يضبط، وخلت حكور كثيرة حول القاهرة، فلم تسكن بعد ذلك. قال: والتلخيص: أن جميع الطواعين الماضية بالنسبة إلى هذا، قطرة من بحر، أو نقطة من دائرة.

قال: وأمّا دمشق، فإنني كنت بها، فشاهدت حالها الحائل، وحائطها المائل. ورأيت بها موت الأحبة بالحَبّة، ثم نفث الدم والكُبّة[3]. فأناخ بها الرحال، وهبّت شماله ذات اليمين وذات الشمال. وفي شهر ربيع الأوّل، اجتمع الناس على قراءة البخاري، وقرأوا سورة نوح بمحراب الصحابة ثلاثة آلاف وثلاثة مائة وثلاثاً وستّين مرة، اتّباعاً لرؤيا رآها رجل. ودعوا برفع الطاعون، فازداد.

ثم شرع الخطيب في القنوت في الصلوات والدّعاء، وحصل للناس الخضوع والخشوع والتضرّع والتوجّع والتوبة والإنابة. ثم إن نائب السلطنة أمر بإبطال ضمان النعوش وجمع ما يتعلق بالأموات، ونودي بذلك في الطُرقات،

---

(1) الكلام هنا لابن حجر العسقلاني، معلّقاً على كلام ابن أبي حجلة.
(2) الكلام هنا لابن حجر العسقلاني، معلّقاً على كلام ابن أبي حجلة.
(3) المقصود بالكُبّة هاهنا: الأحشاء، شبّهها بكبّة الغزل. ولعل المقصود الورم الدبلي الذي يخرج في المغابن والإبط وهو مثل غدّة البعير يشبه الكبّة.

وصنع الناس نعوشاً وقفوها، واتسعوا بها في تشييع الموتى.

ثم نودي في البلد بصوم ثلاثة أيام، ففعلوا. ثم وقفوا بالجامع، كما يفعلون في شهر رمضان، ثم خرجوا يوم الجمعة، سابع عشر الشهر، إلى مسجد القَدَم[1]، فتضرّعوا إلى الله تعالىٰ في رفع الطاعون. وخرج الناس من كل فجّ عميق، حتى أهل الذمّة والأطفال، وانتشروا في الطُّرقات، وأكثروا التضرّع والبكاء، ولم يزدد الأمرُ إلاّ شِدّةً، ولا الموتُ إلاّ كَثْرَةً.

فلمّا كان في ثاني شهر رجب، بعد الظهر، هبّت ريح شديدة، أثارت غباراً أصفر ثم أحمر ثم أسود، حتى أظلمت الأرض، وبقي الناس نحو ثلاث ساعات، يجأرون إلى الله تعالىٰ ويستغفرونه، حتى انكشف. ورَجَوْا أن يكون ذلك ختام ما هم فيه، فلم ينقص عدد الأموات، بل استمرّ الطاعون بدمشق إلى سِلْخ السنة. وبلغ عدد من يموت، داخل السُّور خاصّةً، في كل يوم ألفَ نفس. وصلّى الخطيب بالجامع على خمس وستّين نفساً دفعة واحدة، فكان ذلك أمراً مَهُولاً، وحصل بسبب ذلك في الجامع ضجّة عظيمة.

قلت[2]: وحكىٰ لي من أثق به، أنه شاهد في جامع عمرو بن العاص نحو ذلك.

نظم ابن أبي حجلة في الطاعون:

وذكر السيوطي في كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، مجموعة من الأبيات التي نظمها ابن أبي حجلة في الطاعون. قال ابن أبي حجلة في طاعون سنة أربع وستين وسبعمائة:

أرى الطاعون يفتك في البرايا ... ويطعن طعن أرباب الحراب

وينشد عند هدم العمر منّا ... لِدوا للموت وابنوا للخراب

وقال أيضاً:

---

(١) مسجد القدم: زعموا أن الرسول ﷺ وطأه بقدمه الشريفة، والمسجد بظاهر دمشق، وهذا لا دليل عليه.

(٢) القائل هنا ابن حجر العسقلاني.

تزايد الطاعون لمّا أتى شعبان والحمّى به صعبه
ودام بالصوم على فتكه وفطّر الضعفاء على كبّه

وقال:

ما أقلع الطاعون عن مصر إلى أن بثّ فيها جنده وجموعهْ
فكأنما رابا بمصر لأنه بخيارهِ أخذ الخيار جميعهْ

وقال أيضاً:

تغيّر في مصر الهواءُ وبرقُها بدا وعليه صفرة ونحولُ
وصحّ بها موت النسيم وكيف لا وقد جاءه الطاعونُ وهو عليلُ

وقال أيضاً:

أرى الموتَ بالطاعون عمَّ صغَارَنا وخصَّ من الأعجام شيخاً معظّما
فما كان موت الرُّكن فيهم بهيّن ولكنه بنيانُ قومٍ تهدّما

٣ ـ ما كتبه الإمام بهاء الدين السبكي في طاعون ٧٤٩هـ

وهو رسالة بعثها إلى صديقه الشيخ القاضي صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، نقلاً عن كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، للإمام السيوطي من مخطوطة ليدن بهولندة برقم Oriental MS No. 455، وقد نسبها ابن حجر في «بذل الماعون» إلى صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي.

من خطاب السبكي إلى الصفدي في طاعون عام ٧٤٩هـ

قال الإمام السيوطي:

وقال الشيخ بهاء الدين السبكي من مطالعة كتب بها إلى الصلاح الصفدي في طاعون سنة تسع وأربعين وسبعمائة:

وإنما عاقته العوائق، وشَغَله ما شغل جميع الخلائق، وهو أمرُ هذا الوباء وما بلغكم منه من النبا، فإنه قد عمَّ البلاد والعباد، وغمَّ النفوس، وأذاب الأكباد. وقَدِمَ مصر في أوّل هذه السّنة، ففقد أهلها القرار والسِنة[1]. وقدم بعسكر المنايا، وألقى الرعب في قلوب البرايا، وأبقى في صدورهم البلايا، وشهر لكل أحد نصابه، ونزل [بباب][2] كل بيت منه عصابة. فالناس مَيْت ومايت[3]، ومتوقع للفوايت وفايت[4]. وأصبح كل جبّار منه وهو خائف، ويظنّ أن الموت على بابه واقف. ومات كل حيّ بالقوّة، وجهر أهب الموت

---

(١) السِّنة: النوم الخفيف والنعاس.

(٢) كلمة غير مقروءة في الأصل، وهي عند ابن حجر (بباب).

(٣) الميت: الذي قد مات، والمائت (والمايت): الذي أوشك على الموت.

(٤) متوقع للفوائت أي متوقع الموت، وهو الفوت. وفائت الذي قد فات ومات.



نحوه، إن دخل بيتاً كان آخر أهله خروجاً، وإن عدل إلى فِناء أجج نار الفَناء[1] تأجيجاً، فقصرت عند ذلك الآمال، وكثرت الأعمال، وعظم التضرّع إلى الله والصّياح، وعمل الناس بقول ﷺ: «إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالصباح»[2].

فوائد الطاعون:

غير أنه له خلائق محمودة، وغرائب ليست في سوءٍ موجودة، لا يفرّق بين الشخص وأقاربه، ولا يؤرق جفن الموجوع على ذاهبه، بل إن أخذ واحداً أتبعه بجميع أهله، وجمع شملهم بإعدام ذلك النسب من أصله. لا تطول معه الأمراض، ولا تكثر في الجسد منه الأعراض.

مدى انتشاره:

وقد طالت مدّته على الأمّة، وقويت شدّته عليهم والغمّة. واشترك في مصابه الخلائق والبلدان، وعمّت الأشجان والأحزان. وهذا أمر لم يسمع بمثله في الوجود، ولم يقع نظيره في أعصار الجدود. وأيّ طاعون دخل الأرضين من كل جانب، ووصل إلى المشارق والمغارب.

وطاعون «الجارف» بالنسبة إليه كالبرق الخاطف، وطاعون «عمواس» كالقطرة منه في القياس، وطاعون «الأشراف» خاصٌ ببعض الأصناف، وطاعون «الفتيات» لغير الأبكار لم يوات.

فالله الله في التضرّع في ارتفاع هذه النازلة، وانقطاع هذه الغُمّة بنعمة عاجلة. أنشدني الشيخ إبراهيم العمّار لنفسه:

يا من تمنّى الموت قم واغتنم ... هـذا أوان الـمـوت مـا فـاتـا

قد رخص الـمـوت عـلـى أهـلـه ... ومـات مـن لا عـمـره مـاتـا

---

(١) الفَناء: الهلاك والفِناء (بكسر الفاء): ما امتدّ من جوانب الدار وعرصتها.

(٢) الصواب: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث بالصباح، وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك»، رواه البخاري عن ابن عمر موقوفاً. وورد بلفظ: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء».

وقال الإمام ابن حجر في «بذل الماعون»:

وقرأت في «تذكرة» القاضي صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي: أول ما بدأ الطاعون الكائن في سنة تسع وأربعين (وسبعمائة) من الشام بغزة، ثم تعدّى إلى بيروت، ثم إلى الشام كلّها. وكان يقتل بالرائحة، وبقدر الحَبّة تظهر في المغابن؛ كالإبط ونحوه، وبِبَثْرَةٍ خلف الأُذن، وبقدر الخيارة في الوَرِك. وبعضهم يبصق دماً فيخرُّ ميتاً.

وقرأت في كتاب القاضي تاج الدين السُّبكي، سنة (٧٦٤)[1]: لما غشى الطاعون على النفوس وعمّ، وهمّ بالردىٰ فأودع القلوب الهمّ، طاف البلاد فما ترك طارفة ولا تليدة، وطاف في الرَّبْع العامر فأذن بالخراب، وما تلك الصفة بحميدة، وغزا الإقليمَ المصريَّ منه ما شيّب النواصي، وشغلهم بأنفسهم عن القيام بالطاعات بل وبالمعاصي. ودخل منه الشامَ رُعبٌ يُروِّع ولا يراعي، فبطلت عنده الشهوات وذهبت لديه الدواعي... إلى غير ذلك من تخريب الممالك، وتضييق المسالك، وتوسيع أبواب المهالك.

فيا له من جِمام[2] شمّرتْ حروبه عن ساقها وما توقّفت ولا تروّت، وصاحب صوارمَ شربت من دم البرايا حتىٰ تروّت. لقد صرّح في هذه المعركة غضبه وما أضمر ولا ورّىٰ، ولقد رَوَىٰ فيها سهمُهُ كَبِدَ قوسه الحرّىٰ. وما ذاك إلاّ لمقدورٍ إلٰهيّ لا يُدْفع، وأمرٍ سماويّ لا تفيد فيه المعالجة ولا تنفع. لقد قطع نياطَ القلوب، وشاهدنا منه العجبَ والأرواحُ تذوب، إن طَلَعَتْ حَبّةٌ لابن آدم هبطت به إلى الرَّمْس، وإن بصق دماً قال: يا حسرتا على ما فرّطت بالأمس. ولقد رَخُصَتِ الأنفس فيه حتىٰ بيعت بِحَبّة، وقال من ساوَمَها سيقضي صاحبها نَحْبَه. فمات من لا عُمْرُهُ مات، وصِرْتَ لا تسمع إلاّ كان وفات. إذا أخذ واحداً تداركه بجمع شمله، وأخذ على إثره جميع أهله. وإذا نزل بامرئٍ أفصله من يومه، ولا يطيل بتعلّله المرض على قومه .والله المستعان في جميع الأحوال، وعليه فيما نخافه ونحذره الاتّكال.

---

(١) الكلام للإمام ابن حجر العسقلاني من كتابه «بذل الماعون في فضل الطاعون» تحقيق أحمد عصام الكاتب.

(٢) جِمام: الموت.

وقرأت بخط شيخنا **ناصر الدين ابن الفرات في «تاريخه»**، أنه صلّى الجمعة سنة تسع وأربعين وسبع مائة، في سطح الجامع الحاكمي، فشاهد الجنائز مصفوفة ثلاثة صفوف، من أوّل الأروقة إلى باب الخزائن، لكن الصفّ الثالث ينقص قليلاً. قال: وكثر الموت حتىٰ خلت الطُرقات. قال: ولقد مشيت ليلةً بين القَصْرَيْن، بين المغرب والعشاء، من الحريريّين إلى سوق الدجاج بقرب الجامع الأقمر، فما رأيت من السُرُوج في الحوانيت إلاّ اليسير. قال: وعُدِمت البضائع لقلة الجالب، وبيعت الرُّمّانة الواحدة بنصف دينار، وبلغ طحن الإِرْدَبّ القمح تقديراً فلوري. قال: وشرح ذلك يطول، وهذا عنوانه.

قلت: إنما عظم الخطب لامتداده، فإنه ابتدأ من أوّل السنة، فلم يزل يتكاثر إلى شهر رجب، فعظم في شعبان ثمّ في رمضان، ثم تناقص في شوّال، وارتفع في ذي القعدة.

المقامة الدُّرِّيَّة

التي كتبها الإمام السيوطي في طاعون سنة ٨٩٧هـ، وبعض الأبيات التي نظمها في هذا الطاعون.

من مخطوطة ليدن بهولندة Oriental Ms 455.

كم وعظ الطاعون في غيّهم يا ليتهم كانوا أطاعونا
ما كثر الطاغون في بلدةٍ إلاّ أتاح اللّه طاعونا

وقلت في طاعون هذه السنة، أي سنة سبع وتسعين وثمانمائة:

يا عام سبع قد أكلتَ الورى ورُخْتَ بالأولاد ثم البلادِ
قد افترستَ الناس في شِدَّةٍ أنت إذاً والله سبعٌ شدادِ

ثم في أول سنة ثمان وتسعين ورد الخبر بعودهِ إلى الإسكندرية والبحيرة، فأرجف الناس بعودهِ إلى القاهرة، ثم بعد شهرين دخل الفيوم وما حولها من قرى الصعيد، ولم يكن دخلها في العام الماضي، فعمل عملاً شديداً، وأخذ منها خلقاً كثيراً. ثم في جمادى الآخرة، طرق القاهرة، لكن بخِفَّة بحيث لم يبلغ عدد الموتى كل يوم مائة نفس، بل أقلّ. وكان أكثر عمله فيمن كان فرّ في العام الماضي، ولمّا طلعت الثريّا في الشعبان أخذ في التناقص. وذُكِرَ أنه إلى الآن يمتد في بلاد الصعيد.

وقد عملت في عودة هذه السنة مقامة سمّيتها **المقامة الدُّرية**، وهي هذه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم. ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[1]، لمّا كان في أول سنة سبع وتسعين وثمانمائة وردت الأخبار عن

(١) سور الرحمٰن: ٢٦ و٢٧.

الأخبار بأن الطاعون قد انتشر في بلاد الروم، وأنه بصدد أن يطرق البلاد الشامية والمصرية ويروم[1]. وكان للطاعون نحو خمس عشرة سنة لم يطرق هذين المصرين، ولا أناخ دكّانه بهذين القطرين، ثم جاء الخبر بوصوله إلى البلاد الحلبيّة بعد شهرين، فأرجف الناس بدخوله مصر، وتحمّلوا من خوف هجومه عليهم الأمرّ، وتنقّل في بعض البلاد الشامية دون بعض، ولم يسرِ على سنته المعتاد، بل أبدله بنقص، ففات عن دخول مصر [إبانه][2]. ثم ورد الخبر أنه قفز إلى قطبا[3] قفزة، ولم يدخل القدس ولا الرملة ولا غزّة، وبرز لهم برزة، وأدخلهم تحت الرزّة[4]. ثم مشى حتى دخل بكاه[5] فزلزل أهلها، واجتثّ أصلها، وأخذها فيه بقدفيه، وبلغ عدد الموتى فيها كل يوم ثلاثمائة، وهو في خلال ذلك يتخطّف في القاهرة قليلاً ويطرقهم طرقاً جميلاً، بحيث إنه بين ظاهر وخافٍ، والناس بين مثبت له ونافٍ. فلما انتصف جمادى الأولى أخذ في الحركة، وطرح على الناس السكّة، فظهر الطعن بعد خفائه، وشهر برفائه، فلما استهلّ جمادى الآخرة هجم الهجمة الكبرى، وعاث في الناس برّاً وبحراً، وكم أخلى قصراً، وملأ قبراً، فأخذ البنين والبنات، والفتيان والفتيات، وجمع بالموت بين كل أليفين، وبلغ عدد الموتى في كل يوم أزيد من ألفين وقيل أكثر من ذلك بضعف أو ضعفين. فكم أخذ من بنين نفائس، ومن بنات عرائس، ومن جواهر خُنَّس[6] كأنهنّ الجوار الكُنّس[7]، ومن عبيد وخدم لهم في التهذيب، والتهذيب راسخة قدم، سبقت لهم السعادة، وسبقت لهم

---

(1) يروم: يطلب، والرَّوم: الطلب.

(2) غير واضحة في الأصل.

(3) قطبا اسم موضع بالشام، ذكره ياقوت في معجم البلدان باسم قطابا.

(4) الرزّة: المصيبة وهي الرزء ورزأته ماله، أي نقصته، والكلمة غير موجودة في قواميس اللغة بلفظ رزّه وإنما هي رزيئة.

(5) بكاة: اسم موضع.

(6) خُنَّس: الذي يختفي.

(7) الكُنّس: التي تغيب حين غروبها، ويشير بذلك إلى قوله تعالىٰ: ﴿فلا أقسم بالخنّس * الجواري الكنّس﴾ وهي النجوم، فاستعار السيوطي ذلك ووزى بها عن الفتيات الخوادر وكأنهن النجوم الخنّس، أو الجواري الكنّس.

الشهادة، فأكرم من شهادة جَاءَ بها القضاء المحتوم، وسعادة سقتهم عند الغرغرة كأساً من رحيق مختوم.

والذي يظهر في بادي الرأي أنه ذهب فيه من القاهرة النصف أو أشدّ[1]، فإنه كان يدخل البيت وفيه النَّسَم[2] ذوات العدد، فإمّا أن يخلّيه فلا يزد فيه من أحد، أو يأخذ كل خادم وولد، وينزل الأبوين على ضمد. وقلّ من سلم من طريقه أو خسّ نصيبه منه عند دخول سوقه، فلذلك قلتُ:

يا عام سبع قد أكلتَ الورى ... ورحت بالأولاد ثم التلاد

قد افترست الناس في شدّةٍ ... أنت إذاً والله سبع شداد

فأدرك كثيراً منهم في الطريق، وناداهم أين المفرّ أيّها الفريق؟ أنسيتم ما نزّل الله في كتابه العزيز تنزيلاً ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

وكان أكثر عمله بالقاهرة شهراً، قهر فيها الخلائق قهراً. وكان مخالفاً لعادة الطواعين بأمرين، أحدهما: أنه تأخر طروقه عن ميعاده قريباً من شهرين، والثاني: أنه هجم في مصر قبل حلول قرى البحرين[4].

وذُكر أنه خالف العوائد في أمر آخر زايد، وهو أنه مات به من تقدّم له طعنة قديماً، وجرت العادة أنه لا يموت به، وإن طعن كان سليماً[5]. وأكثر

---

(١) أي نصف سكان القاهرة ماتوا في هذا الطاعون.

(٢) النسم: جمع نسمة، وهي الأنفس.

(٣) سورة الأحزاب، آية ١٦.

(٤) يقصد أنه هجم على القاهرة قبل أن يهجم على الوجه البحري من مصر... وبما أن الطواعين كانت تأتي من أوربا أو من الشام إلى مصر، فإن الإصابة عادة ما تكون في الوجه البحري من مصر ثم القاهرة، ثم الوجه القبلي (أي صعيد مصر).

(٥) من المعروف أن من أصيب بالجدري والطاعون ونجا منه لا يصيبه مرة أخرى بسبب وجود المناعة لديه، وهي نفس فكرة التطعيم والتمنيع المستخدمة في الطب في العصور الحديثة، حيث يؤخذ الميكروب مضعّفاً أو ميّتاً فتتكون لدى الجسم مناعة ضدّه. ولكن يبدو أن ميكروب الطاعون غيّر من الانتيجينات Antigens التي لديه، فلم تنفع تلك المناعة السابقة، وظهر الطاعون كميكروب جديد بصفات جديدة في تلك السنة.

ناس من [استعمال] أشياء لا تفيدهم، من ذلك استعمال مأكولات قوابض، ومجففات حوامض، وتعليق فصوص، لها في كتب الطب نصوص[1].

وهذا باب قد أعيا الأطبّاء، واعترف بالعجز عن مداواته الألبّاء.

لكل داءٍ دواءٌ يستطبُّ به إلاّ الحماقة والطاعون والهرما

وأناس رتّبوا أدعية لم يرد بها حديث ولا أثر، واتّبعوا أذكاراً من عند أنفسهم، ويئسوا أين المفر؟ وآخرون تحوّلوا إلى الروضة[2] قطايع قطايع، وأقبلوا إلى سكنها من القاهرة والفظائع، ظنّاً أنها تصلح من الهواء ما فسد، ونروج من سوق الشفاء ما كسد، وما شعروا أن مجاورة البحر من أكبر الأسباب المعينة للطاعون طبّاً، والمضرّة عند فساد الهواء بدناً ولُبّاً. وإنما يصلح سُكنى البحر لمن يشكو الغمّ، أو سوءِ هضم، أو نحو ذلك مما ليس من فساد الهواء، ولا عن أمرٍ يتعذّر منه الدواء.

وأمّا إذا فسد الهواء فالمكشوف أقتل، والمغموم أفضل، وتنصلح الأماكن الجافّة ومواضع الدُّخان، وكلُّ ما هو رديء من المكان. ومن أمثالهم المرويّة: الأمكنة الرديّة تصحُّ في الأزمنة الوبيّة. وقال بعض الفطناء: أقبلُ الأبدان ما كان رطباً.

فلما دخل شهر رجب رحّب الناس برحيله، ورجب [ ][3] بتحويله، وإن لم يكن لأحد فيه حيلة، فإن لم يبغضن القرى البحرية والقبلية بعد الإلمام، وزارها زيارة الطيف في المنام، رحل عنها بسلام، فما استوعب جميع القرى المذكورة كعادته ولا استوفاها، ولا أكثر في القرى التي دخلها من الأنفس التي توفّاها، ثم طَفيت ناره، ومُحيت آثاره، وكرَّ راجعاً إلى البلاد الشاميّة، وأنشدهم من قصيده لاميّة:

---

(1) صدق السيوطي، فاستعمال أطعمة معيّنة من الحوامض والقوابض وتعليق الياقوت والتختّم به واستخدام الطين الأرمني، والتبخير بالعنبر والكافور، كلّها لا تفيد في القضاء على الطاعون أو إنقاذ من أصيب به.

(2) هي روضة النيل (في القاهرة).

(3) كلمة غير مقروءة في الأصل.

قد يدرك المتأني بعض حاجته   وقد يكون مع المستعجل الزلل

ثم سكن وهدأ، وعاد من حيث بدأ.

فلما دخلت سنة ثمان وتسعين[1] لم يرعهم إلاّ مجيء الأخبار بعوده إلى الإسكندرية، وأنه يبعث في الأصول من سكانها والذريّة، فأرعب الناس بعوده إلى القاهرة، وأرجفوا بأخذه ما بقي فيها من نجومها الزاهرة.

المقرئ:

وقال كل أحد ما تيسّرَله من مقاله، ووجَّهَ بحسب فنِّهِ وحاله، فقال **المقري**: هذا باب الإدغام الكبير في اللّحود، والإخفاء لكل بدر منير في مغرب الأخدود، والإقلاب لكل عبد أبق إلى فلك الرّدى وبرٌ ودود. لكن تكرّر هذا المدّ المتصل في الأكفان، ليتلوّن كل منفصل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[2]. ولئن هجم هذا الذاني [بجمرة] على القوم ليقولنّ كل امرئ منهم ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. فنعوذ بالله من أن يرسل علينا العام طواعيناً، تصير العين [نوناً] ساكنة وتنويناً[3].

---

(١) أي سنة ٨٩٨هـ.

(٢) الآية ٢٦ من سورة الرحمٰن.

(٣) كلام المقريء كله في علم التجويد، ويستخدم السيوطي اصطلاحات علم التجويد فيضمنها ببراعة فائقة كلامه عن الطاعون. والاصطلاحات هاهنا هي:

الإدغام: إدخال حرف في حرف آخر بحيث يصيران حرفاً واحداً شُدّداً ومثاله «من يعمل» وينقسم إلى إدغام بغُنّة وبغير غُنّة.

الإخفاء: إضعاف الاعتماد على مخرج الحرف الأول ومجافاة المخرج عند النطق مع مراعاة صفة الغُنّة.

الإقلاب: قلب النون الساكنة أو التنوين عند الباء ميماً مخفاة مع بقاء الغنّة.

المدّ المتّصل: إذا اتصل حرف المدّ بهمز بعده في كلمة واحدة مثل (شآء).

المد المنفصل: إذا جاء حرف المدّ في آخر الكلمة والهمز بعده في أوّل الكلمة التي تليها.

النون الساكنة والتنوين: لهما أربعة أحكام هي الإظهار والإخفاء والإدغام والإقلاب. وحروف الإدغام مجموعة في كلمة (يرملون)، وحرف الإقلاب (الباء)، وحروف الإظهار: الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء. وحروف الإخفاء: بقية الحروف الهجائية.

المحدث [أي صاحب علم الحديث]:

وقال المحدّث[1]: قد جرى الدمع المتراكم ونفذ في العام الماضي ما حكم به الحاكم، كم من **صحيح** به أصبح للوساد **مسنداً**، و**عزيزاً** أضحى في بحيرة **غريباً** مفرداً، وكم **ضعيف** أصبح على النعش **موضوعاً**، وعلى أعناق الرجال **مرفوعاً**. وكم **متصل** الحياة به صار **منقطعاً** مقطوعاً. وكم ميّت أمسى أكفانه **مدرجاً**، وتوسّدَ الترب بعد أن كان [ ][2]. فإن عاد هذا العام لم يبق للناس من **أثر**، ولم **يرو** عن الحياة **حديث ولا خبر**. فنسأل الله أن [ ][3] على عوائده الحسان، وأن يمدّنا بنعمته التي لا يُحصي عددها لسان[4].

---

(1) يستخدم السيوطي علمه الواسع في مصطلح الحديث فيضمّنه كلامه عن الطاعون موضحاً براعته في التضمين، وفي قدرته على إدماج معلوماته الواسعة عن علم الحديث ومصطلحاته ضمن حديثه عن الطاعون.

(2) كلمة غير مقروءة في الأصل.

(3) كلمة غير مقروءة.

(4) يتحدث السيوطي عمّا حكم به الحاكم هو الله سبحانه وتعالىٰ، ولكنه يورّي بذلك متحدثاً عن الحاكم البيّع المحدّث المشهور صاحب كتاب المستدرك وحكمه في الصحيح هنا المعافى غير المريض، وأصبح للوساد مسنداً أي مستنداً، أي أصبح طريح الفراش. ولكنه يوري بذلك، ففي علم الحديث: **الصحيح** لذاته: ما اتّصل إسناده بنقل العدل الضابط ضبطاً تاماً عن غيره إلى منتهى السند من غير شذوذ ولا عِلّة. وأما الصحيح لغيره فهو المشهور رواته بالعدالة والضبط، إلاّ أنّه أقل من الصحيح لذاته. **المسند**: هو ما اتّصل إسناده إلى منتهاه فيشمل **المرفوع** إلى النبيّ ﷺ، **والموقوف** على الصحابي قولاً أو فعلاً أو تقريراً. **والضعيف ما** فقد شرطاً أوأكثر من شرط الصحة والحسن، وينقسم بهذا الاعتبار أقساماً كثيرة وأدناها مرتبة **الموضوع**، وهو من كان راويه متّهماً بالكذب والوضع. **والعزيز** هو الحديث الذي رواه اثنان عن اثنين ولو في مرتبة واحدة. **والغريب** هو ما انفرد راوي عمّن يجمع حديثه. **وغريب الحديث** هو ما وقع فيه لفظ غامض. **والمنقطع**: هو ما سقط من رواته راوٍ واحد قبل الصحابي في موضع واحد. **والمتّصل**: هو الذي اتّصل سنده إلى منتهاه لسماع كل واحدٍ ممن فوقه حتى يصل إلى الصحابي وهو الموقوف أو إلى النبيّ ﷺ وهو المرفوع. والاتصال بالسماع يعبّر عنه بلفظ حدثنا وأخبرنا، وأمّا العنعنة فهي عن فلان عن فلان، فإن كان الراوي مدلساً وجب توضيح ذلك؛ لأن **المدلّس** هو من يروي عمّن لقيه، وإن لم يكن سمع منه هذا الحديث، ويسمّى هذا مدلّس الإسناد. والنوع الثاني هو مدلّس الشيوخ، وهو أن =

[الفقيه]:

وقال الفقيه[1]: قد تولى ذلك الطاعون المتدلّي. ولعل هذا الذي بدا[2] فرع من تتمة المتولّي[3]. ألم ترَ إذ ذاك قد بلغ النهاية، وإن كان قد تأخر في البداية[4]. كم ثكلت به من أم، [وقذ] أجلٌ به قد حَمّ. كم سليم مات فأصبح للغسل[5] مجرّداً. وكم قرض فيه جرّ منفعة[6]، وأطلق يد من أسلم في بأجل[7]. ومن استسلم فيه آجره الله عزّ وجلّ، فإن عزم الآن على الرجعة[8] وأضمر الأخذ بالشفعة[9]، ونوى القران[10]، وألقى [بالجران]، ليخلّين مصر من أناسها، وليأخذن الظّباء من كناسها[11]، وليوحش المجالس من جلّاسها.

= يسمّي شيخه بوصف أو كنيه غير معروف به. والمدرج نوعان: إمّا مدرج المتن وهو إدخال كلام ليس من الحديث في الحديث، أو مدرج الإسناد بحيث يختلط فيه إسنادان ويندرج أحدهما في الآخر. والأثر هو كلام الصحابي أو غيره مما لا ينسب إلى النبيّ ﷺ.

(١) تظهر معلومات السيوطي الفقهية واصطلاحات الفقهاء بكل وضوح في أثناء حديثه عن الطاعون.

(٢) الذي بدا: أي الذي ظهر.

(٣) فرع من «تتمة المتولي»: كتاب في الفقه.. والفقه يقسم إلى أصول: علم استخراج الأحكام، وفروع وهي الأحكام نفسها في العبادات والمعاملات والحدود وغيرها. «المتولي» هو عبد الرحمٰن بن مأمون بن علي المتوفى سنة ٤٧٨هـ، فقيه شافعي أصولي، تولى التدريس بالنظامية ببغداد.

(٤) النهاية والبداية المقصود بها كتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، وهو من المراجع الفقهية الهامة لأبي الوليد محمد بن رشد الفقيه الطبيب الفيلسوف، ويلقب بالحفيد للتمييز بينه وبين جدّه، وكلاهما تولى القضاء في قرطبة.

(٥) (الغسل) من أحكام الميت إذ لا بدّ له من غسله ثلاثاً أو خمساً أو سبعاً بماء وسدر، وإن لم يوجد السدر فالماء يكفي.

(٦) (وكم قرض فيه جرّ منفعة)، من تعابير الفقهاء... وكل قرض جرّ منفعة فهو ربا.

(٧) السَلَم هو البيع بأجل.

(٨) الرجعة: من تعابير الفقهاء في الطلاق، حيث يحقّ للرجل أن يرجع إلى زوجته في الطلاق غير البائن في أثناء العدّة بدون عقد جديد ولا شهود، كما يحق له أن يرجع إليها بعد العدة بعقد جديد وشهود.

(٩) حقّ الشفعة ثابت للجار في العقار، كما يثبت كذلك للشريك حتى لا يضار بمالك جديد. ولذا يقدم على غيره من المشترين.

(١٠) القِران: هو أن يجمع الإنسان الحج والعمرة في نسك واحد، وعليه دم.

(١١) الكناس: مأوى الظباء الذي تختفي فيه.

[الأصولي]:

وقال **الأصولي**[1]: كم مضى في ذا العام من **مندوب**، وكم فات فيه من مطلوب. وكم **قيّد** الطاعون من **مطلق**، وأطلق من **مقيّد**. وكم هدم من **قاعدة** مؤسسة **وأصل** مؤكّد، وبرج مشيّد. وكم قطع من عضد وساعد، وكم زلزل من **أصول وقواعد**. أتى على **الخاص والعام**، وقضى على من قُضِيَ أجله في ذلك العام، وكم تعطّل بسببه من **واجب**، وقضى [على] كل عين يرفع حاجب. فإن قال في هذا العام بالتكرير، وأجمع على [شوبه] بالتمرير، ليعطّلن طرق الاستفادة، وحال المستفيد، وليسدّن **مسالك الاجتهاد والتقليد**.

[النحوي]:

وقال النحوي[2]: قد أفنى ذلك العام **الماضي** كل خليل. وأتى بكل حظٍّ جليل. توارت فيه من القاضي **جُمل**، ولم يبلغ فيه أحد من الساقية أمل. كم ساء فيه من **حَال** وتعطّل فيه من **حَال**. ودفع كل **فاعل ونائبه**، ولحق كل مطلوب بطالبه. وجمع الموت بين كل مصحوب وصاحبه. وكم أخذ من كبير مفخّم، وأخلّ من بيتٍ مرخّم. فإنّ عاد **ضمير الفصل**، وقضى الشأن له بالوصل، [فوربُ الليل وما وسق والقمر إذا اتّسق][3]، لئن **عطف** عاماً بعد عام على نسق ليقطعنّ عائد كل **موصول**، وليُذهِبنّ كل ذي حاصل ومحصول، ولينفتحنّ باب [الكربة] **والندبة وليرفعن** باب **التمييز والنسبة**، وليصيّرنّ **الأخبار**

---

[1] يستخدم السيوطي اصطلاحات علم أصول الفقه حيث يبحث هذا العلم في كيفية الوصول إلى الأحكام، والشيء إمّا أن يكون واجباً أو مندوباً أو محرّماً أو مكروهاً أو مباحاً. والأحكام قد تكون مقيّدة أو مطلقة... ولا بدّ للفقه من قواعد عامّة تحكمه... وللاستدلال على الأحكام لا بدّ لمعرفة النصوص هل المقصود بالنص الخاص أو العام... وهكذا يجب معرفة طرق الاستفادة وحال المستفيد حتى لا تُسدّ مسالك الاجتهاد والتقليد، وشروط كل واحدٍ منهما.

[2] يسير السيوطي على نفس النسق السابق في تضمين العلوم المختلفة واصطلاحاتها أثناء استعراضه لطاعون عام ٨٩٧هـ و٨٩٨هـ، وهنا يدخل اصطلاحات النحويين فيتحدّث عن الماضي (الفعل الماضي)، والجملة (اسمية وفعلية)، والحال والفاعل ونائبه والضمير، والفصل والوصل، والعطف، والموصول... والفتح والندبة... ورفع باب التمييز والنسبة، والمسند والمسند إليه والأخبار وباب كان وأخواتها.

[3] مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿والليل وما وسق والقمر إذا اتسق﴾، سورة الانشقاق، آية ١٧ و١٨.

بلا مسند إليه، والمسند إليه بلا أخبار. وليدخُلنّ في كل حي على باب كان وبات فصار، وليروينّ كتاب الفصول. [ ] لا عن يحيى ولا عن من يعيش.

[الصرفي]:

وقال الصرفي[1]: وقد زلزل الناس زلزلة وزلزالاً، قلقل الجُلاس قلقلة وقلقالاً، وصلصل أصوات الناعيات صلصة وصلصالاً. وأدرج كل ميّت في أكفانه إدراجاً، ودحرجه في اللّحد دحرجة ودحراجاً.

كم مدّ في الكفن من ميّتين، فقصّر المطول، وكم التقى في اللّحد من ساكنين فكسر الأوّل. وكم انقرض من نسب، وانقطع به من سبب. فإن سُئل ولم ينفكّ عن الإدغام شتّت الجمع، وأجرى الدمع، وصقر البصر والسمع. وترك كل أجوف عليلاً، وكل مضعّف نقيلاً، وكل سمع أصمّ، وكل ذي ثلاثة وأربعة يفرد ولا يضمّ. وكلّ قاض متقوّضاً، وكل قاصٍ مرقوصاً. فنسأل الله أن يمنّ علينا بالعافية، ويحفّنا بألطافه الكافية الشافية الراقية الوافية.

[البليغ]:

وقال البليغ[2]: قد حصل الطاعون في العام الماضي فأورث حسرة وحصراً وحمل وقراً وأسراً، وعمر قبراً وخرّب قصراً. وأخذ كل مسند ومسند إليه، وتحقّق كل مالك ووالد. والولد مستعار لديه فأيقن كلٌّ بالممات، وذهب

---

(١) علم الصرف هو العلم الذي تُعرف به كيفية صياغة الأبنية العربية، وأحوال هذه الأبنية التي ليست إعراباً ولا بناء كما يدخل فيها تصريف الأفعال وإيجاد المصدر، كالذي ذكره السيوطي هاهنا: زلزل زلزلة وزلزالاً، وقلقل قلقلة وقلقالاً، وصلصل صلصلة وصلصالاً... إلخ.

وذكر السيوطي المدّ وتقصير المطوّل، والتقاء الساكنين، فإذا التقيا كان لا بدّ من كسر الأوّل... كما ذكر الإدغام والمضعّف والأجوف ـ وهو كل كلمة عينها حرف عِلّة ـ وتفانين هذا العلم ليدلّ على براعته فيه.

(٢) البلاغة هي تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارة فصيحة لها في النفس أثر خلّاب مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص المخاطبين، ومراعاة الإيجاز حتى قيل البلاغة الإيجاز، وقد يستحبّ الإطناب في بعض المواضع... ويستخدم البليغ الجناس والطباق وغيرها من المحسّنات البديعة كما يستعمل المجاز والاستعارة وأنواع التشبيه.

[ ](١) وترحيبه وفات، ولم يبق لأحد إلى الدنيا التفات. وعلم أن زهرة الدنيا تخييل وأحلام، وأنها كطيف مرّ في المنام.

كم مات فيه من ميت، وقد خلا فيه من قصر وبيت. وكم من بديع الحسن أودع في طبقات الثرى، وشحّ بالأكفان لفّاً وطيّاً إلى يوم نشر الورى، والذي أوجد الخلق بالإنشاء، وهو قادر على إعدامهم إن شاء، لئن عاد الطاعون في هذا العام ليفتحنّ باب المجاز إلى القبور بمفتاح، وليتبعنّ ما بقي مصباح، وليأخذنّ عروس الأفراح وعروس الأفلاح، فنسأل الله السلامة والسلام.، وأن يمنّ علينا بحسن التخلّص وحسن الختام.

واستمرّ الناس بين مرتقب بعوده، ومترقّب ومتخوّف من رجوعه [ ](١)، ثم مشى من الإسكندرية إلى البحيرة، وصيّر أهلها في دهشة وحيرة، ومكث غير بعيد، وتحوّل من البحيرة إلى الصعيد، فدخل البلاد التي كان تركها في العام الماضي وخلّاها، ومرّ عليها فأمرها وما أخلاها، وأحاط بها وأخلاها من أهلها وأخلاها. وأمّا القاهرة فألمّ بها يسيراً، ونفر فيها تنفيراً، وأخذ منها كل يوم دون المائة نقيراً. وكان أكثرُ عمله فيمن هرب في العام الماضي وفرّ، وكان غائباً عنها في سفر، ثم تناقص بعد طلوع النجم مصداق الآية والخبر. فحمد العباد ربّهم وشكروه، وأثنوا عليه بما هو أهله وذكروه.

وقال المقري(١): ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾(٢)، وتعالىٰ مسيّر الفلك ومسخّر الفلك. الحمد لله الذي دفع الطاعون وجنبنا الذين يراؤون ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾(٣). ونعوذ به من سوء المنقلب، ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾(٤)، فطوبى لمن عقد توبة تنقذه يوم الحشر، وملأ صحيفته حسنات تكون عند نشره طيبة النشر(٥).

---

(١) كلمة غير مقروءة في الأصل.

(١) يعود مرة أخرى إلى المقرئ وما فيه كلامه من علم التجويد وقراءة القرآن.

(٢) سورة الملك، آية ١.

(٣) سورة الماعون، آية ٧.

(٤) سورة الفلق، آية ٣.

(٥) طيبة النشر نظم في القراءات العشر. . . فيضمّنها كلامه ويشير إليها. والنشر هو يوم البعث.

وقال المحدث[1]: اللّهمّ حوالينا ولا علينا، وانظر بعين عنايتك إلينا، وحلّ الحُبا ووصل الخبر، وقطع المادة ووضع [الفاهة] الحادّة. فطوبى لمن عقد توبة نصوحاً، وأضحى حديث **أعماله حسناً صحيحاً**.

وقال الفقيه[2]: وقد آن صحيح الشكر وأن تكون **نية الطهارة من الجنابة** لذنوب على ذكر، فتيقّظوا من السهو، ودعوا اللعب واللّغو واللّهو، وكونوا من قوم **يصومون ويتصدّقون**، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[3]. **والزموا** باب **الصلاة والصلات** طلباً للتوبة. **والوصية** كل الوصية **بالفرائض** المكتوبة، وعليكم بحسن التدبير في الطاعة، والمتابعة **للسّنّة والجماعة**. **وألقوا للتلاوة السمع**، [وخذوا] في الأمل والعمل **بالقصر والجمع**. وألقوا **السَّلَم قبل أن يغلق الرهن**، ولا تبيعوا الآجل بالعاجل، فإن ذلك من أعظم الوهن.

واعلموا أن المال والولد عارية مردودة، ووديعة ـ ولا شكّ ـ وإن طال المدى مفقودة. واتّقوا الظلم، فكما تدين تُدان، والجروح قصاص، وأقلعوا قبل أن يطلب أحدكم الرحمة ولات حين مناص. وبادروا بالتوبة من اللّهوات قبل أن تدخلوا باب الإحصار والفوات.

وقال الأصولي[4]: قد ذهب الداء المؤلم، ووجب شكر المنعم. وزال

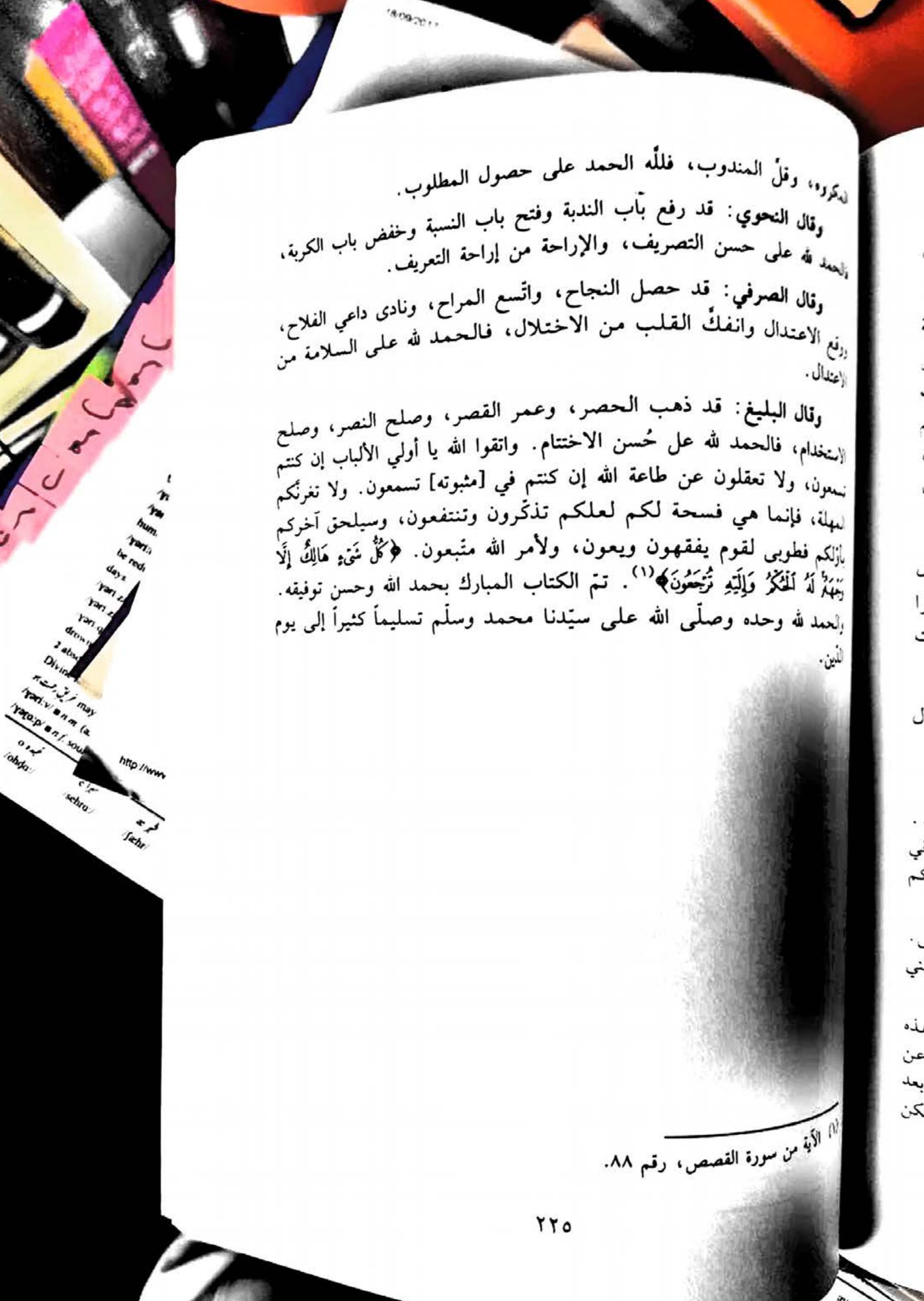
---

(1) يعود مرة أخرى إلى المحدّث ويشير إلى الحديث الصحيح والحسن.

(2) للمرّة الثانية يتحدّث عن الاصطلاحات الفقهية: ويتحدّث عن نيّة الطهارة من الجنابة... ويتحدّث عن الصّيام والصّدقة وباب الصّلاة، وصِلَة الأرحام، والوصية والفرائض في علم المواريث والسّنّة والجماعة... وبيع السلم والرهن... والقصر والجمع وحكم الاستماع للتلاوة.

(3) الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض. ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه، واعلموا أن الله غني حميد﴾، سورة البقرة ٢٦٧.

(4) ويعود مرة أخرى للأصولي ثم للنحوي والصرفي والبليغ... وهذا من عيوب هذه المقامة. وكان الأحرى به أن يكتفي بذكر هؤلاء مرة واحدة، وأن يجمع ما لديه عن النحوي أو الفقيه الأصولي أو الصرفي أو البليغ في مكان واحد، ولا يعيد كتابته مرة بعد مرة، حتى يجعل القارئ يملّ من هذه الإعادة، وإن كان في كل مرة يأتي بجديد، لكن الأجدر جمعها في نسق واحد.



المكروه، وقلّ المندوب، فللّه الحمد على حصول المطلوب.

وقال النحوي: قد رفع بآب الندبة وفتح باب النسبة وخفض باب الكربة، والحمد لله على حسن التصريف، والإراحة من إراحة التعريف.

وقال الصرفي: قد حصل النجاح، واتّسع المراح، ونادى داعي الفلاح، ورفع الاعتدال وانفكّ القلب من الاختلال، فالحمد لله على السلامة من الاعتلال.

وقال البليغ: قد ذهب الحصر، وعمر القصر، وصلح النصر، وصلح الاستخدام، فالحمد لله عل حُسن الاختتام. واتقوا الله يا أولي الألباب إن كنتم تسمعون، ولا تعقلون عن طاعة الله إن كنتم في [مثبوته] تسمعون. ولا تغرنّكم المهلة، فإنما هي فسحة لكم لعلكم تذكّرون وتنتفعون، وسيلحق آخركم بأولكم فطوبى لقوم يفقهون ويعون، ولأمر الله متّبعون. ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]. تمّ الكتاب المبارك بحمد الله وحسن توفيقه. والحمد لله وحده وصلّى الله على سيّدنا محمد وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

---

(1) الآية من سورة القصص، رقم ٨٨.

مكتبة الإمام السيوطي

في الطب النبوي

شرح وتحقيق ودراسة

د. محمد علي البار

القسم الأول: المقدمة

الحمد لله وحده والصّلاة والسلام على من لا نبيّ بعده وآله ومن والاه إلى يوم الدين.

لقد اهتمّ المسلمون اهتماماً بالغاً بسنة نبيهم محمد ﷺ منذ عهد النبيّ ﷺ، فكتب بعض الصحابة، مثل الإمام علي وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، كثيراً من أحاديثه، كما أمر النبيّ ﷺ بكتابة رسائله وعهوده ومواثيقه مع اليهود والقبائل العربية المختلفة، ثم تتبّع الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً من أحاديثه ورحلوا من أجلها من بلد إلى آخر كي يسمعوا من أقرانهم بعض الأحاديث التي لم يسمعوها من الرسول، أو تلك التي سمعوها وأرادوا أن يستوثقوا من سماعهم لها.

ثمّ جاء جيل التابعين وتمّ تسجيل كثير من الأحاديث وجاء بعدهم جيل تابعي التابعين وظهر الإمام مالك بكتابه الموطأ، ثم ظهرت كتب الحديث الأخرى في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة، وظهرت الأمهات الست (صحيحا البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) في القرن الثالث، وظهرت معها وقبلها وبعدها المصنّفات، مثل مصنف عبد الرزاق ومصنف ابن أبي شيبة والمسانيد، مثل مسند أحمد بن حنبل والمعاجم مثل معجم الطبراني وغيرها من كتب الحديث.

وعلم الحديث من مفاخر الإسلام والمسلمين، فليس لدى الأمم علم يماثله أو يقرب منه في دقّته وبحثه عن الأسانيد والرجال وبحثه في المتون، وقد حوت كتب الحديث المختلفة على أبواب أو كتب مختصّة بالطب. وكان أكثر اهتمامها بالطب العلاجي الذي ورد عن المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وقد اهتمّ الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بالصحة وما ينمّيها ويرقّيها، وما يدفع عنها غائلة الأمراض حين تعتورها. وقد صحّ عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم، أنه قال: «**نعمتان مغبون فيها كثير من الناس: الصحة والفراغ**» (أخرجه البخاري والترمذي وابن ماجه)، وقال ﷺ: «**اسألوا الله العفو والعافية، فإنه ما أوتي أحدٌ بعد يقين خيراً من معافاة**» (أخرجه النسائي). وعنه ﷺ أنه قال: «**من أصبح معافى في بدنه، آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا**» (أخرجه الترمذي)، وصحّ عنه أنّه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» (أخرجه مسلم وأحمد في مسنده وابن ماجه في سننه).

وأمر ﷺ أمّته بالتداوي من الأمراض إذا أصيب بها الإنسان، حيث قال: «**عباد الله تداووا فإن الله عزّ وجلّ لم يضع داء إلاّ وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم**» (أخرجه أحمد في مسنده، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي في سننه وقال عنه: حسن صحيح، وأخرجه ابن ماجه أيضاً).

وفي الصحيحين: البخاري ومسلم عن أبي هريرة يرفعه إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**ما أنزل الله من داء إلاّ أنزل له شفاء**»، وفي لفظ: «**إن الله لم ينزل داء إلاّ أنزل له شفاء عَلِمَهُ مَن عَلِمَهُ وجَهِلَهُ مَن جَهِلَهُ**».

والأحاديث التي جمعها علماء الحديث في كتبهم والتي بوّبوا لها في ما يسمّى كتاب الطب ليست قليلة، رغم أنها لم تحتوِ إلاّ على الأحاديث في الطب العلاجي، وقليل منها في الطب الروحي. وأمّا الطب الوقائي، وطب الأسرة والمجتمع، وغيرها من أبواب الطب فهي موجودة في كتب الطهارة والصّلاة والصوم والحجّ والزكاة والجهاد والقدر وغيرها من أبواب كتب علم الحديث.

وبلغ عدد الأحاديث التي بوّب لها الإمام البخاري في صحيحه تحت عنوان كتاب الطب مائة وثمانية عشرة حديثاً بالإضافة إلى ستة عشر أثرٍ عن أصحابه رضوان الله عليهم. وجمع الإمام مسلم في صحيحه مجموعة لا بأس بها من الأحاديث الواردة في الطب، وكذلك جمعت السنن الأربعة والمسانيد

والمعاجم والمصنّفات وكُتُب الصحيح الأخرى مثل صحيح ابن حبان وصحيح أبي عوانة أحاديث كثيرة في الطب. وقد جمع الشيخ أحمد بن محمد زبيله في رسالته للماجستير من كلية الدعوة وأصول الدين (قسم الكتاب والسنّة، جامعة أم القرى بمكّة المكرمة / ١٩٨٨) أحاديث الطب النبوي في الأمهات الست، وقام بدراستها من الناحية الحديثية فقدم بذلك خدمة هامة لدارسي الطب النبوي.

وقد أفرد بعض العلماء ما ورد عن النبيّ ﷺ في الطب في كتب مستقلة تحت عنوان «الطب النبوي»، كما تناول بعضهم موضوعاً واحداً من مواضيع الطبّ النبويّ فأفردوه بالتأليف مثل الطاعون.

وكان أوّل من أفرد رسالة في حفظ الصحة هو الإمام علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين السِّبْطِ شهيد كربلاء وريحانة رسول الله ﷺ وسيّد شباب أهل الجنّة، وهو ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه وابن فاطمة الزهراء بنت خير البريّة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم. وقد وضعها في حدود سنة مائتين للهجرة بناء على طلب المأمون العباسي وأسماها المأمون الرسالة الذهبية[1].

وثاني مَنْ وضع كتاباً في الطب النبويّ هو الفقيه الأديب اللغوي عبد الملك بن حبيب الأندلسي الألبيري، السُّلَمِيُّ (مولاهم)[2] المالكي المتوفى سنة ٢٣٨هـ، وقد قمت بشرحها ونشرها[3].

ولعلّ ثالث من كتب في الطبّ النبويّ هو الإمام أبو بكر أحمد بن أبي عاصم الضحّاك الشيباني المعروف بابن النبيل (٢٠٦ ـ ٢٨٧هـ) من أهل أصبهان ـ في إيران اليوم ـ، وله نحو ثلاثمائة مصنف منها «المسند الكبير» جمع فيه نحو خمسين ألف حديث، وكتاب «الآحاد والمثاني» جمع فيه عشرين ألف

---

(١) قمتُ بنشرها في كتاب بعنوان: الإمام علي الرضا ورسالته في الطب النبوي، دار المناهل، بيروت ١٩٩١م.

(٢) أي كان عبداً لهم ثم أعتقوه.

(٣) دار القلم دمشق ـ بيروت.

حديث وغيرها من الكتب. وقد فُقِدَت أكثر كتبه في فتنة الزنج بالبصرة، فأعاد كتابة خمسين ألف حديث من حفظه، وله كتاب في الطب النبويّ ذكره الإمام الذهبي وابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري، وذكره السيد الكتاني في الرسالة **المستطرفة**. ويعتبر الكتاب مفقوداً، وربما كان موجوداً في إحدى مكتبات العالم مطموراً.

ومن الكتب القديمة التي ظهرت باسم «الطب النبوي» كتاب الإمام ابن السُّنِّيّ. وقد فقد كتابه هذا، ولكن من حسن الحظ أن الإمام أبا نعيم الأصفهاني قد ضمّه في كتابه الطب النبويّ، وهو من أهم المصادر القديمة لكتب الطب النبويّ.

ثم ظهر كتاب أبي نعيم الأصبهاني في الطب النبوي، وظهر كتاب أبي القاسم الحسين بن محمد النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦هـ، وكتابه موجود مخطوطاً في مكتبات تركيا نذكر منها مكتبة صفرانبولي برقم ٣/٥٤٦، ومكتبة متحف الآثار برقم ١/٧٣٨.

ثم ظهر كتاب أبي العباس جعفر بن محمد المستغفري النسفي (٣٥٠ - ٤٣٢هـ)، وكتابه أيضاً موجود مخطوطاً في كثير من المكتبات، مثل مكتبة كتبخانة سي برقم ٢٨١٤، ومكتبة فيض الله أفندي برقم ١٣٢٢، ومكتبة جامعة استانبول القسم العربي برقم ٢٨١٤ وجميعها في تركيا.

ثم ظهرت عدة كتب في الطب النبويّ للمحدّث اللغوي الطبيب عبد اللطيف البغدادي (٥٥٥ - ٦٢٩هـ)، أهمها كتاب «الأربعين الطبية» استخرجها من سنن ابن ماجه، ونشرها العلّامة المغربي عبد الله بن كنون، وكتاب «الطب من الكتاب والسنّة»، الذي حقّقه ونشره الدكتور عبد المعطي قلعجي.

ويعتبر كتاب «الأحكام النبويّة في الصناعة الطبية» للكحال علي بن عبد الكريم بن طرخان الحموي الصفدي (٦٥٠ - ٧٢٠هـ) من أحسن كتب الطب النبوي في تبويبه وتخريجه وترتيبه وشرحه. وقد جمع أحاديثه من الصحيحين: البخاري ومسلم. والكتاب قد نشره الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ - الباب الحلبي - سنة ١٩٥٥م، وقد نفذت جميع نسخه منذ أمد.





وهناك كتب عديدة في الطب النبوي، نذكر منها كتاب ضياء الدين المقدسي (٥٦٩ ـ ٦٤٣هـ) موجود في دار الكتب المصرية (طب تيمور رقم٢، طب طلعت رقم ٥٣٦)، وكتاب محمد بن أبي الفتح البعلي (٦٤٥ ـ ٧٠٩هـ) الذي نشره وحققه أحمد البرزة وعلي رضا عبد الله ونشرته دار ابن كثير (دمشق ـ بيروت) عام ١٩٨٥م.

ولابن الجوزي (٥٠٨ ـ ٥٩٧هـ) ثلاثة كتب في الطب، وقد ضمنها أحاديث نبوية وهي طب الأشياخ ومختار اللقط في الطب ولقط المنافع في الطب... وهي لا تزال مخطوطة في مكتبات تركيا وغيرها من المكتبات.

ومن أشهر كتب الطب النبويّ كتاب الإمام ابن القيم، وهو جزء من كتابه العظيم «زاد المعاد في هدي خير العباد». وقد طبع الكتاب في الآونة الأخيرة عشرات الطبعات بتحقيق وبدون تحقيق.

وقد نقل ابن القيم كثيراً من مادته العلمية مِن كتب مَن سبقوه، خاصّة كتاب عبد اللّطيف البغدادي، وكتاب علي بن عبد الكريم بن طرخان الحموي.

ومن الكتب المشهورة في الطب النبوي المتداولة، وإن كان بصورة أقلّ بكثير من كتاب ابن القيّم كتاب الإمام الذهبي، وهو مطبوع (طبعة البابي الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٦١م)، كما طُبِعَ أيضاً بهامش كتاب «تسهيل المنافع في الطب» للشيخ إبراهيم بن عبد الرحمٰن الأزرق، طبعة قديمة، وقد صوّرتها المكتبة الشعبية ودار الكتب العلمية ببيروت بدون تحقيق أو تعليق أو تخريج للأحاديث.

ومن أوسع كتب الطب النبويّ وأجمعها وأغزرها مادة كتاب الإمام جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي بعنوان «المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي»، وقد قام بتحقيقه الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل في رسالته لنيل درجة الماجستير في الحديث من الجامعة الإسلامية، وقد نشرته مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت) ومكتبة الجيل الجديد (صنعاء) عام ١٩٨٦م. وكنت قد دُعيت لأكون ضمن اللّجنة الممتحنة لهذه الرسالة حين تقديمها في الجامعة الإسلامية، وكانت تلك أوّل صلة لي بكتب الطب النبوي التراثية.

وكتاب الإمام السيوطي هذا موجود في مكتبات كثيرة في العالم منها

نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٩٤٨، ونسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم طب١، ونسخة في دار الكتب المصرية برقم ٦١٦ طب خاص ورقم عام ٤٧١٥٣، ونسخة أخرى أيضاً في دار الكتب المصرية برقم ٣١٥٧ل طب، ونسخة في مكتبة الأحمدية بتونس ومجموعة كبيرة من النسخ في مكتبات تركيا، وواحدة في أوكسفورد وأخرى في برلين.

ويمتاز كتاب الإمام السيوطي بالميزات التالية:

١ - جمع المصنف ثروة هائلة من الأحاديث النبوّية والآثار المتعلّقة بموضوع الطب، وهي ٦٦٧ حديثاً وأثراً. وهو أمر لم يتيسّر لمن كتب قبله في الطب النبوي.

٢ - يذكر الإمام السيوطي من خرّج الحديث ويحذف السند وينتقل مباشرة إلى الصحابي راوي الحديث. ولهذه الطريقة ميزة الاختصار لعدم الحاجة إلى ذكر السند الموجود في مصادره (صحيح البخاري، صحيح مسلم، كتب السنن... إلخ).

٣ - رتّب المصنف كتابه ترتيباً جيداً على نسق كتاب موجز القانون لابن النفيس وهو كتاب طبي معتمد في ذلك الزمان - وضع القانون ابن سينا واختصره ابن النفيس -، وضع السيوطي كتابه على ذلك النسق البديع، وجعل يذكر الأحاديث في أوّل الباب، ثم يسوق بعدها أقوال الأطباء.

٤ - كان السيوطي أميناً ودقيقاً في نقله من كتب الحديث وكتب الأطباء، فيما عدا مواضع قليلة. وهو يعزو كل قول إلى صاحبه ومن أين استقاه، فكان بذلك مرجعاً هاماً ودقيقاً.

ومن هَناتِ كتاب السيوطي أن السيوطي كان جامعاً ومرتّباً لا ناقداً. وعذر السيوطي في ذلك واضح جلي فهو محدّث وليس طبيباً. ويكفيه أنه نقل آراء الأطباء وأقوالهم بكل أمانة دقّة، واستوعب علمهم إلى زمنه ذاك.

ومن هَناتِ الكتاب أنه لم يبيّن درجة الأحاديث والآثار التي رواها من الصحة، وإن كان قد التزم بألاّ يذكر أي حديث موضوع أو متروك.

وقد قام المحقّق جزاه الله خيراً بتوضيح درجة الأحاديث من الصحة،

كما أنه وجد بعض الأحاديث المتروكة التي لم ينتبه لها السيوطي.

وللسيوطي كتب أخرى في الطب منها كتاب «الطب النبوي»، الذي يبدو أنه اختصار لكتاب «المنهج السويّ والمنهل الرويّ»، ومنها كتاب «ما رواه الواعون في أخبار الطاعون»، وقد اختصره من كتاب «بذل الماعون في الطاعون» لابن حجر العسقلاني، وأضاف إليه معلومات أخرى عن الطاعون، وهو كتاب عظيم تحدّث فيه عن أخبار الطاعون وعلاماته وما ورد فيه من أحاديث. وقد تقدّم شرحه وتحقيقه. ومن كتبه في الطب «رسالة في علم التشريح» و «شرح كليات الطب»، جمعها في كتابه «نقاية العلوم»، وهو أيضاً مخطوط.

وله كتاب، حوله لغط كثير، هو كتاب «الطب والرحمة»، وهو منسوب لعدد كبير من المؤلّفين من بينهم الإمام السيوطي.

وللسيوطي مقامات أدبية وطبية جمعها وعلّق عليها محمد إبراهيم سليم، ونشرتها مكتبة الساعي (الرياض).

وقد قمتُ في هذا الكتاب بوضع ترجمة للإمام السيوطي استقيتها من المراجع العديدة (٨٤٩ ـ ٩١١هـ)[1]. والسيوطي دائرة معارف، وقد كتب في معظم فروع المعرفة المتاحة في زمنه وبلغت مصنّفاته ورسائله ٧٢٥ كتاباً ورسالة، كما يقول الدكتور حسن المقبولي في مقدمة كتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبويّ.

وقد أحصى حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون ٥٧٦ كتاباً للسيوطي، ولا يزال الكثير منها مخطوطاً. وقد ذكر يوسف سركيس في كتابه معجم المطبوعات العربية أنه قد تمّ طبع ٩٢ كتاباً من كتب السيوطي حتى عام ١٩١٩م. ولا شكّ أن كتباً كثيرة قد تمّ طبعها منذ ذلك الزمن حتى يومنا هذا

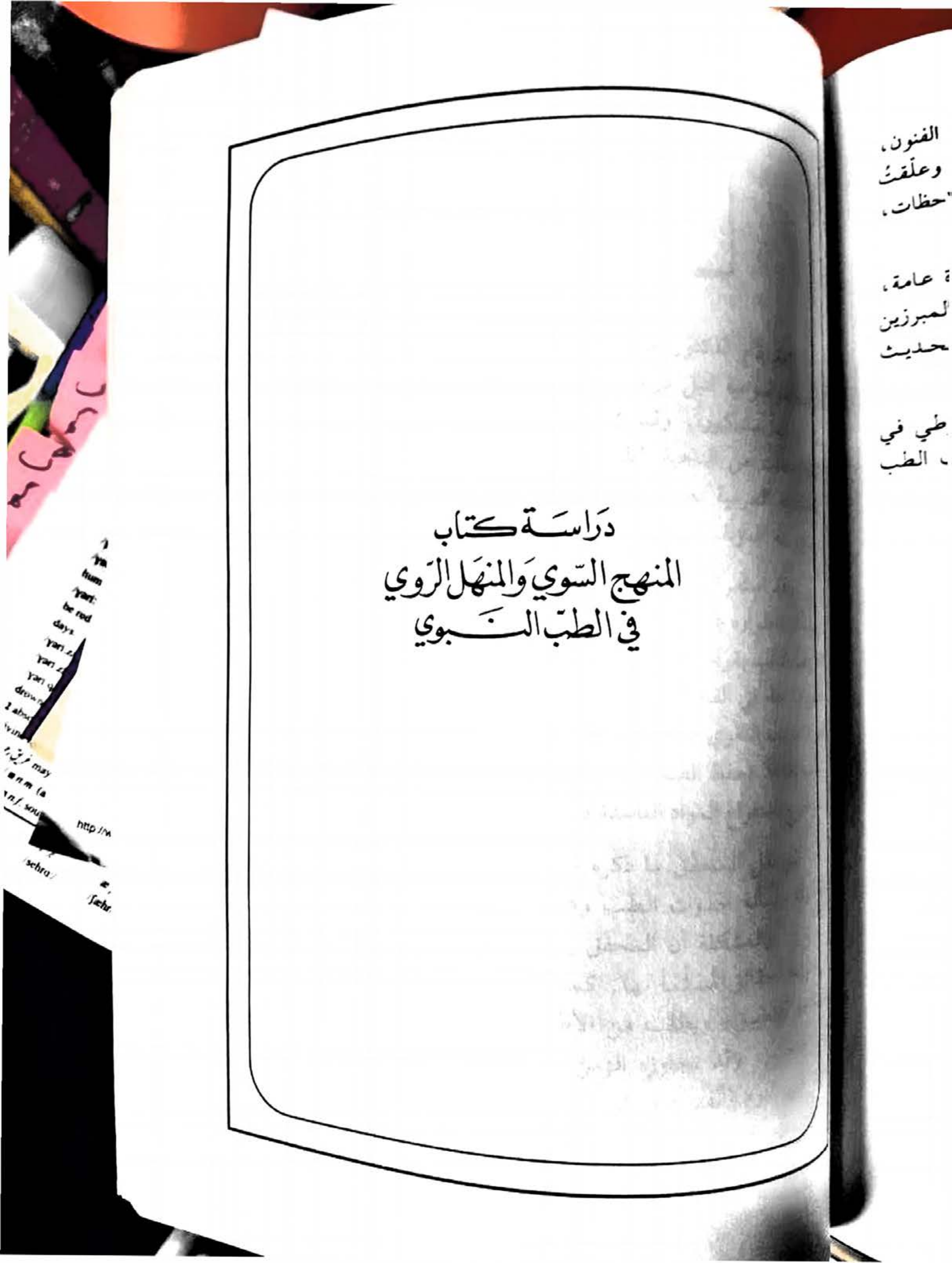
---

(١) وضعتها في الفصل السادس من كتاب ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ص١١٥ ـ ١٣٦ ويعتبر كتاب الأستاذ إياد خالد الطباع «الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي مَعْلمة العلوم الإسلامية» الذي أصدرته دار القلم بدمشق أحدث هذه الكتب وأوسعها حيث ذكر ١١٩٤ مصنفاً للسيوطي بأسمائها مع تبيين المخطوط منها والمطبوع. ولكنه لم يذكر كتب السيوطي الطبية. ويعتبر كتابي هذا تتميماً لهذا العمل في هذا الجانب.

(أكثر من سبعين سنة). وقد ذكرتُ قائمة بكثير من مؤلّفاته في مختلف الفنون، وما هو مطبوع منها وما هو مخطوط. ثم قمت بدراسة كتبه الطبية وعلّقت عليها، وذكرت ما قدمه المحقّقون لها من خدمة وما لِيَ عليهم من ملاحظات، وما هو مطبوع منها، وما هو مخطوط، وأين يوجد المخطوط.

ولا شكّ أن الإمام السيوطي قد أثرى المكتبة العربية بصورة عامة، والدينية واللغوية بصورة خاصة. والسيوطي يعدّ من علماء الحديث المبرزين، وكتبه في الطب النبوي تندرج تحت هذا المنوال، خدمة لحديث رسول الله ﷺ، ومع ذلك ففيها من بدائع الطب وفوائده وغرائبه الكثير.

وهذه الدراسة تتيح للدارسين الاطّلاع على كتب الإمام السيوطي في الطبّ النبوي والطب، وهي حلقة ضمن حلقات تخدم بإذن الله كتب الطب النبويّ على امتداد تاريخنا العلمي المجيد.



دَراسَـةُ كتاب
المنهج السّوي وَالمنهَل الرّوي
في الطبّ النَـبوي

القسم الثاني: دراسة كتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ للسيوطي

لقد قام الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل بدراسة هذا الكتاب القيّم دراسة موضوعية لنيل درجة الماجستير في الحديث من الجامعة الإسلامية وبذل فيه جهداً مشكوراً. وقد كنت ضمن اللجنة لمناقشة الرسالة وإبداء بعض الملاحظات من الناحية الطبية. ولا شكّ أن هذه الرسالة المحقّقة إضافة هامة للمكتبة العربية بصورة عامة، وللمهتمين بالطب النبويّ بصورة خاصة، فجزى الله المؤلّف والمحقّق كل خير عمّا بذلاه في خدمة العلم.

وقد استعرض المحقّق في مقدمته الطويلة عن الكتاب أهمية الطب وتعريفه ونشأته وأطواره عند الأمم. وهذا الفصل يحتاج إلى مراجعة، فقد بدأ المحقّق تعريف الطب بقوله: «هو علاج الجسم والنفس والرُّقى والسحر»، معتمداً في ذلك على ما جاء في القاموس المحيط للفيروزابادي. وكان ينبغي عليه أن يذكر أن ذلك من التعريف اللغوي القديم. ثم نقل مقدمة ابن القيّم في كتابه الطب النبوي، وقواعد الطب ثلاثة: «حفظ الصحة والحمية عن المؤذي والاستفراغ من المواد الفاسدة»... وموضوع استفراغ المواد الفاسدة كما هو في كتب الطب القديمة يحتاج إلى مراجعة.

ثم نقل المحقّق ما ذكره القدماء، وبالذات ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء مسألة حدوث الطب وهل هو قديم - أي أزلي -؟! وهو كلام غير دقيق... والمشكلة أن المحقّق يتحدّث عن هذه الأمور وينقلها نقل مسطرة، ويعتبرها حقائق مُسَلَّماً بها. كما يتحدّث عن كتب الطب القديمة ويعتبرها صالحة للتطبيق، ويطلب من الأطباء اليوم أن يدرسوا الطب منها!! وهو أمر غير صحيح، وقد تجاوزه الزمن. وقد تقدم الطب تقدماً باهراً منذ عهد ابن سينا إلى اليوم (ألف عام تقريباً). ومن السّخف أن نلتزم بأقوال ابن سينا في الطب، فهي مليئة بالأخطاء. ولو قال المحقّق، غفر الله له، لا بدّ لطلبة الطب

والأطبّاء من دراسة التراث الطبي لدى المسلمين والاستفادة منه ووضعه في إطاره التاريخي لكان ذلك حسناً.

ثم إن المحقّق لم يتنبه إلى أن كتب الطب النبوي الكثيرة تنبني على قسمين:

القسم الأول: النظريات الطبية اليونانية التي تتحدث عن العناصر الأربعة، والأركان الأربعة، والأخلاط والأمزجة الأربعة وما يتولّد عنها... وهي نظريات قد عفى عليها الزمن، واتّضح بطلانها وزيفها.

والقسم الثاني: الأحاديث النبوية الواردة في الطب وفيها الأحاديث الصحيحة والحسنة والضعيفة والمتروكة، وقد بذل المحقّق جهداً رائعاً في هذه الرّسالة في تخريج الأحاديث وتوضيح درجتها من الصّحة.

ولا شكّ أن ما صحّ عن النبيّ ﷺ هو الحقُّ الذي لا مرية فيه. وقد تنبّه المحقق إلى أن الذين كتبوا في الطب النبوي أهملوا جوانب كثيرة متعلّقة بالصحة والطب، وردت في أبواب المياه والنجاسات والصلاة والنكاح والصوم والمعاملات... إلخ، وقد نبّه على ذلك في المقدّمة وذكر طرفاً يسيراً من أمثلة الطب الوقائي الذي لم يتناوله مؤلّفوا كتب الطب النبوي إلاّ قليلاً، وقد أحسن في ذلك وأجاد، جزاه الله خيراً.

ولا بدّ لنا حين ندرس كتب الطب النبوي أن نعي هذه النقاط تماماً، وهي أن جزءاً كبيراً ممّا كُتب متعلّق بنظريات الطب اليوناني التي عفا عليها الزمن، وأوضح زيفها وبطلانها. ومع ذلك، فلا لوم ولا تثريب على أولئك الكتّاب، فإنهم إنما ينهلون من مشارب عصرهم، ومعلومات زمنهم، فلا يطالبون بأكثر من ذلك، ولا نحاكمهم إلى معلومات عصرنا وزماننا. ولكن من الخطأ أن نعتبر ما ذكروه من تلك المعلومات الزائفة من ضمن الطب النبوي وأحاديث المصطفى التي لا يقول فيها إلاّ حقاً وصدقاً.

ولا بدّ في الجانب الآخر أيضاً أن نتحقّق من أن ما نسب إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قد قاله حقاً، وقد ثبت عنه ذلك كما يعرفه أصحاب علم الحديث في دراستهم للسند والمتن، ومقارنتهم لهذه الأحاديث بما صحّ من أحاديث غيرها وبما ورد في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إذن عملية الخلط هذه خاطئة ويجب أن نفرّق بين ما قاله الكتّاب والمؤلفون الذين تصدّوا للكتابة عن الطب النبوي ومعلومات زمنهم، وما بين ما صحّ عن النبيّ ﷺ، فأقوال هؤلاء الكتاب يجب أن تدرس في إطارها التاريخي ويستفاد منها في هذا الصدد فحسب، وهي لا شكّ مليئة بالأخطاء والأغلاط، أخطاء وأغلاط ناشئة عن معلومات عصرهم وثقافة بيئتهم. وأمّا أقواله صلّى الله عليه وآله وسلم التي صحّت عنه فهي الحق الصراح، فهو لا يقول ﷺ إلاّ حقاً في جد وفي هزل... ولا يُقرُّ على خطأ قطّ، وإنما ينزل الوحي بتصحيحه وتصويبه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾.

وقد استعرض المحقّق نشأة الطب وتاريخه عند الأمم القديمة، وهناك بعض الأخطاء وعدم الدقّة العلمية في هذا الموضوع.

ثم تحدّث المحقّق عن الطب الإسلامي حديثاً مجملاً جيّداً أوضح فيه الجوانب الهامة في حفظ الصحة وصحة المجتمع... وردّ فيه على ما ذكره ابن خلدون في المقدمة... ومن وافقه، في أن ما ورد من الطب عن النبي ﷺ ليس من الوحي في شيء، وهو إنما بُعث ﷺ ليُعلّمنا الشرائع لا ليعلّمنا الطب وأمور الدّنيا، وهو قد قال أنتم أعلم بشؤون دنياكم[1].

ثم تحدّث المحقّق عن الطب والمرض في القرآن الكريم، وهو منقول من كتاب ابن القيّم: الطب النبوي، ثم انتقل إلى الطب في الأحاديث النبوية ونبّه إلى ما ورد عنه ﷺ في باب الصحة والطب الوقائي الذي لم يذكره مصنّفوا الطب النبوي إلاّ قليلاً. وذكر أمثلة جيّدة على ذلك، وقد أحسن في هذا الباب، فجزاه الله خيراً.

ثم انتقل إلى خدمات علماء الإسلام وأثر هذه الخدمات على الحضارة الأوربية وخاصة في مجال الطب، وكان نقله في ذلك سريعاً وغير محقّق.

ثم تحدّث عن أشهر من كتب في الطب النبوي، وقد أحسن في ذلك

(1) قد سبق لنا الرد على ما قاله ابن خلدون في كتابنا: العدوى بين الطب وحديث المصطفى وكتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن، وكتاب هل هناك طب نبوي.

وأجاد، وإن كان قد كتب ذلك باختصار شديد. وعليه بعض الملاحظات اليسيرة، فهو مثلاً قد قال: إن الرسالة الذهبية مفقودة والواقع أنها موجودة بعشرات النسخ المخطوطة وقد طبعت عدة طبعات في العراق[١].

وذكر أن كتاب ابن السُّنِّيّ في الطب النبوي مفقود، وهو موجود مخطوطاً في مكتبات تركيا، وقد ذكر أن الموجود في مكتبات تركيا مختصر كتاب ابن السنّي (مكتبة الفاتح برقم ٣٥٨٥ باستانبول).

وذكر كتاب الطب النبوي لأبي جعفر المستغفري، وكان دقيقاً حين قال عنه: لم أقف عليه. ولم يذكر أنه موجود والكتاب موجود مخطوطاً في مكتبات تركيا (مكتبة كتبخانة سي برقم ٢٨١٤، وفيض الله أفندي برقم ١٣٢٢، وسمسون برقم ٦٨، وجامعة استانبول برقم ٢٨١٠) وغيرها من المكتبات.

واستخدم عبارة كشف الظنون: وجمع عبد الملك بن حبيب كتاب «الطب النبوي»، واكتفى بذلك. والكتاب موجود في المغرب وقد تمّ إخراجه وطبعه ضمن كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية لمحمد العربي الخطابي (دار الغرب الإسلامي ج١/ ٨٣ ـ ١١٠)[٢].

وذكر الطب النبوي لمحمد الصفتي الزيني، وكذلك ذكره الدكتور ناظم نسيمي في كتاب الطب النبوي والعلم الحديث. وقد وجدته في دار الكتب المصرية باسم محمد الصفتي الزينبي نسبة إلى السيدة زينب بنت عليّ كرم الله وجهه.

وذكر المصنف أن آخر من أفرد الطب النبويّ بالتأليف هو جلال الدين السيوطي، والواقع أن تلميذ السيوطي شمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن طولون ـ جدّه الأعلى أحمد بن طولون حاكم مصر ـ قد وضع كتاباً باسم «المنهل الرويّ في الطب النبوي» وقد نشر في حيدر أباد في الهند عام

---

(١) انظر كتاب الإمام علي الرضا ورسالته الذهبية للمؤلف نشرته دار المناهل، بيروت ١٩٩١.

(٢) قمت بشرحه وتحقيقه وقد نشرته بعنوان: الطب النبوي لعبد الملك بن حبيب الأندلسي، دار القلم، دمشق.

١٤٠٧هـ/١٩٨٧م. وقد ذكر المحقّق هذا الكتاب وجعله ضمن مؤلّفات السيوطي، والحقّ غير ذلك.

ثم ترجم المحقّق ترجمة جيدة للإمام السيوطي وهي كافية وشافية في هذا الصدد، وقد كانت من أهم المراجع التي رجعنا إليها بعد كتاب السيوطي «حسن المحاضرة»، و «النور السافر» للعيدروس، و«الأعلام» للزركلي في ترجمتنا للسيوطي، واستعرض أسماء كثير من كتب السيوطي كما ذكر ٢٩ مرجعاً من المراجع التي ترجمت للسيوطي، فكان بذلك معيناً لمن يريد البحث عن ترجمة السيوطي ومؤلّفاته بذكره هذه المراجع، وأغلبها هامّ.

ثم قام المحقّق بدراسة كتاب السيوطي وصحة النسبة إليه، وأنه مذكور في ثبت مؤلّفات السيوطي، وأن السيوطي ذكره في حسن المحاضرة باسم الطب النبوي، وقد ذكره صاحب كشف الظنون وصاحب عقود الجوهر وصاحب هدية العارفين، وهو مذكور في شتّى الفهارس. وأحصى المحقّق ثماني نسخ من كتاب السيوطي الآنف الذكر، وقد اطّلع على أربع منها. وذكر أن أسلوب السيوطي وطريقته واضحة في هذا المصنف، وعلى هذا فإن المصنّف «المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي» قد صحت نسبته إلى الإمام السيوطي.

وقد قسم السيوطي كتابه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقدمة بسيطة عن علم الطب وابتدائه وأهميّته والأحاديث الواردة في التداوي. وساق نقولاً عن القانون لابن سينا يبيّن فيها جسم الإنسان وأعضاءه وتكوينه، ثم نقل عن ابن طرخان، ثم نقولاً عن الموجز لابن النفيس في تدبير الهواء والسكن، والفصول، والحركات الرياضية، والاستفراغات؛ كالقيء والجماع والحجامة. وأورد في ذلك كله ما يناسبه من أحاديث نبوية.

القسم الثاني: المفردات الطبية، وهي الأدوية المفردة وفوائدها.

القسم الثالث: الأدوية المركبة، وذكر بعض الأمراض وأدويتها، يجمع في ذلك بين أقوال الأطباء والأحاديث النبوية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

نسخ كتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي:

ذكر المحقّق ثماني نسخ من كتاب الإمام السيوطي «المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي». وقد وقف على أربع نسخ منها، وهي:

١ ـ نسخة دار الكتب المصرية رقم ٣١٥٧ل طب في ٥٠ ورقة. ومع المختصر ـ أي مختصر كتاب المنهج السويّ ـ والمنهل الرويّ ـ ٦٩ ورقة مقاس ١٥ × ٢١سم، في كل ورقة ١٩ سطراً، وفي كل سطر ١٥ كلمة تقريباً. مكتوبة بخط نسخي واضح. وقد تم نسخها سنة ٩٦٧هـ، كتبها أبو اللّطف بن صارم الدين الشافعي الصيداوي (نسبة إلى صيدا في لبنان).

٢ ـ نسخة مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم ٩٤٨ في ٨٠ ورقة مقاس ٢٠ × ١٥سم، في كل ورقة ٢٠ سطراً، وفي كل سطر ٩ كلمات تقريباً. كتبها صدر الدين الأزهري الشافعي وفرغ من نسخها في يوم الجمعة مستهلّ شهر ربيع الأوّل سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة (٩٨٣هـ) بالقرافة بزاوية اليسع بجوار جامع محمود (بالقاهرة)، وهي النسخة الأولى في الأهمية لدى المحقّق، وقد رمز لها بـ (ع).

٣ ـ نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق برقم طب١ في ٩٩ ورقة مقاس ٨ × ١٤سم، في كل ورقة ٢٠ سطراً، وفي كل سطر ٧ ـ ٨ كلمات بخط نسخي جيد واضح كتبها أحمد بن عبد الحيّ بن علي الحسيني القدسي في أواسط شهر المحرم سنة ١٠٩٥هـ (وفي فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية ذكر الرقم ط.ن ١٦٨ رقم ٣١٢٧ طب١، وكذلك ذكرها ناظم نسيمي في كتابه الطب النبويّ والعلم الحديث).

٤ ـ نسخة دار الكتب المصرية برقم ٦١٦ طب خاص ورقم عام ٤٧١٥٣ في ١٤٨ ورقة مقاس ٨ × ١٥سم، في كل ورقة ١٧ سطراً، وفي كل سطر ٧ كلمات، بخط واضح ولكنها مليئة بالأخطاء وبها سقط في بعض العبارات، وتمّ نسخها يوم الجمعة بعد العصر في اليوم الثاني من ذي القعدة سنة ١٢٨٨هـ ولم يذكر الناسخ اسمه، وهي في ملك محمد نذير الحبشي.

هذه هي النسخ التي وقف عليها المحقّق ثم ذكر أربع نسخ أخرى، هي:

٥ - نسخة مكتبة الأحمدية بتونس.

٦ - نسخة مكتبة طلعت بتركيا.

٧ - نسخة مكتبة برلين بألمانيا.

٨ - نسخة مكتبة أكسفورد (قال عنها في لندن وهو خطأ لأن مكتبة أكسفورد في أكسفورد بإنجلترا).

وقد وجدتُ في فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا إعداد د. رمضان ششن، وإصدار مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي (سنة ١٩٨٤م) ذكر المخطوطات التالية الموجودة في:

١ - مكتبة خراجي أوغلي، رقم ١/١١١٨ في ٨١ ورقة مقاس ١٥,٢ × ٢١,٦سم (فهرس المكتبة رقم ٧٣٦٨)، كتبه فخر الدين أحمد بن صالح سنة ٩٨١هـ.

٢ - مكتبة جرّاح باشا برقم طب تاريخي ١٢٦ في ٦٥ ورقة مقاس ١٥,٥ × ٢١,٥سم، كتبه محمد بن يحيى النابلسي سنة ٩٩٣هـ بخط نسخ.

٣ - مكتبة متحف مولانا: رقم ٢٨١٤ في ٧٤ ورقة مقاس ١٥ × ٢٠,٨سم بخط نسخ تمَّ نسخها في القرن العاشر (لم يذكر التاريخ ولا الناسخ).

٤ - مكتبة ملي كتبخانة: رقم ٤٠٦ في ١١٤ ورقة بمقياس ١٢ × ١٩سم، بخط نسخ كتبه منصور العطّار سنة ١٠٣٦هـ.

٥ - مكتبة سمسون: رقم ٦٧٧ في ٤٠ ورقة بخط نسخ وبمقياس ١٣ × ٢٠سم، كتبت سنة ١٠٣٧ (غير مذكور اسم الناسخ).

٦ - مكتبة فيض الله أفندي رقم ١٣٢٩ في ٨١٠ ورقة مقاس ١٠,١ × ١٩,٧سم، بخط نسخ كتبه رمضان بن موسى سنة ١٠٦٨هـ.

٧ - مكتبة ملي كتبخانة: برقم ٢/٦١٣ ضمن مجموعة من صفحة رقم ٣١ب إلى ٧٦أ بخط تعليق، وبمقياس ١٤,٥ × ٣١، كتبه مصطفى سليمان الطبيب (لم يذكر سنة النسخ).

٨ - مكتبة لاله لي: رقم ١/٣٧١٩ ضمن مجموع من صفحة ١ إلى ٣٧ بمقياس ١١ × ١٨سم بخط تعليق (لم يذكر اسم الناسخ، ولا تاريخ النسخ).

٩ - مكتبة راشد أفندي: رقم ١/١٣٣٢ ضمن مجموع من ١ إلى ٤٠، بخط نسخ وبمقياس ٨,٨ × ١٥,٨سم.

١٠ - مكتبة جامعة استانبول، القسم العربي رقم ٣٨٤٨ في ٣٣ ورقة، بخط نسخ وبمقياس ١١,٦ × ٢٢سم. ولم يذكر هذا الفهرس أنه موجود في مكتبة طلعت، كما ذكر المحقّق.

وقد وجدت في فهارس المخطوطات نسخاً أخرى، هي:

١١ - نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق برقم طب وصيدلة ٥١١، وهي غير النسخة التي ذكرها المحقّق برقم ط/١، والتي وجدتها في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الطب والصيدلة) الذي وضعه د.سامي حمارنة (دمشق ١٩٦٩). وفيه المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي رقم ١٦٨ ط ن (الرقم القديم ٣١٢٧ طب١). وقد ذكر سامي حمارنة أن هذا الكتاب قد ترجم إلى الفرنسية. ترجمَهُ N.Berron سنة ١٨٦٠م، وترجمه إلى الإنجليزية C.Elgood سنة ١٩٦٢م. كما ذكر حمارنة أن كتاب السيوطي هذا طبع بالقاهرة سنة ١٨٧٠م، ثم سنة ١٨٨٧م.

١٢ - نسخة معهد المخطوطات العربية، صورة من مخطوط معهد وِلْكَمْ للطب والصيدلة (بلندن) برقم ٨٨/٢٠٧/٩٠ في ٧١ ورقة، في كل ورقة ٣٣ سطراً نسخ سنة ١٠٨١هـ، واسم الناسخ غير مذكور والورقة قبل الأخيرة مفقودة. وعليه تملكات عديدة منها واحد باسم محمود بن خير الله النقشبندي البغدادي سنة ١٢٥٣هـ، وآخر باسم حسين بن علي بن محمد الشهير بالحكيم زاده[١].

---

(١) أنظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة بقسم التراث العربي تصنيف هيا الدوسري ومراجعة د.سامي مكي العاني، قسم التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٨٤م، ص٢٢٥ رقم ٢٤٣.

وقد ذكرت المصنفة هيا الدوسري أن كتاب السيوطي هذا تُرجم إلى الفرنسية والإنجليزية، وأنه قد طُبع بالقاهرة سنة ١٨٧٠م، ثم سنة ١٨٨٧م.

وهذه المعلومات الهامّة قد فاتت المحقّق، وينبغي أن تضاف إلى كتابه القيّم.

١٠ـ ذكر الدكتور ناظم نسيمي في كتابه الطب النبوي والعلم والحديث نسخة أخرى في مكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٦٠٠ كتبت سنة ٩٨٣هـ، وقياس الصفحة ٢٠ × ١٥سم.

١١ـ نسخة في مكتبة ابن عباس بالطائف في ٤٢ ورقة قياس الصفحة ١٥ × ٢١سم الرقم العام ٢٥/٢٥، نسخها محمد بن علي الأبزاوي في ١٩ ذي الحجّة ١٠٠١هـ.

عمل المحقّق:

١ـ اعتمد المحقّق نسخة مكتبة الأوقاف العامة ببغداد رقم ٩٤٨ والتي رمز لها بحرف (ع)، وجعلها أصلاً لمقابلة الفروق لما لها من مزايا الجودة وعدم السقط، وإن كانت متأخّرة في النسخ عن نسخة دار الكتب المصرية رقم ٣١٥٧. وأثبتَ المحقّق المغايرات في هامش الصفحات وغيّرَ كتابة بعض الكلمات على قواعد الإملاء المعروفة اليوم، وصحّح بعض أخطاء الناسخ.

٢ـ رقّم الأحاديث والآثار الموجودة في الكتاب بأرقام متسلسلة وبدون فصل للآثار عن الأحاديث خوف الالتباس.

٣ـ ضبط الآيات القرآنية، وكتب أرقام الآيات وأسماء السُور.

٤ـ خرّج الأحاديث من مظانّها وقابلها على أصولها، بيّن درجة كل حديث مما كان في غير الصحيحين: البخاري ومسلم، وما كان في السنن فينقل كلام الحفّاظ على الحديث. والحديث الذي لم يجد فيه كلاماً من الحفاظ يدرس سنده على ما جاء في كتب أئمّة الجرح والتعديل، ويبيّن علّة الحديث إن وجدت.

٥ - يعزو الآثار إلى مخرجيها من الأئمة.

٦ - حقّق المتون وعلّق على بعض الأحاديث وما قيل عنها طبّياً، ورد الشبهات إن وجدت.

٧ - شرح العبارات الغامضة وفسّر الكلمات الغريبة في الأحاديث، والكلمات الطبّية واللغوية.

٨ - حقق نصوص الكتاب ومصادره التي نقل منها الإمام السيوطي، كما استعان بمراجع أخرى لم يذكرها الإمام السيوطي في مراجعه.

٩ - ترجم المحقق للمحدِّثين وترك المشهورين كأصحاب الكتب الستّة، وهم: (البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه)، والأئمة الاربعة وهم: (مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل) لاستفاضة شهرتهم، كما ترجم المحقق للأطباء المذكورين في كتاب السّيوطي باختصار.

١٠ - وضع مقدمة بيّن فيها أهمية الطب وتطوّره وترجم للمصنّف الإمام السيوطي ترجمة واسعة، ثم قدّم دراسة شاملة لكتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي.

١١ - وضع فهارس للآيات والأحاديث والموضوعات والكلمات الطبية.

١٢ - وضع قائمة المراجع التي اعتمد عليها المصنّف، وأخرى للّتي اعتمد عليها المحقّق.

مواضع ونصوص

دراسة متن كتاب السيوطي: «المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي»:

أوّله: (الحمد لله حمد الشاكرين وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له خير الغافرين، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله المؤتى علوم الأوّلين والآخرين، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا إلى الخيرات مبادرين).

(وبعد... فهذا كتاب جمعت فيه الأحاديث الواردة في الطبّ مرتّبة على الأبواب وأوردت فيه جميع ما ورد صحيحاً وحسناً وضعيفاً لينتفع به أُولوا الألباب)، وقد علّق المحقّق على ذلك وذكر أن السيوطي ترك بعض الأحاديث الصحيحة في الطب والصحة، ولم يبيّن قسم الضعيف.

ثم قال المصنف ـ السيوطي ـ: (وتركت كثيراً مما أورده المصنفون في هذا الفن، لاشتهاره بتفردِ وَضّاعٍ أو كذاب. وضممت إليه من الآثار الموقوفة والمقاطيع ما يُستجاد ويُستطاب، وعقّبت على كل حديث بكلمة شارحة لمقصده لتتمّ فائدة الطلاّب).

وقد ذكر المحقق في أكثر من موضع أن السيوطي لم يلتزم بشرطه، وأنه أورد بعض الأحاديث التي فيها وَضّاعٌ وكذابٌ.

وبدأ السيوطي كتابه بذكر قول الإمام الشافعي: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان، وقوله رضي الله عنه: ضيّعوا ثلث العلم ـ أي الطب ـ ووكلوه إلى اليهود والنصارى ا.هـ. وأن الشافعي كان ملمّاً بالعلوم الطبيّة حتى لا طبيباً بمصر طلب أن يدرس الطب على يديه، فقال الشافعي: إن تلاميذه من الفقهاء لا يتركونه للطب وتدريسه.

ثم ذكر السيوطي أن (الطب على نوعين: الطب القياسي وهو طب اليونان وهو المبني على نظريات العناصر الأربعة، والأخلاط الأربعة، والأمزجة الأربعة وما يتولّد عنها. والثاني: **طب التجارب**، وهو طب العرب والهنود ا.هـ. وأكثر ما وصفه النبيّ ﷺ إنما هو على مذهب العرب إلاّ ما خُصّ به من العلم النبوي من طريق الوحي، فإن ذلك يخرق كل ما تدركه الأطباء وتعرفه الحكماء، وكل ما فعله ﷺ أو قاله في أعلى درجات الصّواب، عصمه الله أن يقول إلاّ صدقاً وأن يفعل إلاّ حقاً). وهو رد على ما ذكره ابن خلدون ومن وافقه أن كلام النبيّ ﷺ في الطب والعاديات غير معصوم بل تَواقَحَ ابن خلدون وسمّاه من طبّ العجائز.

وهكذا تنبّه السيوطي رحمه الله إلى ما لم يتنبه له المحقّق من أن الطب في زمنه على ضربين:

١ ـ **الطب القياسي**: وهو طب اليونان وهو قابل للخطأ، وقد أثبت الطب الحديث خطأ نظرياته.

٢ ـ **طب التجارب**: وهو ما يعتمد عليه الطب الحديث، وأكثر ما وضعه النبيّ ﷺ كما يقول السيوطي هو من هذا القبيل. والنبيّ ﷺ في ذلك كله قد عصمه الله أن يقول إلاّ صدقاً، وهو في أعلى درجات الصّواب.

ثم بدأ السيوطي القسم الأول من كتابه، وهو ابتداء الطب وما ورد في التداوي.

وقد ذكر فيه السيوطي ما ورد من أحاديث في بدء الطب، وأن ذلك كان في عهد سليمان عليه السلام حيث كان الله يطلعه على منافع أنواع الشجر، وأغلب هذه الأحاديث كما ذكر المحقق إما موقوفة، وإمّا فيها نكارة وغرابة.

ثم أتى المصنف بالأحاديث الحاثّة على التداوي، وهي أحاديث صحيحة وحسنة في البخاري ومسلم وكتب الحديث الأخرى.

ثم انتقل السيوطي إلى ذكر الأركان الأربعة من أقوال وهب بن منبّه الحبر اليهودي الذي أسلم في زمن عمر رضي الله عنه، وقد نقل هذه الأقوال عن

التوراة حسب زعمه[1].

ثم نقل السيوطي كلام ابن سينا في «القانون» عن الأركان الأربعة والعناصر الأربعة والأمزجة الأربعة النظرية اليونانية في الطب، وقد أثبت الطب الحديث زيفها.

ثم انتقل السيوطي إلى ذكر الأعضاء، وبدأ الفصل بقوله ﷺ: **«من نبت لحمه من سحت، فالنار أولى به»**. ثم انتقل إلى ما ذكره القانون في تعريف الأعضاء، وهو تعريف غير صحيح. (قال ابن سينا في القانون: الأعضاء أجسام متولّدة من أول مزاج الأخلاط، كما أن الأخلاط: أجسام متولّدة من أول مزاج الأركان...) ثم استمرّ السيوطي في النقل عن ابن سينا وفيها الصحيح والسقيم، وكثير مما ذكره لم يعد يقبله الطب الحديث.

ثم جعل فصلاً بعنوان: «ذكر تكوين الأعضاء عن المني»، وبدأه السيوطي بحديث المصطفى ﷺ الوارد في المفاصل وأنها ٣٦٠ مفصلاً: **«خلق كل إنسان من بني آدم على ثلاثمائة وستين مفصلاً»**، أخرجه مسلم وأبو نعيم وأحمد في مسنده... وأن على الإنسان أن يتصدّق كل يوم عن كل مفصل صدقة، وأن من هذه الصدقة إماطة الأذى، ودفن النخامة في المسجد، وركعتا الضحى تقوم مقام ذلك كلّه.

ثم ذكر أنواع العظام نقلاً عن قانون ابن سينا ووظائفها والمفاصل وأنواعها وأغلبه كلام صحيح دقيق يوافقه الطب الحديث، ثم فصل في أنواع العظام. ثم انتقل إلى العصب وذكر ما ورد من أحاديث جاء فيها ذكر العصب أو العضل، مثل قوله ﷺ: **«الإزار إلى أنصاف الساقين والعضلة»**. ومنه استطرد السيوطي، ونقل كلام ابن سينا في العصب والعضل. والسيوطي في ذلك كله يبين كل الأمانة، فيعزي كل قول إلى صاحبه.

---

[1] عرف المسلمون في فترة مبكرة جداً النظريات اليونانية في الطب بعد أن نقلها إليهم وهب بن منبه وكعب الأحبار الحبرين الذين أسلما في عهد عمر رضي الله عنه، وذلك قبل أن يترجمها المترجمون من أمثال إسحاق بن حنين العبادي في زمن المأمون العباسي.

ثم انتقل السيوطي إلى ذكر العروق، وابتدأها بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [سورة ق، آية ١٦]، والأحاديث التي وردت في العروق وتلك التي كواها رسول الله ﷺ، فقد كوى سعد بن معاذ في أكحله مرتين ـ الأكحل عرق في وسط الذراع يكثر فصده وكيّه ـ. وحديث المصطفى ﷺ عن الأوداج: **«ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم، ألا ترى إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه»**. والأوداج هي العروق الموجودة **في** صفحة العنق (Jugular Veins)، ثم ذكر الأبهر وهو الشريان الأورطي.

ونقل قول الأطباء في العروق وأنها قسمان: ضوارب وتسمّى الشرايين (Arteries)، وغير ضوارب وهي ساكنة وتسمّى الأوردة (Veins)، وهو تقسيم صحيح. ثم ذكر حديث: **«ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألاَ وهي القلب»**، وتحدّث بعد ذلك على طريقة الأطباء في عهده عن الأعضاء الخادمة والأعضاء المخدومة. وعن القوى النفسانية والطبيعية والحيوانية، ينقل ذلك نقلاً أميناً عن قانون ابن سينا.

ثم ذكر الحواس، وبدأه بحديث أبي نعيم في الحلية: **«إن الله تعالىٰ جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنهما شحمتان ولولا ذلك لذابتا، وجعل المرارة في الأذنين حجاباً من الدواب»**... الحديث. وقال المحقّق: في إسناده من لم أجد لهم تراجم، وأخرج أحاديث قال عنها المحقّق: هي في الموضوعات عند ابن الجوزي.

وانتقل بعد ذلك إلى ذكر الأسباب الضرورية وهي تدبير السكن والهواء، وأخرج في ذلك حديث «اجتووا المدينة» وحديث: **«سافروا تصحوا»**، وأنه كان ﷺ يحب النظر إلى الخضرة والماء الجاري... وكراهية الوقوف أو النوم في الشمس، وكراهية الجلوس في الشمس، «فإنها تغيّر اللّون **وتقبّض** الجلد، وتبلي الثوب، وتبحث الداء الدفين». وقد أوضح الطب الحديث أنها تبحث الداء الدفين وهو السرطان. ولذا يكثر سرطان الجلد لدى المتعرّين في الشمس من المصطافين وغيرهم. وتكثر الأمراض الجلدية بصورة مزعجة لدى من يتعرّضون للشمس فترات طويلة وأبدانهم عارية... وقد أصدرت الكلية الملكية

للأطباء بالمملكة المتحدة كتابين في هذا الصدد[١] توضح فيهما آثار التعرض للشمس ومخاطرها الصحية.

وذكر أحاديث عن الثريا وفيها رواة، قال عنهم رجال الجرح والتعديل: إنهم ضعفاء. ثم شرح هذه الأحاديث بكلام الأطباء وكان جلّ نقله في ذلك عن ابن النفيس في الموجز ـ أي موجز القانون ـ.

ثم انتقل إلى تدبير المأكول والمشروب، وبدأه بقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا﴾، وذكر الأحاديث الواردة في المعدة والحديث المشهور: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه». والأمر بالعشاء ولو بكفّ من حَشَف[٢]. ثم انتقل إلى أنواع الطعام والرياحين وما ورد فيها من أحاديث، وفوائد كل نوع من أنواع الطعام، وكيف يجمع بين أنواع الطعام. ثم نقل شرحاً مختصراً عن موجز القانون لابن النفيس والموفق عبد اللطيف البغدادي وغيرهما.

ثم أتى بحديث الذباب وغمسه أو مقله في الطعام **«فإن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء»**، ولم يشرحه.

وانتقل بعد ذلك إلى تدبير الحركة والسكون وأهمية الرّياضة: **«أذيبوا طعامكم بذكر الله والصلاة، ولا تناموا عليه فتقسوا قلوبكم»**. وأمرُه ﷺ أبا هريرة أن يقوم فيصلّي عندما اشتكى وجع بطنه، وأمرُه **«بقيام اللّيل فإنه دأب الصالحين من قبلكم، ومطردة للداء عن الجسد»**. ومسابقة النبيّ ﷺ عائشة رضي الله عنها.

ونقل السيوطي ما ذكره ابن النفيس في الموجز في تدبير الحركة والسكون والرياضة، وما ذكره ابن القيّم في الطبّ النبوي «من زاد المعاد» عن ركوب الخيل ورمي النشاب والصراع والمسابقة على الأقدام، فرياضة للبدن كله ورمي قالعة للأمراض، وما ذكره الموفق البغدادي من أن الصلاة قد تبرئ من ألم الفؤاد والمعدة والأمعاء وكثير من الآلام، وعلّل ذلك بأنه أمر إلٰهي وأمر نفسي وأمر طبيعي.

ثم أورد السيوطي الأحاديث النبوية الشريفة في الغضب والهمّ والتحذير

---

(١) وهما: Links between exposure to ultra violet radiation and skin cancer (1987).
The sun on your skin (1987).

(٢) الحشف هو التمر الرديء.

من مخاطرهما على النفس والبدن، ثم ذكر آداب النوم وفوائدها.

وانتقل إلى تدبير الاستفراغ والاحتباس - البول والبراز -، واستخدام الحمام والقول في الجماع. ثم انتقل إلى تدبير فصول السنة والحجامة في الصيف **«إذا اشتدّ الحرّ فاستعينوا بالحجامة، لا يتبيّغ بأحدكم الدم فيقتله»**، والتبرّد بالماء في شدّة الحرّ والاغتسال به.

ثم انتقل إلى حمية المريض وتناول التلبينة - حساء من شعير - للمريض والناقِهِ، وقوله ﷺ: **«صوموا تصحوا»**، وقوله: **«سافروا تصحوا»**، وشرح ذلك نقلاً عن ابن القيّم وعبد اللّطيف البغدادي وابن النفيس في الموجز.

ثم انتقل إلى إعطاء المريض بعض ما يشتهيه من طعام، وانتقل بعده إلى الحجامة والفصد والإسهال والقيء، وبذلك أنهى القسم الأول من الكتاب.

وجعل السيوطي القسم الثاني من الكتاب لأحكام الأدوية المفردة والأغذية المفردة، وبدأ ذلك بحرف الألف: **الأترج**[(١)]، وفيه حديث البخاري ومسلم: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجّة طعمها طيّب وريحها طيب»**. ونقل فوائدها الطبيّة عن كتاب الموجز لابن النفيس والغافقي الطبيب. ثم انتقل إلى الإثمد Antimony، وهو يستخدم في الكحل وذكر الأحاديث التي وردت فيه وكلام الأطباء في فوائده. ثم انتقل إلى الآس - وهو نوع من الرياحين -، ثم انتقل إلى مختلف الأطعمة والأدوية: إذخر، أرز، بنفسج، بصل وثوم، وبلح وبسر ورطب وتمر، بطيخ... إلخ، حتى وصل إلى اللبن وما ورد فيه من أحاديث.

ثم جعل فصلاً في الأدوية المركّبة، وبدأه بكلام ابن القيّم في الطب النبوي أن النبيّ ﷺ لم يكن يستخدم هذه الأدوية المركبة التي تسمّى أقراباذين، ولا كان أصحابه رضي الله عنهم يستخدمونها، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه أو يكسر سورته.

---

(١) الأترج تسمية العامة الترنج وهو صحيح ذكره الجوهري في «الصحاح». وهو الليمون الحلو كبير الحجم، ذكر الفيروزابادي في القاموس المحيط أن «حامضه مسكن غلمة النساء ويجلو اللون والكلف، وقشرُهُ في الثياب يمنع السوس». ويتبع الحمضيات Citerous fruits وهو غني بفيتامين ج.

وأخيراً انتقل إلى القسم الثالث من الكتاب، وهو بعنوان: «القول في الأمراض» وقد تحدّث فيه عن مختلف الأمراض مبتدئاً بالصداع (وهو لا يعتبر مرضاً بل علامة من علامات المرض)، وذكر الأحاديث الواردة فيه وفي الحمّى والشقيقة، وذكر علاج الصداع نقلاً عن كتاب الموجز لابن النفيس وابن القيّم. ثم تحدّث عن الماليخوليا (Melancholy)، وهي النظرة السوداوية والوسواس وانتقل إلى العشق!! وأن دواءه الزواج والنسيان... إلخ، وهذه كلّها أعراض لأمراض أو لحالات نفسية. ثم انتقل إلى الفالج وهو الشلل، واللّقوة وهو شلل العصب السابع (شلل الوجه Facial Palsy, Bell's palsy)، وتحدّث بعده عن الرمد وضعف البصر ووجع الأسنان وأهمية استخدام السّواك والتخليل في الوقاية منها. والعُذرة (التهاب في الحلق، وربما كان التهاب اللّوزتين) وعلاجه بالقسط الهندي، وذات الجنب (الالتهاب الرئوي) وعلاجها بالقسط البحري والزيت، والاستسقاء وأنواعه وعلاجه بألبان الإبل وأبوالها. ووجع البطن وعلاج ذلك بالتمر (العجوة). وعلاج الإسهال بالعسل ومداواة القولنج (إلتهاب الأمعاء الغليظة) بالتكميد والسعوط. وعلاج عرق النسا بإلية شاة أعرابية، وعرق الكلية (المغص الكلوي) وعلاجه بالماء المحرّق والعسل، وعلاج الباه بأكل البيض واللّحم.

وانتقل بعد ذلك إلى مختلف الأعراض والأمراض مثل الحمّى والجراح والخرّاج والحكّة والبثور والجذام وأنواع الكسور، وأخيراً القول في الزينة وقطع الرائحة الكريهة والقول في لذع الهوام، وأنهى الكتاب بخاتمة توضح كثرة مرض النبيّ ﷺ أواخر حياته، وتعلّم عائشة الطب مما يوصف له من الأدوية، وجعل آخر كلمة: نصيحة للأصمعي يقول فيها: من كتم السلطان نصحه، والأطباء مرضه، والإخوان بثّه، فقد خان نفسه.

ثم ذكر الناسخ متى تمّ الفراغ من كتابه وهو يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الأوّل سنة ٩٨٣هـ بالقرافة (منطقة الدرّاسة قرب القلعة بالقاهرة) بزاوية اليسع بجوار جامع محمود (بسفح جبل المقطّم، ينسب لمحمود بن سالم بن مالك الطويل، وقد اندثر) على يد كاتبه أفقر العباد إلى الله تعالىٰ، صدر الدين الأزهري الشافعي غفر الله له ولوالديه ولمن دعا بالمغفرة له ولجميع المسلمين. آمين، والحمد لله ربّ العالمين.

ميزات كتاب «المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبوي»:

١ ـ جمع المصنّف الإمام السيوطي رحمه الله ثروة هائلة من الأحاديث النبويّة والآثار المتعلّقة بموضوع الطب، وهي ٦٦٧ حديثاً وأثراً. وهو أمر لم يتيسّر لمن تصدّى للتأليف قبله في هذا الموضوع. ويرجع ذلك إلى سعة علم الإمام السيوطي في علم الحديث، وإلى تأخّر زمنه. ولذا فقد جمع معظم ما كتبه سلفه، وأضاف إليه نتيجة سعة اطّلاعه في علم الحديث.

٢ ـ يذكر الإمام السيوطي من خرّج الحديث ويحذف السند وينتقل مباشرة إلى الصحابي راوي الحديث، ولهذه الطريقة ميزة الاختصار وعدم الحاجة لذكر السند لأنه موجود في مصادره ـ البخاري، مسلم، أصحاب السنن، والمسانيد... إلخ ـ التي يذكرها في أوّل الحديث، ومثاله الحديث التالي الذي رقّم له المحقق برقم ٤٩:

(أخرج البخاري ومسلم وابن السنّي وأبو نعيم عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألاَ وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألاَ وهي القلب»**).

وإذا لم يجد الإمام السيوطي في الباب الذي يتحدّث فيه حديثاً أورد أثراً من الآثار ومثاله رقم ٤٨٣: (أخرج ابن عساكر من طريق الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ثلاثة أشياء دواء للداء الذي لا دواء له، الذي أعيا الأطباء أن يداووه: العنب ولبن اللّقاح وقصب السكّر، ولولا قصب السكّر ما أقمتُ بمصر).

وطريقة السيوطي أن يحذف الإسناد ما عدا في الأثر الأوّل الذي ذكره عن الشافعي، فأورد سنده فيه إلى الإمام الشافعي. قال: أخبرتني أم هانئ بنت أبي الحسن الهوريني سماعاً عليها ـ وهي من شيوخه ـ، أخبرني أبو أحمد إمام المقام، أخبرني أبو الحسن بن الجميزي، أخبرني السلفي، أخبرني الثقفي، سمعت أبا عروة بن بالويه يقول: سمعت محمد بن يعقوب، سمعت الربيع يقول: سمعت الشافعي يقول: العلم علمان: علم الأديان: الفقه، وعلم الأبدان: الطب.

والثاني حديث المستغفري عن الكمأة، فأورده السيوطي بسنده إلى



المستغفري. وقد تعمّد السيوطي ذكر السند في هذين الموضعين لعدم وجودهما في كتب الحديث المشهورة، والأوّل ليس حديثاً بل أثراً منقولاً عن الشافعي، فأورد سنده متّصلاً إلى الشافعي وليوضح أن هذا القول من كلام الشافعي رحمه الله، وليس حديثاً كما توهّم بعض الناس. والثاني ذكر سنده من المستغفري إلى الإمام أحمد، ومنه إلى أبي هريرة رضي الله عنه.

والثالث الحديث رقم ٩٩: (المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم).

وذكر السيوطي سنده نقلاً عن البيهقي في شعب الإيمان، قال البيهقي: وقد روي في ذلك حديث مرفوع **بإسناد ضعيف** أخبرنا أبو إسحاق علي بن أحمد بن داود الرزاز ببغداد، حدثنا أبو بكر محمد بن عبد الله عن الشافعي، حدثنا عبد الله بن الحسن الحراني، حدثنا يحيى بن عبد الله، حدثنا إبراهيم بن جريج الرهاوي، عن زيد بن أبي أنيسة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ... ثم ساق الحديث.

ولم يتنبه المحقق الدكتور حسن مقبولي الأهدل إلى هذا الحديث الثالث، حيث ذكر أن السيوطي لم يذكر السند إلاّ في موضعين فحسب.

وقد تنبّه الدكتور ناظم نسيمي لهذا الحديث، وذكر السيوطيّ السندَ فيه، وذلك في «كتابه الطبّ النبوي والعلم الحديث»، ولكن الدكتور نسيمي يذكر السندين السابقين، واكتفى بقوله: ونادراً ما يذكر الحديث بسنده مباشرة، كالحديث الذي ذكره في بحث «تدبير المأكول والمشروب»: المعدة حوض البدن... الحديث.

وهذا الحديث موجود أيضاً في مجمع الزوائد، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه يحيى بن عبد الله البابلتي وهو ضعيف. وأخرجه أبو نعيم في الطبّ النبوي، وفيه يحيى بن عبد الله المذكور في الإسناد - أي ضعيف -. وفي «التقريب» لابن حجر (ص٣٧٧) قال عنه: ضعيف. وفي «الميزان» (ج١/٢٥) جاء في ترجمة إبراهيم بن جريج قال: كان طبيباً فجعل لهذا الحديث إسناداً. وإبراهيم بن جريج هذا متروك. قال المحقق الدكتور

حسن مقبولي الأهدل: **والحديث موضوع**، وهو من وضع إبراهيم بن جريج.

ولم ينصّ الإمام السيوطي على درجة الأحاديث من الصحة، ولم يعقّب عليها إلاّ في مواضع يسيرة محصورة أشار إليها المحقّق حسن المقبولي الأهدل.

وقد اكتفى الإمام السيوطي بذكر مصادره من كتب الحديث، ومن أراد معرفة رجال السند فعليه بالمصادر الأصلية. واعتبر أن ما قاله في المقدمة من أنه: لم يخرّج إلاّ حديثاً صحيحاً أو حسناً أو ضعيفاً، وأنه قد ترك الأحاديث الموضوعة، وأنه قد أضاف إليه من الآثار ما يستجاد ويستطاب... إلخ كافياً في هذا الصّدد.

وقد أحسن الدكتور حسن الأهدل عندما أوضح درجة هذه الأحاديث من الصحة، وقد نبّه على بعض الأحاديث والآثار المتروكة والموضوعة، وهي قليلة على أيّ حال.

٣ ـ رتّب المصنف السيوطي ـ رحمه الله ـ الكتاب ترتيباً جيّداً سار فيه على نهج كتاب موجز القانون لابن النفيس، وهو يذكر أحاديث الباب، ثم يسوق بعدها أقوال الأطباء شارحاً للأحاديث.

٤ ـ كان السيوطي أميناً ودقيقاً في نقله من كتب السنّة ـ ما عدا مواضع قليلة جداً نبّه إليها المحقّق الفاضل ـ، كما كان أميناً ودقيقاً في نقله من كتب الطب النبوي أو كتب الطب، فهو يعزو كل قول إلى صاحبه ومن أين استقاه. وقد استوعب السيوطي، في الاستفادة لموضوعه، كتب الحديث مثل الأمّهات الست والمسانيد والمعاجم الحديثية وكتب الغريب. كما رجع إلى كتاب القانون لابن سينا، والموجز لابن النفيس، ورسالة الموفق البغدادي ـ شرح أربعين حديثاً في الطب ـ، وكتاب الأحكام النبوية في الصناعة الطبية لابن طرخان، وكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيّم الذي أُفْرِدَ منه كتاب الطب النبوي في العصور المتأخّرة، وغيرها من الكتب.

٥ ـ ترك المصنّف لنا ثروة كاملة من الأحاديث والآثار في موضوع الطب وشروحها باختصار من كلام الأطبّاء.

بعض الهَنات والمآخذ:

١ - لم يكن السيوطي ناقداً ولم تظهر شخصيته في هذا الكتاب بصورة واضحة، فهو جامع للأحاديث مرتّب لها ترتيباً حسناً. وأمّا الشرح فينقله باختصار وأمانة ودقّة من كتب من سبقه من الأطباء، أو ممّن كتبوا في الطبّ النبوي.

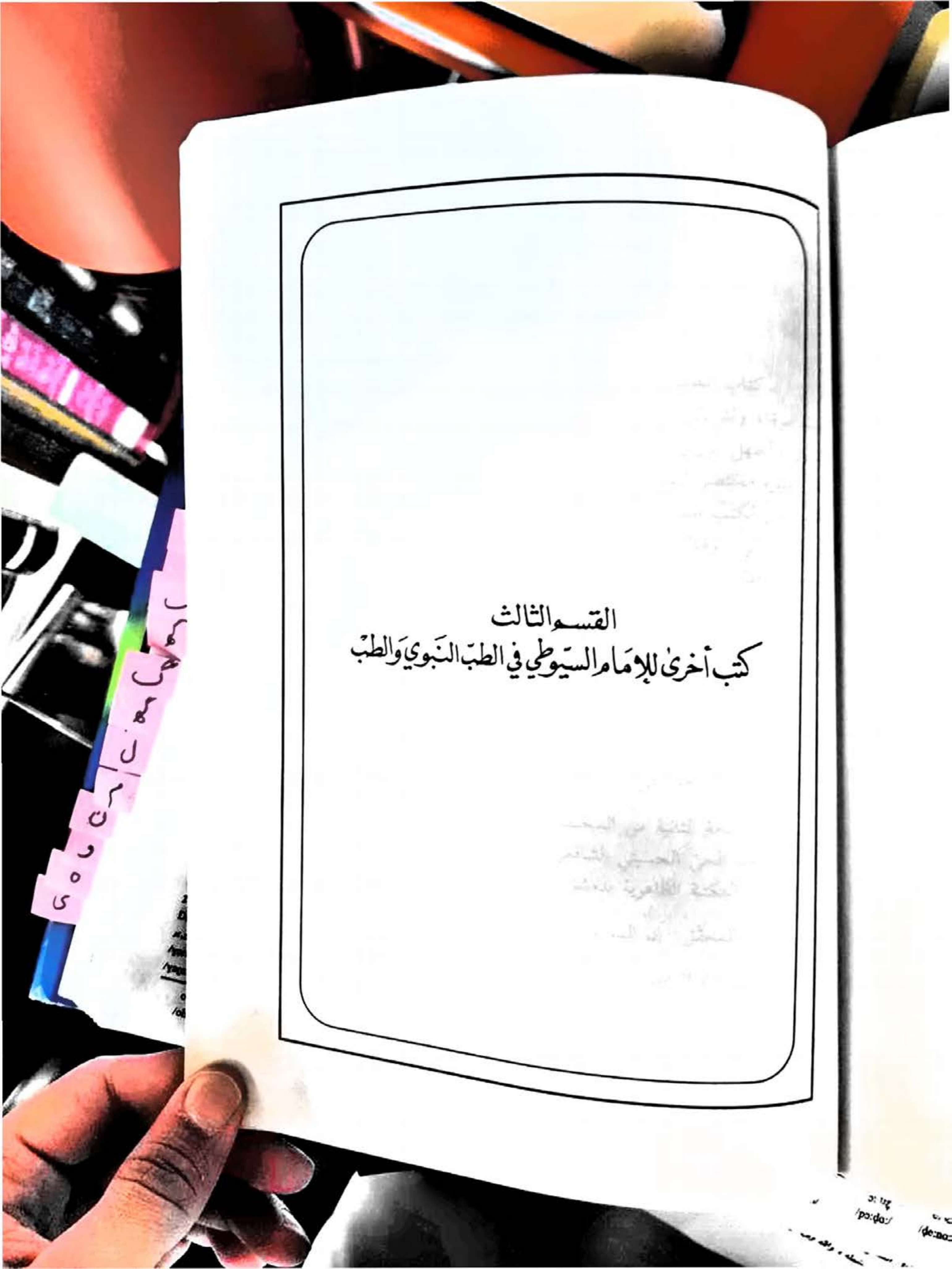
وعذر السيوطي في ذلك واضح جليّ، فهو لم يكن طبيباً ولم يمارس الطبّ، وإن كان قد درسه على يد محمد بن إبراهيم الدواني الذي قدم إلى القاهرة من الروم (الأناضول وهي في تركيا اليوم).

ثم إن السيوطي قد ذكر بنفسه في «حُسن المحاضرة» أنه غير متمكّن من الطب، بل جعله آخر قائمة العلوم التي درسها وبحثها، كما قد مرَّ معنا.

لذا كان من الأمانة والدقّة بمكان أن لا يتعرّض في الطب لآرائه الشخصية، بل يكتفي بالنقل عن أساطين الأطباء في عصره والعصور التي سبقته.

٢ - لم يبيّن السيوطي درجة هذه الأحاديث من الصحة، ولكنّه اكتفى بتخريجها وأين توجد واعتبر الإشارة إلى مصادرها كافياً لمن أراد التحقيق والتدقيق. وقد قام المحقّق جزاه الله خيراً بهذه المهمّة، وبذلك اكتمل الكتاب من هذه الناحية.

٣ - يذكر المحقّق الدكتور حسن الأهدل أن السيوطي لم يلتزم بشرطه بعدم ذكر أيّ حديث موضوع أو متروك، فقد ذكر بعض الأحاديث الموضوعة والمتروكة التي نبّهَ إليها المحقق جزاه الله خيراً، وهي على أيّة حال قليلة جداً.



القسم الثالث
كتب أخرى للإمام السيوطي في الطب النبوي والطب

القسم الثالث

١ ـ **كتاب الطب النبوي**: وهو الذي ذكره الإمام السيوطي في «حُسن المحاضرة»، وقد ذكر الدكتور حسن مقبولي الأهدل في مقدمته لكتاب «النهج السويّ والمنهل الرويّ» أنه غير هذا الكتاب وعدّه ضمن مؤلّفاته. وفي موضع آخر اعتبره مختصر المنهج السويّ، وقال: ويوجد من هذا المختصر نسخة خطيّة بدار الكتب المصرية، وأخرى في مكتبة الأزهر[1]. ثم ذكر في موضع آخر[2] ما يلي: وهنا أحب أن أنبّه إلى أن مختصر هذا الكتاب يوجد له أيضاً نسختان خطيّتان، الأولى ملحقة بنسخة دار الكتب الأولى، وناسخهما واحد بتاريخ واحد، والأخرى في مكتبة الأزهر بخط ينسب إلى المؤلف وهو منحول عليه، وبهامشها، بلغ مطالعة هذه النسخة للعبد الفقير إلى الله سبحانه وتعالىٰ أحمد بن عبد الحيّ بن علي الحسيني القدسي الشافعي سنة ١٠٩٢هـ.

ويقصد الدكتور الأهدل أن ناسخ المختصر الموجود في دار الكتب المصريّة هو أبو اللّطف بن صارم الدين الشافعي الصيداوي، وهو نفسه ناسخ المنهج السويّ الموجود في دار الكتب برقم ٣١٥٧ل طبّ.

وأن النسخة الثانية من المختصر والموجودة في مكتبة الأزهر قد طالعها أحمد بن عبد الحيّ الحسيني الشافعي، وهو نفسه الذي نسخ «المنهج السويّ» الموجود في المكتبة الظاهرية بدمشق.

ويقول المحقّق: إن المختصر قد طبع أخيراً في القاهرة في مكتبة القرآن.

٢ ـ **ما رواه الواعون في أخبار الطاعون**: وهو كتاب يتحدّث عن أخبار

---

(١) مقدمة كتاب المنهج السوي والمنهل الروي ص٥٦.

(٢) ص٦٤.

الطاعون وعلاماته، وما ورد فيه من أحاديث نبويّة شريفة وقد اختصره من كتاب الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني: «بذل الماعون في فضل الطاعون»، وحذف منه الأسانيد وأضاف إليه الطواعين التي حدثت بعد زمن ابن حجر، وقد تقدم الحديث عنه تفصيلاً في الجزء الأول من هذا الكتاب.

٣ ـ رسالة في علم التشريح (وهي قسم علم التشريح من نقاية العلوم): ذكر ذلك فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا إعداد رمضان ششن، وذكره تحت بند مصنّفات الإمام السيوطي، وقال: إنه موجود في مكتبة رئيس الكتاب برقم ١١٤٩/٧٣ في مجموع من ص٤١١ إلى٤١٤، بخط نسخ وبمقياس ١٦,٢ × ٣٧سم، كتبت في القرن الحادي عشر.

وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ص١٩٧٠، بقوله: «**النقاية**: مختصر في أربعة عشر علماً لجلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، ثم شرحه وسمّاه: إتمام الدراية. فرغ من تأليفه ثالث ربيع الأوّل سنة ٨٧٣هـ».

وقد نظم الشيخ عبد الرؤوف الزمزمي المكي فن التفسير، ونظمه كاملاً شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد الحق السنباطي المصري المتوفّى سنة ٩٩٠هـ، وزاد عليه أربعة علوم فصار ثمانية عشر علماً وسمّاه «روضة الفهوم بنقاية العلوم»، ثم شرحه وسمّاه «فتح الحيّ القيّوم بشروح روضة الفهوم». والزيادات التي أضافها السنباطي هي علوم الحساب والعروض والقوافي والمنطق. وقد فرغ من بياض الشرح في رجب سنة ٩٨٢هـ. ونظمه السنباطي في ١٥٠٠ بيت تقريباً.

وقد ذكره أيضاً بروكلمان في تاريخ الأدب العربي.

٤ ـ شرح كليات الطب والتشريح من نقاية العلوم لشرف الدين بن أبي الرجاء الحلبي الحنفي القاضي بأبيار، وهو شرح لما ورد في كتاب الطب من نقاية العلوم للسيوطي المتقدّم ذكره.

موجود في مكتبة يكي جامع برقم ١١٧٨/٨ من صفحة ٣٥٣أ إلى ٤١٤ب، بخط نسخ وبمقياس ٧,٧ × ١٣,٩سم، سوّده الشارح بخط يده في القرن الحادي عشر الهجري.

٥ ـ **الرحمة في الطب والحكمة**: منسوب إلى الإمام السيوطي، وأنكر ذلك الدكتور حسن المقبولي الأهدل في مقدّمته لكتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ أنه للسيوطي.

والكتاب مطبوع طبعات عديدة في القاهرة، منها طبعة مكتبة صبيح بالقاهرة.

وقد ذكر فهرس مخطوطات الطبّ الإسلامي في مكتبات تركيا هذا الكتاب تحت رقم ٢٣٩: السيوطي جلال الدين، عبد الرحمٰن بن أبي بكر ص٢٥٦، وأنه موجود في مكتبة يوسف آغا مترجماً إلى اللّغة التركية، ترجمة إبراهيم عجزي قنوي، ورقم ١/١٠٤٣٩ في ٦١ ورقة مقاس ١١ × ١٦سم، بخط المترجم كما ذكره الفهرس تحت رقم ٢٦٧: الصبيري: مهدي بن علي بن إبراهيم اليمني المهمجي وهو موجود في العديد من مكتبات تركيا في أكثر من عشرين مكتبة ذكر منها ٢٥ نسخة بكامل أوصافها... وذكره فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء إعداد محمد سعيد المليح وأحمد محمد عيسوي، إصدار منشأة المعارف، الإسكندرية برقم طب١٠ وطب١١، ونسبه إلى مهدي بن علي الصبيري اليمني المهمجي. وذكره سامي حمارنة في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ونسبه للسيوطي ص٥١٢.

وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ص٨٣٦، وجاء فيه: «الرحمة في الطبّ والحكمة» للشيخ مهدي بن علي بن إبراهيم الصبيري اليمني المهمجي المقري المتوفى سنة ٨١٥هـ، وهو مختصر لطيف مفيد ذكره ابن الجزري في «طبقات القرّاء» وهو على خمسة أبواب، الأول: في علم الطبيعة، الثاني: في طبائع الأغذية، الثالث: فيما يصلح للبدن في حال الصحة، الرابع: في علاج الأمراض الخاصة، الخامس: في علاج الأمراض العامّة.

ويبدو من هذه المراجع ومن غيرها ومن أسلوب الكتاب أن كتاب الرّحمة في الطب والحكمة منحول للسيوطي، وهو في الواقع للشيخ مهدي بن علي الصبيري اليمني المتوفى سنة ٨١٥هـ، والسابق على عصر السيوطي بنحو قرن من الزمان (السيوطي توفي سنة ٩١١هـ).

وقد جاء في فهرس المخطوطات الطبية المصوّرة، بقسم التراث العربي،

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، تصنيف هيا الدوسري تحت رقم ٩٠: الرحمة في الطب والحكمة، المؤلف: محمد مهدي بن علي بن إبراهيم الصبيري اليمني.

أوّله: الحمد لله الذي اخترع جميع الموجودات وأنهى إلى الوجود الكائنات... وبعد هذا كتاب مختصر صنعته في علم الطب وهذّبت أعراضه وقرّبت أغراضه، وجعلته جامعاً في الاختصار ليروق بإيجازه القلوب والأبصار.

وآخره: وإن كانت العلّة عظيمة مزمنة مثل الجذام، فليعاود المسهل كل أسبوع مرة أو في الشهر مرتين على قدر قوّة الشخص وضعفه، فإنه نافع جيّد مجرّب، والله أعلم وأحكم. فهذا ما أوردنا إليه قصدنا في كتابنا هذا الموسوم بكتاب الرحمة في الطب والحكمة، فأسأل الله تعالىٰ أن ينفع من كتبه أو قرأه أو حفظه أو نظر فيه أو عمل في شيء منه ولجميع المسلمين، فإنه حسبنا ونعم اللّهُ الوكيل، والحمد لله ربّ العالمين.

والكتاب المطبوع والمنسوب إلى الإمام السيوطي، أوّله: الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات وأظهر الموجودات الكائنات... أمّا بعد، فهذا كتاب مختصر وضعته في علم الطب وهذّبت أعراضه، وجعلته جامعاً في حال الاختصار ليروق بإيجازه القلوب والأبصار.

ومن الواضح أن أوّل المخطوط وأوّل المطبوع واحد مع اختلاف طفيف. أمّا آخر الكتاب فمختلف تماماً. وآخر المطبوع: صفة معجون البرون ينفع من أوجاع الكبد والطحال والمعدة والرياح المتولّد في البطن.

ويحتاج الأمر إلى مزيد تحقيق لأن القدماء قد يكتبون نفس العنوان ويكون كل كتاب مستقلاً عن الآخر، وإن كان يبدو أن الكتاب المنسوب إلى الإمام السيوطي ليس له، وإنما هو كتاب الصبيري اليمني، والله أعلم.

وكتاب الرحمة في الطب والحكمة منسوب لعدد من المؤلّفين موجود منه نسخ عدّة في دار الكتب المصريّة، فقد جاء في قائمة بالمخطوطات الطبية، إعداد أبي نهلة أحمد بن عبد المجيد ونشرتها مجلة المورد (المجلد٩، العدد٣، خريف ١٩٨٠م)، ما يلي:

أ- الرحمة في الطب والحكمة: تأليف أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرلسي الفاسي الشهير بزروق شهاب الدين، أبي الفضل (٨٤٦ ـ ٨٩٩هـ)، ٧١ ورقة كتبت النسخة سنة ١٢٤٢هـ، موجود في طب طلعت رقم ٤٨٦.

ب- الرحمة في الطب والحكمة: تأليف القليوبي، في ٩٩ ورقة برقم ل٢١١٠٥.

ج- الرحمة في الطب والحكمة: تأليف عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين (٨٤٩ ـ ٩١١هـ) في ٣٧٥ ورقة، كتب سنة ١٢٧٧هـ، موجود برقم طب ٦٧٩.

د- الرحمة في الطبّ والحكمة: تأليف عبد العزيز بن علي بن داود الهواري المغربي المتوفى سنة ٧٤٥هـ، برقم الحسيني ٢٠٣ في ٣٧ ورقة، نُسِخَ سنة ١٢٦٢هـ.

د- الرحمة في الطب والحكمة: تأليف مهدي بن علي بن إبراهيم الصبيري اليمني المهمجي المتوفى سنة ٨١٥هـ، موجود منه سبع نسخ بالأرقام التالية: طب٥٠ و٥١ و١٤٢٨، وطب تيمور ١١و ل ٥٠٦١، وطب خليل أغا٦١، ونسخة أخرى لم يعلم لها مؤلّف برقم طب تيمور ٣٤٥.

٦ ـ **مقامات السيوطي الأدبية والطبية**: جمعها وحققها وعلّق عليها محمد إبراهيم سليم ونشرتها مكتبة الساعي، الرياض (كتبت المقدمة ١٤٠٩/١٩٨٨ ولم يذكر سنة النشر)، وهي في الواقع مقالات للسيوطي. وهذه المقامات أو المقالات قد نشرت في استانبول وطبعت عام ١٢٩٨هـ، كما طبعت ست مقامات منها في استانبول عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، وهي موجودة ضمن مجموعة بدار الكتب الوطنية بتونس برقم ١٨٠٨٢.

وهذه المقامات هي:

المقامة الوردية أو مقامة الرّياحين: أجرى فيها السيوطي حواراً بين الورد والنرجس، والياسمين، والبان، والنسرين، والنيلوفر، والآس والريحان. وذكر فوائد كل واحدة منها، فيقول السيوطي عن **فوائد الورد الطبية**: والعادل في المزاج، والصالح في العلاج. أسَكِّنُ حرارة الصفراء، وأقوّي الباطن من الأعضاء، وأطيّب رائحة البدن، ومن شمّ مائي وبه غشي (فقدان الوعي)، أو

صراع حار (صرع) سكن. وأقوّي المعدَ (أي المعدة والجهاز الهضمي)، وأفتح من الكبد السداد، وأُبَرِّدُ أنواع اللهب الكائنة في الرأس، وربما أستخرجُها منه بالعطاس، وأنبتُ اللّحم في القروح العميقة، وأقطعُ الثآليل كلها إذا استعملت أزراري سحيقة (الزِّر هو برعم النبات، وقوله سحيقة أي مسحوقة)، وأنفع الأحشاء وأقوي الأعضاء أنا ومائي ودهني كيف شاء. وأنفع من القلاع (مرض يصيب الفم والحلق بنقاط بيض وسببه في الغالب فطر المبيّضة كانديدا) والقروح، وأنا بعطريّتي ملائم لجوهر الروح، وشمّي نافع من البخار، مُسكِّن للصداع الحار، وبزري نافعٌ للثة الفم، وأقماعي (القمع هو الأصل الأخضر الذي يبقى على الغصن بعد ذهاب الزهرة Calyx) تنفع الإسهال ونفث الدم. ومائي يسكّن عن المعدة حرّاً، وينفع من التهاب المِرّةِ الصفراء، وشرابي يطلق الطبيعة القويّة، وينفع من الحميّات الصفراوية. وإذا شرب مائي بالسكر الطُبرزد (السكر الأبيض الصلب وهو لفظ فارسي) قطع العطش من المادة، ونفع أصحاب الحمى الحادّة. وإذا ضُمّدت العين بورقي الطري نفع من انصباب المواد، ومطبوخي طريّاً ويابساً ينفع من الرمد بالضماد. ومطبوخ يابسي صالح لِغلظِ الجفون، ومسحوقه إذا ذرّ في فراش المجدور (المصاب بالجدري)، والمحصوب (المصاب بالحصبة) نفع من العفون. ومَن تجرّعَ من مائي يسيراً نفعه من الغشي والخفقان كثيراً. ودُهني شديد النفع للخُرّاجات، وفيه مآرب كثيرة لذوي الحاجات.

ويمضي السيوطي في هذه الطريقة الطريفة يعدّد فوائد الورد، وأنه ذكر في القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [سورة الرحمٰن: ٣٧].

ويتحدّث عن فوائده الاجتماعية... إلخ، ويأتي بالشواهد من الأشعار والآثار.

ويستمرّ السيوطي على هذا المنوال، فيقوم النرجس ويتصدّى للورد ويذكر عيوب الورد وأوّلها الحمرة، ويستدلّ على ذلك بحديث: «إن الشيطان يحب الحمرة، فإيّاكم والحُمرة وكل ثوب ذي شهرة»[١]. ثم يذكر النرجس فوائده

---

(١) رواه الحاكم في كتاب الكنى وقال عنه ابن حجر في الإصابة: وهو ضعيف وذكر بعضهم مثل الجوزجاني أنه موضوع.

العامة وفوائده الطبيّة، ومن تلك الفوائد قوله: أنفع غاية النفع من داء الثعلب والصرع، وقد روي في حديث رواية غير مُقلّ ولا مفلس: «شمّوا النرجس، فإن في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلاّ شم النرجس». وفي أصلي قوة تُلحم الجراحات العظيمة، وتنفع ذكر العينين وتجيد تقويمه. وشمّي ينفع من وجع الرأس والزكام البارد، وفيّ تحليل قويّ لمن هو له ناصد. ودهني نافع لأوجاع العصب والأرحام، وأوجاع المثانة والأذن والصُلب من الأورام.

ثم قام الياسمين وتحدّث عن فضائله وفوائده وبعده البان، ثم النسرين والنيلوفر والآس والريحان... كلّهم على هذا المنوال الفذّ العجيب يأتي فيه بالأدب والشعر والطب والأحاديث، ويجمعها بطريقة لبقة ذكية في أسلوب مناظرة وحوار.

وجعل المقامة (أو المقالة) الثانية في أنواع الطيب وسمّاها المقامة المسكية، وسلك فيها مسلك المقامة الوردية واستعمل أسلوب الحوار والمناظرة في تبيين خصائص كل نوع من أنواع الطّيب وفوائده الطبية وما ورد فيه من أحاديث نبويّة وآثار أدبية وبلاغية... ولا ينسى في ذلك ما ورد في الكتاب العزيز من آيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر نوع من أنواع الطّيب. ثم ذكر المنافع الطبية للمسك وأنه: ينفع من الرياح الغليظة المتولّدة في الأمعاء ويقوّي القلب ويشجّع أصحاب المِرّة السوداء، وفيه من التوحّش تفريح، ومن السدد تفتيح، ويقوّي الأعضاء الظاهرة وضعاً، والباطنة شرباً، وناهيك بذلك نفعاً... ويعين على الباه، وينفع من بارد الصداع، وإذا طلي به مع دهن الخيري رأس الإحليل أعان على سرعة الإنزال وكثرة الجماع... ويقوّي الدماغ وينفع من علله الباردة، ويبطل عمل السموم ونهش الأفاعي، فيا لها من فائدة ا.هـ. ثم ذكر العنبر وما ورد فيه من أحاديث وما قيل فيه ومنافعه الطبيّة، ومنها: أنه يفيد القلب والحواس والدماغ قوّة. وينفع شمّهُ من أمراض البلغم الغليظ والفالج واللّقوة (شلل عصب الوجه Facial Paralysis). وطلاؤه من الأوجاع الباردة في المعد (أي المعدة)، ومن الرياح الغليظة العارضة في المعي (الأمعاء)، والمفاصل والدماغ من السدد. وينفع من الشقيقة، والنزلات الباردة، والصداع الكائن عن الأخلاط بخوراً (أي يستخدم على هيئة بخور). ومن

جميع أنواع العصب والخدر إذا حُلَّ في دهن البان، ودهن به فقار الظهر كثيراً. ويقوّي فم المعدة إذا غمست فيه قطنة ووضع عليها يسيراً (من الخارج).

ثم تحدّث عن الزعفران وما ورد فيه من أحاديث وآثار ومنع استخدامه للرجال، (أي الثياب المصبوغة بالزعفران) أمّا استخدامه في إصلاح الطعام في الأدوية فمباح بشرط أن يكون المقدار المستخدم قليلاً لا يؤثر على الإدراك، لأن الزعفران إذا زاد كان له مثل تأثير المخدرات. ثم ذكر من فوائده الطبية أنه يحسّن اللّون ويكسبه نضارة، ويصلح العفونة، ويقوّي الأحشاء، ويهيّج الباه، ويقوّي الأعضاء، ويجلو البصر، ويمنع النوازل إليه، ويحلّل الأورام، وينفع الطحال وأوجاع المقعدة والأرحام. ويسكّن الحُمرة، ويُدِرُّ البول، ويهضم الطعام. وله خاصية عجيبة شديدة في تقوية القلب وجوهر الروح. وفيه بسط وتفريح إذا زاد لا يحتمل، بحيث إنه إذا شرب منه ثلاثة مثاقيل قتل[1].

ثم تحدث عن الزباد وأنه لم يرد فيه ذكر في القرآن ولا في الحديث، وأن من الفقهاء من قرّر نجاسة الزباد!! وذكر من منافعه الطبية أنه إذا شمّه المزكوم شفي من الزكام. وإذا ضُمِّخَ به الدماميل خفت الآلام. وأنه يسهل ولادة المرأة المتعسّرة إذا سقيت منه المرأة مقدار درهم[2] مع مثله من الزعفران في مرقة دجاجة سمينة.

وجعل المقامة الثالثة للفواكه والمقارنة بينها وسمّاها المقامة التفاحيّة، وبدأ بالرمّان وما جاء فيه من القرآن والحديث والآثار، ومنها ما رواه البيهقي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «**كلوا الرمان بشحمه، فإنه دباغ المعدة**». ثم ذكر فوائده الطبية وأنه يدبغ المعدة ويحدر منها الرطوبات العفنة وينفع من حميّات الغبِّ المتطاولة وألمها، ومن الجرب والحكّة والخفقان وأنه

---

(١) هذه ملحوظة ذكية من الإمام السيوطي فالزعفران بكمية كبيرة يفقد العقل ويخدّر وقد أدخلته كتب علم العقاقير والمخدرات ضمن المواد المخدرة إذا استعملت بكميات كبيرة قد تقتل إذا زادت الجرعة عن ثلاثة مثاقيل كما ذكر السيوطي. والمثقال وحدة وزن تساوي ٤,٢٥ جرام. وهو أيضاً وزن الدينار من الذهب في العهد الأموي.

(٢) الدرهم وحدة وزن تساوي ٣,٤ جراماً. كما أن الدرهم عملة فضيّة بدأت في اليونان وانتشر اسم الدرهم عند العرب. كما انتشر الدينار الذي كان من الذهب.

يخصب الأبدان ويقوّي الصدر ويجلو الفؤاد، وأنه صالح للمحرورين دافع للأذى، وأنه ينعظ لما يحدثه من قليل الرياح (الإنعاظ تحرّك الشهوة والانتصاب).

ويستمرّ على هذا المنوال العجيب في ذكر فوائده الطبية والغذائية، وما قاله الشعراء فيه.

ثم ينتقل إلى الأترج وما ورد فيه من أحاديث في الحديث الصحيح قوله ﷺ: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترُجّة طعمها طيب وريحها طيب»**، وتسميه العامة التُرنج، وهو يشبه فاكهة الجريب فروت. وذكر فوائده وخواصّه، وأنه يقوّي القلب وينفع الماليخوليا المتولّدة من اختراق الصفراء. وينفع شرباً وطلاء من لسعة العقربان، واكتحالاً من الرمد واليرقان، وطلاء من القوباء والكلف ويجلو الألوان... ورائحته تصلح فساد الهواء والوباء وبزره يقوّي اللثة ويحلّل الأورام وورقه مقوٍّ للمعدة والأحشاء، هاضم من الأكل ما شاء....

ثم ذكر السفرجل وما ورد فيه من أحاديث نبوية، ثم ذكر خواصّه ومنافعه. وأنه ينفع من الدوسنتاريا ويحبس النزف والعرق وعصارته نافعة من الرّبو وانتصاب النَّفَس، وإذا قُطرت في الإحليل نفعت من حُرقة البول الذي انحبس... إلخ.

ثم ينتقل إلى التفاح ولم يرد فيه حديث أو قرآن، وذكر منافعه وخواصّه وأنه يقوّي الدماغ وينفع من قلّة الشهوة والدود والدوسنطاريا، وأنه يصلح للغشي والقيء الكائنين من المِرّة الصفراء.

ثم انتقل إلى الكمثرى التي لم يرد فيها قرآن ولا حديث نبويّ، وذكر خصائصه وفوائده وأنه يقوّي القلب والمعدة من الاعتلال ويقطع العطش والقيء والإسهال. والحامض من الكمثرى دابغ للمعدة، زائد في الشدّة، مُشَهٍّ للأكل مُدِرٌّ للبول.

وتحدّث بعد ذلك عن النبق وما ورد فيه من قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾، وما ورد من حديث عن سدرة المنتهى. ثم ذكر خواصه ومنافعه وأنه: نافع للمعدة ويسهل المرّة الصفراء. وينفع من الإسهال الذريع، وينفع من قروح الأمعاء والنزف.

وانتقل بعد ذلك إلى الخوخ وخواصه ومنافعه، وأنه: ينفع الأبدان اليابسة الحارة، وأنه جيّد للمعدة الحارّة، يقطع اللهب، والعطش، ويشهّي الطعام، ويزيد في الباه والاغتلام، ويطفئ الحرارة المطلقة، وينفع المحموم وقت صعود الحمّى الحارّة، إذا كانت غِبًّا خالصة أو محرقة. وورقه إذا دُقّ وعُصِرَ وشُرِبَ مرّاتٍ متواليات أسهل حبّ القرع (نوع من الديدان يصيب الأطفال هي (Hemonolpis) والحبات. وإذا ضُمِّدَ به السرّة قتل ما في البطن من الديدان. وإذا دُلِكَ به بعد الطلاء بالنورة طيَّبَ الأبدان، ودهنه ينفع من الشقيقة وأوجاع الآذان.

وانتقل الإمام السيوطي بعد ذلك إلى **المقامة الزُمُرّدية**، وهي في سبعة أنواع من الخضروات، وهي: القرع والهندباء والخسّ والرِّجلة والبامية والملوخية والخبّازي. وذكر ما جاء من آيات أو أحاديث في هذه الخضار وفوائدها الطبية ومنافعها الغذائية.

ثم أفرد المكسّرات بمقامة سماها المقامة الفستقية، وهي في الفستق واللّوز والجوز والبندق، والشاهبلوط (أبو فروة)، وحبّ الزلم (حب العزيز)، وحبّ الصنوبر، وتكلّم عن خصائص ومنافع كل واحدة منها وما قيل فيها من أشعار.

وتحدّث بعد ذلك عن الياقوت واللؤلؤ والزمرّد والمرجان والفيروزج والزبرجد والعقيق، فيما سمّاه المقامة الياقوتية. وكعادته أورد ما جاء في ذكر كل واحدة منها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية - إن وجدت -، وخصائص كل واحدة منها ومنافعها في الزينة والاقتصاد والتجارة والطب وما ورد فيها من أشعار.

وانتقل بعد ذلك إلى المقامة الذهبية في الحمى، فذكر ما ورد فيها من أحاديث نبوية. وتحدّث عن أسبابها وفوائدها البدنيّة والدينية، وكيفية معالجتها ومداواتها.

وجعل المقامة الثامنة باسم المقامة البحرية أو النيلية، وهي تتحدّث عن نقصان النيل بعد زيادته وفيضانه. وهو في ذلك يذكر الآيات والأحاديث والأشعار، وتحدّث بلغة صاحب كل علم من العلوم التي في زمنه لتوضح علوّ

كربه وتفتّته بما فيهم الطبيب الذي يقول: هذه أيام بُحران (مدة زيادة الحمّى)، يخشى منها الهلاك إن لم يلتق البحران، وإن لم تنضج مادة الزيادة لم يحصل الشفا، وما لم يبلغ الماء القانون المعتاد فالناس على شفا (أي الهلاك).

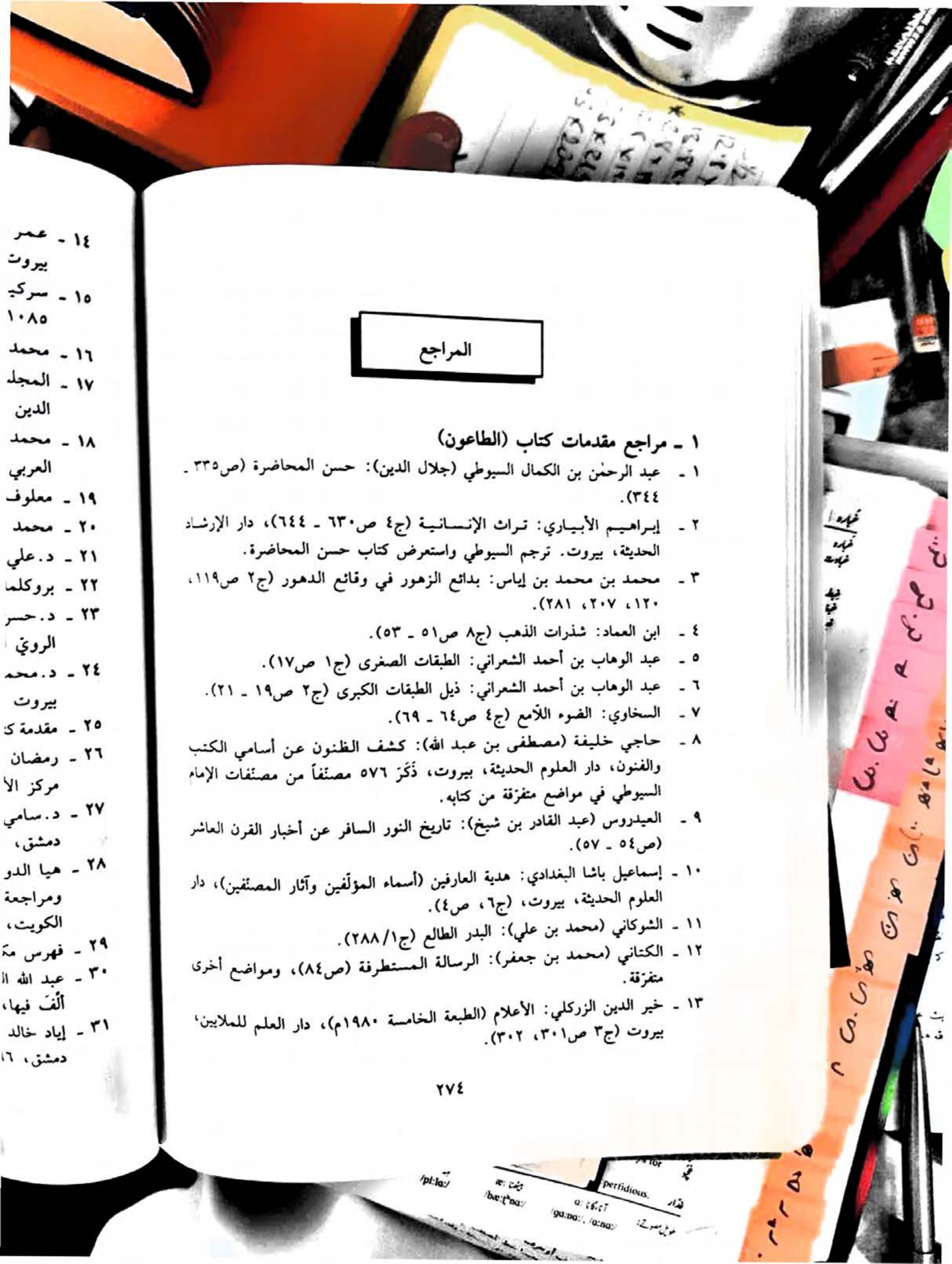
ثم جعل مقامة كاملة عن منطقة الروضة المعروفة بروضة المنيل في القاهرة التي سكن فيها واعتزل الناس في بيته هناك حتى مات، ووصف جمالها وتاريخها وما ذكره الشعراء فيها وفي وفاء النّيل.

وجعل مقامة كاملة للطاعون سمّاها المقامة الذّرية في الطاعون والوباء، وقد أنشأها بسبب حدوث الطاعون في مصر عام ٨٧٩هـ، وأن الطاعون إنما قدم مصر من بلاد الروم... وقد حدث الطاعون في أوربا وقتل عشرات الملايين. وانتقل إلى الشام ومصر وغيرها من البلاد... وكان الطاعون دوماً أشدّ انتشاراً في أوربا عنه في الشرق الإسلامي بسبب الالتزام بالأحاديث النبويّة الواردة في الطاعون... وعدم الدخول أو الخروج من البلدة المصابة بالطاعون.

ثم انتقل إلى المقامة اللازوردية في التعزية عن فقد الذريّة، وجعل المقامة الأخيرة بعنوان مقامة الروضة في والديّ خير البرية.

وهكذا نجد السيوطي في هذه الرسائل أو المقامات يتحدّث بأسلوب أدبي عن الفوائد الطبية للورد والرياحين والأزهار وأنواع الطيب وأنواع الفواكه والخضروات والبقول (المكسّرات)، ويتحدّث عن الحمّى والطاعون والوباء.

وهو في ذلك كلّه لغوي بارع ومحدّث وفقيه وأديب وطبيب... ولا شكّ أن هذه المقامات الأدبية الطبيّة ثروة أدبية طبيّة... وأنها تدخل ضمن التراث الطبي الأدبي وتراث الطب النبوي.



المراجع

١ ـ مراجع مقدمات كتاب (الطاعون)

١ ـ عبد الرحمٰن بن الكمال السيوطي (جلال الدين): حسن المحاضرة (ص٣٣٥ ـ ٣٤٤).

٢ ـ إبراهيم الأبياري: تراث الإنسانية (ج٤ ص٦٣٠ ـ ٦٤٤)، دار الإرشاد الحديثة، بيروت. ترجم السيوطي واستعرض كتاب حسن المحاضرة.

٣ ـ محمد بن محمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور (ج٢ ص١١٩، ١٢٠، ٢٠٧، ٢٨١).

٤ ـ ابن العماد: شذرات الذهب (ج٨ ص٥١ ـ ٥٣).

٥ ـ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني: الطبقات الصغرى (ج١ ص١٧).

٦ ـ عبد الوهاب بن أحمد الشعراني: ذيل الطبقات الكبرى (ج٢ ص١٩ ـ ٢١).

٧ ـ السخاوي: الضوء اللامع (ج٤ ص٦٤ ـ ٦٩).

٨ ـ حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت، ذَكَرَ ٥٧٦ مصنَّفاً من مصنفات الإمام السيوطي في مواضع متفرّقة من كتابه.

٩ ـ العيدروس (عبد القادر بن شيخ): تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر (ص٥٤ ـ ٥٧).

١٠ ـ إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين (أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين)، دار العلوم الحديثة، بيروت، (ج٦، ص٤).

١١ ـ الشوكاني (محمد بن علي): البدر الطالع (ج١/ ٢٨٨).

١٢ ـ الكتاني (محمد بن جعفر): الرسالة المستطرفة (ص٨٤)، ومواضع أخرى متفرّقة.

١٣ ـ خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الخامسة ١٩٨٠م)، دار العلم للملايين، بيروت (ج٣ ص٣٠١، ٣٠٢).

١٤ ـ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين (ج٥ ص١٢٨ ـ ١٣١)، دار إحياء التراث، بيروت.

١٥ ـ سركيس (يوسف): معجم سركيس للمطبوعات العربية والمعرّبة (ص١٠٧٣ ـ ١٠٨٥).

١٦ ـ محمد شرقاوي إقبال: مكتبة الجلال السيوطي، المغرب.

١٧ ـ المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية والجمعية المصرية للدراسات: ندوة جلال الدين السيوطي.

١٨ ـ محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة (ص١٠٥٩)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٩ ـ معلوف (لويس): المنجد للأعلام (ص٣٧٨).

٢٠ ـ محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسّرون (ج١ ص١٤٥).

٢١ ـ د.علي صافي: الإمام جلال الدين السيوطي.

٢٢ ـ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي (ج١ ص١٤٥).

٢٣ ـ د.حسن محمد مقبولي الأهدل: تحقيق ومقدمة كتاب المنهج السويّ والمنهل الرويّ للسيوطي، مؤسسة الثقافة، بيروت.

٢٤ ـ د.محمود ناظم نسيمي: الطب النبوي والعلم والحديث، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٧م، (الطبعة الثانية) (ج١ ص١٠٠ ـ ١١١).

٢٥ ـ مقدمة كتاب الحاوي للفتاوى للإمام السيوطي، وفيه ترجمة وافية للإمام السيوطي.

٢٦ ـ رمضان ششن: فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، إصدار مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٨٤م.

٢٧ ـ د.سامي حمارنة: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية: طب وصيدلة، دمشق، ١٩٦٩م.

٢٨ ـ هيا الدوسري: فهرس المخطوطات الطبّية المصوّرة، قسم التراث العربي، ومراجعة د.سامي مكي العاني، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤م.

٢٩ ـ فهرس مكتبة ابن عباس بالطائف.

٣٠ ـ عبد الله الحبشي: معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي وبيان ما أُلّف فيها، الدار اليمنية، صنعاء، ١٩٨٥م.

٣١ ـ إياد خالد مدني: جلال الدين السيوطي: معلمة العلوم الإسلامية، دار القلم، دمشق، ١٩٩٦.

٣٢ ـ جلال الدين السيوطي: الرحمة في الطب والحكمة (منسوب للإمام السيوطي ومؤلّفه مهدي بن علي بن إبراهيم اليمني الصبيري المهمجي)، مخطوط.

٣٣ ـ محمد إبراهيم سليم: مقامات السيوطي الأدبية والطبّية، مكتبة الساعي، الرياض (غير مذكور سنة النشر).

٣٤ ـ أحمد بن محمد زبيلة: تخريج ودراسة أحاديث الطب النبوي في الأمّهات الستّ، رسالة ماجستير من كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى (مكة المكرمة) ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

مراجع الشرح والدراسة والتحقيق لكتاب الطاعون

القرآن الكريم والتفسير:

١- ابن جرير الطبري (محمد): جامع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٧.

٢- ابن كثير (إسماعيل): تفسير القرآن الكريم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة (غير مذكور سنة الطبع).

المعاجم وفهارس الكتب:

٣- محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار مطابع الشعب، القاهرة.

٤- إسماعيل بن حماد الجوهري: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢.

٥- محمد بن يعقوب الفيروزابادي: القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت (طبعة مصوّرة).

٦- ابن منظور (محمد بن مكرم الخزرجي): لسان العرب، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٧- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧.

٨- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة، بيروت، طبعة مصوّرة.

٩- إسماعيل باشا بن محمد البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، مكتبة المثنى، بغداد.

١٠- إسماعيل باشا بن محمد البغدادي: هدية العارفين، دار العلوم الحديثة، بيروت، ١٩٨١، (طبعة مصوّرة).

١١- خير الدين محمود الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠.

١٢ ـ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٣ ـ عبد الله محمد الحبشي: معجم الموضوعات المطروقة في التأليف الإسلامي. الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٥.
١٤ ـ د. رمضان ششن وإشراف د. أكمل الدين إحسان أوغلي: فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون. منظمة المؤتمر الإسلامي، استانبول ١٩٨٤.
١٥ ـ عثمان محمود حسين: فهرس المخطوطات العربية بمكتبة عبد الله بن عباس بمدينة الطائف، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت ١٩٨٦.
١٦ ـ د. سامي حمارنة: فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق، طب وصيدلة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦٩.
١٧ ـ فهارس المخطوطات، دار الكتب المصرية، المخطوطات الطبّية، المصورة، المجلد التاسع، خريف ١٩٨٠، العدد الثالث (إعداد أبو نهلة أحمد بن عبد المجيد).
١٨ ـ هيا الدوسري: فهرس المخطوطات الطبّية المصورة، قسم التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٤.
١٩ ـ مخطوطات مكتبة الأحقاف بتريم، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٢٧ ج٢، يوليو ـ ديسمبر ١٩٨٣، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية.
٢٠ ـ إبراهيم شبوح: فهرس المخطوطات المصوّرة، معهد المخطوطات العربية، الجامعة العربية، القاهرة ١٩٥٩، ج٣: العلوم، القسم الثاني: الطب.

كتب الحديث النبويّ وشروحها:

٢١ ـ محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الشعب، القاهرة مصورة عن طبعة السلطان عبد الحميد ١٣١١هـ.
٢٢ ـ مسلم بن حجاج القشيري: الجامع الصحيح، دار الطباعة العامرة، القاهرة ١٣٢٩هـ.
٢٣ ـ أحمد بن النسائي: سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤ ـ محمد بن عيسى الترمذي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، دار الكتب، بيروت، ١٩٨٣.



٢٥ - محمد شمس الحق العظيم أبادي: عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩.

٢٦ - ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): فتح الباري، شرح صحيح البخاري، المطبعة السلفية، القاهرة، تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، وإشراف محب الدين الخطيب، ١٣٨٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢٧ - ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي): بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار العاصمة، الرياض، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٢٨ - يحيى بن شرف النووي: شرح صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت.

٢٩ - المتقي حسام الهندي: كنز العمال، ضبط وتصحيح بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩.

٣٠ - محمد بن سليمان: جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد، تخريج السيد عبد الله هاشم اليماني المدني، ١٩٦١.

٣١ - علي بن عمر الدارقطني: سنن الدارقطني، تعليق محمد شمس الحق عبد العظيم أبادي، وترقيم السيد عبد الله هاشم اليماني، المدني، القاهرة ١٩٦٦.

٣٢ - إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، تصحيح أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣.

٣٣ - جلال الدين السيوطي: تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، دار الندوة الجديدة، بيروت (طبعة مصوّرة).

٣٤ - أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة.

٣٥ - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، ١٩٩٠.

٣٦ - شاكر محمود عبد المنعم: ابن حجر دراسة مصنّفاته ومنهجه وموارده في كتاب الإصابة، وزارة الأوقاف بغداد، دار الرسالة للطباعة، ١٩٧٨.

٣٧ - محمد بن جعفر الكتاني: الرسالة المستطرفة، تقديم د.محمد المنتصر الكتاني.

كتب الطب النبوي:

٣٨ - جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي: المنهج السويّ والمنهل الرويّ في الطب النبويّ، تحقيق د.حسن محمد مقبولي الأهدل، مكتبة الجيل الجديد بصنعاء، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٦.

٣٩ ـ ابن القيم (محمد بن أبي بكر): الطب النبوي، تحقيق د.عبد المعطي قلعجي، دار التراث، القاهرة ١٩٧٨.

٤٠ ـ د.محمد علي البار: العدوى بين الطب وحديث المصطفى، الدار السعودية، جدة، الطبعة الخامسة ١٩٨٥.

٤١ ـ د.محمد علي البار: هل هناك طب نبوي؟ الدار السعودية، جدة، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

الكتب الطبية التراثية:

٤٢ ـ أبو بكر (محمد بن زكريا) الرازي: المنصوري في الطب، تحقيق د.حازم البكري، معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت ١٩٨٧.

٤٣ ـ أبو بكر (محمد بن زكريا) الرازي: الحاوي في الطب، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن بالهند، الطبعة الثانية ١٩٧٦.

٤٤ ـ ابن سينا (الحسين بن علي): القانون في الطب، تحقيق أدوار القش، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٧.

٤٥ ـ ابن النفيس (علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي): الموجز في الطب، تحقيق عبد الكريم العزباوي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، وزارة الأوقاف، مصر ١٩٨٦.

٤٦ ـ د. عادل البكري: حمدان بن عثمان وكتابه إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس من الوباء، ندوة الطب والصيدلة في المغرب العربي، مركز إحياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، بغداد ١٩٩٠.

كتب التوراة والعهد القديم:

٤٧ ـ د.محمد علي البار: المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٠.

٤٨ ـ د.محمد علي البار: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم، دار القلم دمشق - الدار الشامية، بيروت، ١٩٩٠.

٤٩ ـ الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدّس، القاهرة.

بعض مراجع ترجمة الإمام السيوطي:

٥٠ ـ إبراهيم الأبياري: الإمام السيوطي كتاب حسن المحاضرة، تراث الإنسانية (ج٤/ ٦٣٠ ـ ٦٤٤)، القاهرة.

٥١ - د.محمد علي البار: الإمام السيوطي وكتبه في الطب النبوي، تحت الطبع.
٥٢ - محمد بن محمد بن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور.
٥٣ - د.حسن محمد المقبولي: تحقيق المنهج السوي والمنهل الرويّ في الطب النبوي للسيوطي، مكتبة الجيل الجديد بصنعاء ١٩٨٦.
٥٤ - عبد القادر بن شيخ العيدروس: تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر.
٥٥ - محمد شرقاوي إقبال: مكتبة الجلال السيوطي، المغرب.
٥٦ - ندوة جلال الدين السيوطي، المجلس الأعلى للبحوث الإسلامية والجمعية المصرية للدراسات، القاهرة.
٥٧ - مقدمة كتاب الحاوي للفتاوى للإمام السيوطي، وفيه ترجمة وافية للسيوطي.
٥٨ - إياد خالد طباع: الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي: معلمة العلوم الإسلامية، دار القلم، دمشق ١٩٩٦.

المراجع باللغة الانجليزية

٥٩- Lawrence Conrad: Epidemice in Central Syria in the late Sixth Century. Some new insights from the verse of Hassan ibn Thabit. BMGS (1994), 18: 12 - 58.

٦٠ - Lawrence Conrad: Epidemice disease in formal and popular thought in early Islamic Society, in: eds Ranger T, Slack P. Epidemice and ideas. Cambridge University Press, U.K. p.77 - 99.

٦١ - Manson's Tropical Diseases, Bailliere - Tindall, London, 18ème édition, 1982.

٦٢ - Kumar P. Calrk M: Clinical Medicine, Bailliere - Tindal,London, 2nd edition, 1990.

٦٣ - Cecil Textbook J. Medicine, Saunders Co. Philadelphia, 17th ed., 1985.

٦٤ - The Merk Manual of Diagnoisis and Therapy, Merck Co., 14th edition, N.J. 1982.

٦٥ - Encyclopedia Britanica, 15th. edition, 1982.

٦٦ - Editorial: Lancet 1994 (15 Oct.), 344, (8929): 1033 - 1035.

٦٧ - Nature 23 Feb. 1995, 373: 650 (News).

٦٨ - Editorial: Annals of Int. Med. 1995 (15 Jan.) 122, (2): 151 - 153.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مكتبة الإمام السيوطي في الطب النبوي